الراهبة

دنيس ديدرو

ترجمة: روز مخلوف

علي مولا

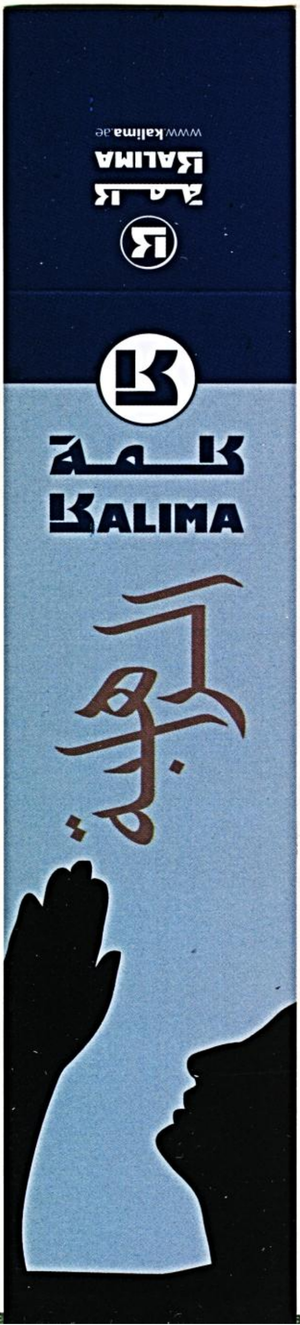

نبذة عن المؤلف:

ولد في عام 1713 في الخامس من أكتوبر في لانغر ودرس في ثانوية اليسوعيين في لانغر ثم في باريس. حصل على درجة الأستاذية في الفنون، وتابع دراساته اللاهوتية في السوربون.

عمل في الترجمة بين عامي 1742 و 1749. التقى بجان جاك روسو عام 1742، و بـ كونديّاك عام 1745، ودالامبير عام 1746. وقع عقداً مع دار «ناشرون متّحدون» من أجل طباعة «الموسوعة». وفي عام 1746 نشر مؤلّف «أفكار فلسفية» الذي حُكم عليه بالحرق، وفي عام 1748 «مذكرات حول موضوعات رياضية مختلفة»، وفي العام نفسه نشر مؤلفاً بيعَ في الخفاء بعنوان «حِليّ فاضحة»، وفي عام 1749 «رسالة عن العميان» سُجن بسببها في دونجون ثم في قصر فَنسين.

توفي ديدرو في 31 يوليو عام 1784.

للمزيد من زاد المعرفة وكتب الفكر العالمي

اضغط (انقر) على الرابط التالي

www.alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الإسكندرية

الراهبة

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

الراهبة

دنيس ديدرو

© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1430 هـ 2009 م

PQ1979.A1212 2009
Diderot, Denis:1713-1784
[La Religieuse]

الراهبة/ تأليف: دنيس ديدرو؛ ترجمة: روز مخلوف.- ط.1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.

200ص ؛ 24x17 سم.

ترجمة كتاب: **La Religieuse**

تدمك: **978-9948-01-414-0**

1 - القصص الفرنسية. أ- مخلوف، روز. ب- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

La Religieuse
Diderot, Denis

info@kalima.ae
www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+

www.cultural.org.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ، فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

الراهبة

دنيس ديدرو

صدرت عام 1796

بعد وفاة المؤلف

ترجمة: روز مخلوف

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

مقدمة

لا تبدو لي روايةُ «الراهبة» بالقدر الذي اشتهرتْ به من المعاداة الشديدة للكنيسة. لنرَ:

تضم هذه الرواية ثلاثة فصول أساسية.

1. سوزان سيمونان، فتاة في السادسة عشرة والنصف من العمر، ابنة محام، توضع في دير، وتُجرّد من جهازها، وتُعامل من أبويها أقسى معاملة: إنها في الواقع طفلةٌ غير شرعية. شهادة رهيبة ضد برجوازية العصر وضد قسوة القلب البشري، لا دخْلَ فيها للدين.

2. الدير الأول حيث تمضي مدة قصيرة. ثم الثاني، دير لونشان. إنه معسكر اعتقال ديني. قراءة هذا الفصل تكاد تكون لا تُحتمل: تلك الشيطانات - الراهبات!- يقشعرّ منهنّ البدنُ. إننا نعلم، وسأتوسّع في هذا لاحقاً، بأن هذا الميل للأذى وهذه السادية، لاتَغيبُ عن الكثير من دور الرهبنة.

3. تدخل الأخت سانت سوزان في دير ثالث. ننتقل من الجحيم إلى النعيم. هنا تتجسد «مباهج الجزيرة المسحورة»، الورع الذي كان يُخفي الفظاعةَ في دير لونشان، يخفي ههُنا حلاوةَ الحياة. الجميع في دير سانت أوتروب سعداء (بمن فيهم سانت سوزان)، التي كتبت عن أمسية قُدّمت فيها حلوى وقهوة وشراب وغناء غير ديني وعزف على الكلافسان وغير ذلك: «كانت أمسية لذيذة». يتم تخريب ذلك كله على يد مرشدٍ ينظر إلى الدين نظرة متشددة. كل ما فعله أنه قام بدوره لكنه جلبَ التعاسة. تُسحب من الراهبات بهجتهن ويصبحن شريرات وتصاب رئيسة الدير بالجنون.

«إننا نجعل منهم وحوشاً ضارية». كثيراً ما وُضعت ضراوةُ نزلاء الأديرة موضع دراسة. وهذه شهادتي:

كنت أكتب «بور رويال» (1953). كنتُ معجباً جداً بـ«قدّيساتي». كان القس كونييه،

المختص بشؤون بور رويال، والذي يحبهن بقدر ما أُحبهن، وكتب الكثير عنهن، قد أعارني، بين كتب أخرى أعارني إياها، كتابَ «الحياة الفاضلة لراهبات بور رويال»، من تأليفهنّ أنفسهن: إنه يوميات من داخل بور رويال في حقبة معينة. لقد صدمتني قسوة القلب والفظاظة اللتان كثيراً ما تظهران فيه، وفي أغلب الأحيان من الأكبر نحو الأصغر سناً. من بينهن آنسة صغيرة هي الآنسة دي كونفلان، هي العذوبة وحسن الطوية والتقوى ذاتُها، اضطُهدتْ إلى درجة حرمانها من الأمل بالجنة. وقد هزّني نَص احتضارها حتى أوصلني إلى حافة البكاء. كانت رئيسة الدير نفسها التي تضطهدها هي التي كتبت ذلك بنبرةِ رضىً. لو أمكنني اجتياز العصور بقفزة، لخاطرتُ بحياتي من أجل تخليص الآنسة دي كونفلان من ذلك المكان اللعين (والزواج منها لاحقاً، على سبيل المغامرة). «إنهنّ مؤذيات أحياناً» قلتُ بحذرٍ للقس العزيز كونييه. فأجابني بابتسامةٍ شرهة: «مؤذيات؟ إنهن فظيعات».

جمعتُ بعض هذه الملامح المخيفة تحت عنوان «وجه الظلّ لـ بور رويال». وستعود للظهور في طبعة أخرى قادمة من البلياد ألّفتُها عن المسرح. كما سبق ظهورها في إحدى المجلات.

وجهُ الظل... كلمة (وجه) هذه حاضرة هنا حقاً. فلكل كائن ولكل معتقَد ولكل مؤسسة وجوهها الثلاثة، ثلاثة أو أكثر: الوجه السامي، والوجه السخيف، والوجه الكريه. المدينة التي أميرُها... هذا هو الوجه السامي لمدرسة كاثوليكية في بداية هذا القرن، والتلاميذ هم الوجه الفعلي: أعني الوجه الذي يُظهِر تقريباً كلّ شيء عن حقيقته. كان بوسعي كتابة عمل آخر بعرضِ حقيقةِ تقصّيتُها على نحو أعمق، عمل يكون قاسياً، وآخر أُري فيه الوجه السخيف. لم أكتب عملاً كهذا إخلاصاً لشعاري: الحقيقة، لا شيء سوى الحقيقة، ولكن ليس كل الحقيقة.

«في ذلك العصر (1789)، كان كل شيء مشوّشاً في الأذهان والأعراف، أعراض ثورةٍ قادمة. كان القضاة يخجلون من ارتداء الثوب الرسمي، ويهزؤون من وقار آبائهم (...). ولمّا لم تعد زوجاتُ الرؤساء أمهاتٍ محتَرمات، كنّ يخرجن من منازلهنّ المعتمة، ويصبحن

نسوةً ذوات مغامرات مدوِّية. وكان الكاهن، من منصة الوعظ، يتجنب اسمَ يسوع المسيح، ولا يتكلم إلاّ عن مُشرِّع المسيحيين. اللباقة الفائقة كانت (...) أي شيء إنما ليس فرنسية. ما رحنا نفعله، وما نقوله لم يكن سوى سلسلة أشياء عديمة الأهمية».

أوردتُ هذه الصفحة من مذكرات ما وراء القبر لأنها تضع دير سانت أوتروب في سياق مقبول. الأعراف في سانت أوتروب مثيرة للشك، والديانة المسيحية لا تُمارس فيه كثيراً أو أنها تمارس ممارسة رديئة، لكن الإيمان بقي نقياً، ويلفظ هناك اسم يسوع المسيح، ويولى الاهتمام للتوبة أكثر مما للخطيئة، وتحبّ الراهبات بعضهن بعضاً: «حيث يكون الإحسان والحب، يكون الله».. الإحسان والحب، وإنْ انحرَفا عن الطريق القويم، أفضلُ من القسوة، أو أفضل فقط من قسوة القلب. لماذا قد يوجِّه ديدرو «الفيلسوف» اللومَ لديرٍ يُمارَس فيه سلوكٌ «فلسفيّ» دون تفريط بالإيمان؟

أتّهِمَ العائلة، ألعنُ دير لونشان، ولكنني أدافعُ عن سانت أوتروب، ولست بحاجة للدفاع عن موكبِ الطيبين ذاك الذي يمرّ عبر رواية «الراهبة»: المركيز دي كرواسمار، والراهبة الشابة أورسولا التي تمنح سوزان شعاعاً من الضوء وهي في عمق مُصابها، والمحامي مانوري الذي يُخرجها من جحيمها ويعمل من أجل تزويدها بجهاز راهبة، دوم موريل، والنائب الكنسي ومعاونَيْه، ورئيسة ديرِ سانت أوتروب، التي تريد لها الخير حتماً، وكاهن الاعتراف لوموان الذي سبّب الشقاء برؤيته الصائبة: ليس الدينُ هو ما يراه داشو ولا سيثيّر، إنه ما بينهما. ربما كان ديدرو متعصباً لجماعة ما، لكن «الراهبة» ليست رواية إنسان متعصب. لديّ إحساس بأنه يزين هذه الرواية بالكثير من اللطف البشري كباحث عن الحقيقة أكثر منه كروائي حاذق.

ليس ديدرو غيرَ معروفٍ معرفةً جيدة فقط، المصيرُ الذي يشترك فيه مع معظم كتّاب الماضي، بل لا توجد عنه صورة حتى بالخطوط العريضة، ولا يُعرف عنه بأنه رجل الموسوعة العظيم. ثمةَ شارع باسمه في باريس ولكنه ليس في الأحياء الجميلة، ولا في أحياء الأنتليجنسيا. احتاج الأمر إلى دراما سينمائية صغيرة وإلى مشكلة رقابة تناولتْها الصحافةُ قبل بضع سنين لكي تُقرَأ الراهبةُ من قِبل أناسٍ لم تدفعهم تلك القراءةُ لشراءِ كتابٍ واحدٍ آخر له.

تُحسن القواميس صنعاً بإعطاء الوقائع وتجنُّب الأحكام. يقول قاموسُ بوييه للتاريخ والجغرافيا،الذي كان كلاسيكياً في الماضي (1884)، بأن الراهبة «رواية مسرفة في تحررها وخفيفة. جلبت العار إلى قلم مؤلِّفها». يكاد يمكن وصف الراهبة بالتحرر، وهي ليست خفيفة على الإطلاق، بل بالعكس شديدة الرصانة، وليست عاراً على ديدرو، بل تنال من مصداقيّةِ قاموس بوييه. الراهبة هي إحدى الروايات الجيدة في القرن الثامن عشر وفي الأدب الفرنسي.

هنري دي مونترلان•

الراهبة

سيزوّدني ردُّ السيد المركيز دي كرواسمار، إذا ما كتب لي رداً، بالسطور الأولى لهذه الحكاية. قبل الكتابة إليه أردتُ أن أعرف من يكون. إنه من وجوه المجتمع، لامع في أداء وظائفه، ومتقدم في السن. كان متزوجاً، وله بنت وولدان يحبهم ويحبونه. نبيل المنبِت، متعلم، مرِح، متذوق للفنون الجميلة، وعلى الأخص أصيل. امتُدِحت لي رهافةُ إحساسه ونزاهتُه واستقامتُه. ومن خلال الاهتمام الشديد الذي أولاه لقضيتي، وعبر كل ما قيل لي عنه، توصلتُ إلى أنني لم أجازف بسمعتي حين توجهتُ إليه. لكنْ لا مجال للتخمين بأنه سيعزم على تغيير مصيري ما لم يَعرف من أكون. هذا ما جعلني أكبح عزةَ نفسي واشمئزازي، بشروعي بهذه اليوميات التي أصِف فيها جزءاً من تعاساتي، بلا موهبة ولا زخرفة، بسذاجة فتاة في عمري وصراحة طبعي. ومادام الوصيُّ عليّ قد يطالبني، أو أن الرغبة بإنجازها قد تراودني في وقتٍ ربما لا تَحْضُرني فيه وقائعُ بعيدةٌ، فكرتُ بأن خاتمتَها الإجمالية والانطباعَ القوي الذي سيبقى لي منها ما حييت، ربما يكفيان لتذكيري بها بدقة.

كان أبي محامياً. تزوج من أمي في عمرٍ متقدم إلى حد ما؛ أنجب منها ثلاث بنات. امتلك من الثروة أكثر مما يجب لتأمين أوضاعهن جيداً. غير أنه كان عليه، لهذا الغرض، أن يكون على الأقل منصفاً في محبته لنا. ولكن هيهات أن أستطيع توجيه هذا الثناء له. كنت بالتأكيد أفوق شقيقتيّ في مزايا الروح وجمال الوجه والطباع والمواهب؛ وبدا أن هذا كان يسبّب الكدر لأبويّ. ولمّا صار ما ميزتْني به الطبيعةُ والمثابرةُ، عنهما، مصدر غمّ بالنسبة إليّ، تمنيتُ منذ سنين طفولتي الأولى لو أُشْبِهُهما لكي أكون مثلهما محبوبةً مدللةً يُحتفى بي وتبرّر تصرفاتي دائماً. كان إذا قيل لأمي: «لديك بَنات ظريفات..».، لم يكن الكلام يُفهم أبداً بأنه عني. كنتُ أحياناً أتلقى ما يعوِّضني تعويضاً كافياً عن هذا الظلم؛

الراهبة

سيزوِّدني ردُّ السيد المركيز دي كرواسمار، إذا ما كتب لي رداً، بالسطور الأولى لهذه الحكاية. قبل الكتابة إليه أردتُ أن أعرف من يكون. إنه من وجوه المجتمع، لامع في أداء وظائفه، ومتقدم في السن. كان متزوجاً وله بنت وولدان يحبهم ويحبونه. نبيل المنبِت، متعلم، مرِح، متذوق للفنون الجميلة، وعلى الأخص أصيل. امتُدِحت لي رهافةُ إحساسه ونزاهتُه واستقامتُه. ومن خلال الاهتمام الشديد الذي أولاه لقضيتي، وعبر كل ما قيل لي عنه، توصلتُ إلى أنني لم أجازف بسمعتي حين توجهتُ إليه. لكنْ لا مجال للتخمين بأنه سيعزم على تغيير مصيري ما لم يَعرف من أكون. هذا ما جعلني أكبح عزةَ نفسي واشمئزازي، بشروعي بهذه اليوميات التي أصِف فيها جزءاً من تعاساتي، بلا موهبة ولا زخرفة، بسذاجةِ فتاةٍ في عمري وصراحةِ طبعي. ومادام الوصيُّ عليّ قد يطالبني، أو أن الرغبة بإنجازها قد تراودني في وقتٍ ربما لا تَحْضُرني فيه وقائعُ بعيدةٌ، فكرتُ بأن خاتمتَها الإجمالية والانطباعَ القوي الذي سيبقى لي منها ما حييت، ربما يكفيان لتذكيري بها بدقة.

علي مولا

كان أبي محامياً. تزوج من أمي في عمرٍ متقدم إلى حد ما؛ أنجب منها ثلاث بنات. امتلك من الثروة أكثر مما يجب لتأمين أوضاعهن جيداً. غير أنه كان عليه، لهذا الغرض، أن يكون على الأقل منصفاً في محبته لنا. ولكن هيهات أن أستطيع توجيه هذا الثناء له. كنت بالتأكيد أفوق شقيقتيّ في مزايا الروح وجمال الوجه والطباع والمواهب؛ وبدا أن هذا كان يسبّب الكدر لأبويّ. ولمّا صار ما ميزتْني به الطبيعةُ والمثابرةُ، عنهما، مصدر غمّ بالنسبة إليّ، تمنيتُ منذ سنين طفولتي الأولى لو أُشْبِهُهما لكي أكون مثلهما محبوبةً مدللةً يُحتفى بي وتبرّر تصرفاتي دائماً. كان إذا قيل لأمي: «لديك بَنات ظريفات..».، لم يكن الكلام يُفهم أبداً بأنه عني. كنتُ أحياناً أتلقى ما يعوِّضني تعويضاً كافياً عن هذا الظلم؛

لكن المديح الذي أتلقاه كان يكلِّفني غالياً عندما نصبح وحدنا، إلى درجة كنت أفضِّلُ معها بالقدر نفسه لو عوملْتُ باستخفاف، أو حتى لو شُتِمت. كلما أظهر الغرباء إيثارهم لي أكثر، ساء الجو أكثر عند انصرافهم. آه كم من المرات بكيت لأنني لم أولد قبيحةً غبيةً حمقاء متعجرفة؛ أي باختصار، بكل العيوب التي كانت تُكْسِبُهما النجاحَ عند أبوينا! كثيراً ما سألتُ نفسي من أين يأتي أبٌ وأمٌّ يتصفان أساساً بالنزاهة والعدل والورع، بهذا السلوك العجيب؟ هل أعترف لك يا سيدي؟ إنّ أقوالاً أفلتتْ من أبي ساعةَ غضبٍ، فقد كان عنيفاً، وظروفاً تراكمتْ في أوقات مختلفة، وكلاماً من الجيران، وأحاديثَ من الخدم، جعلَتْني أستشعر بسببٍ قد يبرِّر لهما قليلاً. فربما كان لدى أبي شكٌّ ما بشأن ولادتي؛ وربما أُذَكِّر أمي بخطأٍ ارتكبَتْه، ونكرانِ جميلٍ عانته من رجلٍ أسرفتْ في تلبية رغباته، ما أدراني؟ ولكن، إذا لم تكن هذه الشكوك صحيحة، فلن أخشى شيئاً إذا بحثتُ لك بها؟ سوف تحرق هذا المكتوب وأعدك بإحراق جواباتك.

لمّا جاءت ولاداتُنا في أوقات متقاربة، فقد كبرنا ثلاثتُنا معاً. أُقيمت حفلات، وكان هناك شاب ظريف ذو وجه جميل جداً ولديه من رجاحة العقل أكثر بكثير مما يُتوقّع في عمره، يتودّد لأختي الكبرى. لاحظتُ بأنه راح يميّزني، ورجَح لديّ بأنها، في القريب العاجل، لن تكون سوى وسيلة للتقرّب مني. أحسستُ سلفاً بكل ما قد يجرّه عليّ هذا الاهتمام من غم، فأعلمتُ أمي. ربما كان هذا هو الشيء الوحيد الذي فعلْتُه في حياتي وراقَ لها. وإليك كيف كوفئتُ عليه. بعد أربعة أيام، أو أيام قلائل على الأقل، قيل لي بأنه تم حجز مكانٍ لي في دير، وفي اليوم التالي تمّ اقتيادي إليه. كان وضعي في البيت سيئاً إلى درجة أن هذا الحدث لم يحزنني. ذهبتُ إلى سانت ماري، ديري الأول، بقدرٍ كبير من السرور. وفي تلك الأثناء، نسيَني عشيقُ أختي، لمّا لم يعد يراني، وأصبح زوجَها. اسمه م. ك. ويعمل كاتبَ عَدلٍ ويقيم معها في كوربيي حيث يعيشان حياة فيها ما يكفي من عدم التفاهم. أختي الثانية زوِّجت إلى رجل يدعى م. بوشون، يعمل تاجر حرائر في باريس بشارع كانكامبوا، وتعيش معه حياة لا بأس بها.

بعد تأمين وضعِ أختيّ، ظننت أنه سيتم التفكير بي، وأنني سرعان ما أخرج من الدير. كنت آنذاك في السادسة عشرة والنصف من عمري. حصلت شقيقتاي على مهر مرتفع، ورحتُ أُمَنّي نفسي بالمِثل. كان رأسي قد امتلأ بمشاريع فاتنة عندما طُلبتُ إلى ردهة الاستقبال. كان الزائر هو الأب سيرافان، مرشد أمي، ومرشدي أيضاً، لذا لم يجد غضاضة في شرح سبب زيارته: أن أتعهّد بتكريس نفسي للرهبنة. صحتُ محتجةً على هذا العرض الغريب وأعلنت له بوضوح بأنه ليس لدي أي ميل للرهبنة. «لا فرق، قال لي، فلقد فقدَ أبواك كل أملاكهما من أجل شقيقتيك، ولا أرى، في الكفاف الذي انتهيا إليه، ما الذي يستطيعانه من أجلك. فكري بالأمر يا آنستي. إما أن تلتحقي بهذا الدير إلى الأبد، أو تذهبي إلى دير في الضواحي، حيث تُقبلين مع مخصص زهيد ولا تخرجين منه إلا بوفاة والديك التي قد لا تحدث قريباً..». شكوتُ إليه بمرارة، وذرفت سيلاً من الدموع. كانت رئيسة الدير قد أُخبرَتْ بالأمر، وراحت تنتظر عودتي من ردهة الاستقبال. كنت في حال من الارتباك تفوق الوصف. قالت لي: «ما بك، يا طفلتي العزيزة؟ (كانت تعلم ما بي أكثر مني)!. لم أرَ قط مثل ما أنت فيه من يأس، إنك تجعلينني أرتجف. هل فقدتِ السيد والدك أو السيدة والدتك؟» فكرتُ بأن أجيبها وأنا أرتمي بين ذراعيها «ليت الأمر كذلك!.». واكتفيت بأن قلت صارخةً «للأسف، ليس لي أب ولا أم؛ أنا فتاة بائسة مكروهة ويُراد دفنها حيةً هنا». تركتْني أعبّر عن سيل مشاعري، وانتظرتْ لحظة هدوئي. شرحتُ لها بوضوح أكبر ما أُعلن لي حالاً. بدت مشفقةً علي، تعاطفتْ معي وشجعتني على عدم تبنّي حالةٍ لا أشعر بأي ميل إليها. وعدَتْني بأن تصلّي، وتكتب لأبويّ مبيّنةً الخطأ، وتحثّهما على إعادة النظر. آه يا سيدي، يا لرئيسات الدير أولئك، كم هن مخادعات! ليست لديك فكرة. لقد كتبَتْ بالفعل. لم تكن تجهل الردود التي ستتلقاها. أطلعَتْني عليها ولم أتعلّم الشك بحسنِ طويّتها إلا بعد وقت طويل. في تلك الأثناء حان الأجَلُ الذي حُدِّد لي كي أحسم أمري. جاءت تُعْلمني بذلك بحزنٍ مدروسٍ على أفضل نحو. لبثتْ دون كلام في البداية، ثم أسمعَتْني بضع كلمات تنم عن الإشفاق فهمتُ التتمة من خلالها. مشهدٌ آخر من اليأس. لن تحدث لي مشاهد أخرى كثيرة من هذا النوع كي أصِفها لك. تتجلى موهبتهن العظيمة

في معرفةِ كيفية تَمالُكِ أنفسهن. قالت لي بعد ذلك، في الحقيقة أظن أنها قالته باكيةً: «حسناً يا طفلتي، سوف تغادريننا إذن! لن نرى بعضنا بعد الآن يا طفلتي العزيزة!..». وكلمات أخرى لم أسمعها. كنت أرتمي على كرسي، ألوذ بالصمت أو أنتحب، ألبث بلا حراك، أو أنهض، وأذهب لأطلق ألمي مقابل الجدران أحياناً، وأحياناً أخرى فوق صدرها. وإليكَ ما حدث عندما أضافت: «ولكن، ماذا لو فعلتِ شيئاً. اسمعي، لا تقولي على الأقل بأنني نصحتكِ بذلك؛ أعتمد على كتمانك التام؛ لأنني لا أريد أن يوجّه لي انتقاد من أجل أي شيء في العالم. ماذا يُطلب منك؟ ارتداء ثوب الرهبنة؟ ولمَ لا ترتدينه؟ بأي شيء قد يُلزِمك ذلك؟ لا شيء. البقاء معنا سنتين أخريين. لا أحد يعرف من يموت أو من يعيش. السّنَتان وقتٌ طويل، وقد تحدث أشياء كثيرة في سنتين..». وأرفقتْ مع هذه الكلمات المخادعة الكثيرَ من لمسات الحنان، والكثير من تأكيدات المودّة، والكثير من أشكال الزيف الناعمة: «كنت أعرف أين أنا، ولا أعرف إلى أين قد يتم اقتيادي». وتركتُها تُقنِعني دون أن أبدي أية مقاومة. كتبتُ عندئذٍ إلى أبي. كانت رسالتها جيدة جداً! لا يمكن كتابة رسالة أفضل لهذا الغرض: لم تتستّر على حزني وألمي وشكاواي. وأؤكد لك بأن فتاة أذكى مني كانت ستنخدع بها. انتهى الأمر بإعطاء موافقتي. بأية سرعة أُعِدّ كل شيء! حُدّد اليوم، وفُصِّلت ثيابي، وحان موعد الاحتفال. ولا يتراءى لي اليومَ أقلُّ فاصل زمني بين هذه الأشياء.

نسيت أن أقول لك بأنني رأيت أبي وأمي، وأنني لم أدخر وسعاً للتأثير فيهما، وأنني وجدتهما غير قابلَين للتأثر. كان القس بْلين، الدكتور في السوربون، هو من وعظني، ومطران حلب هو من أعطاني الثوب. هذا النوع من الاحتفالات ليس بهيجاً بذاته، واحتفالُ ذلك اليوم كان من أشدّها تعاسة. ورغم أن الراهبات هرعن إليّ، وأحطن بي لمساندتي، فقد شعرت عشرات المرات بركبتيّ تخوران، ووجدت نفسي على وشك السقوط فوق درجات المذبح. لم أكن أسمع شيئاً ولا أرى شيئاً، ولبثت متبلدة الذهن؛ يقودونني وأنقاد، يسألونني ويجيبون عني. انتهى هذا الاحتفال الشاق، فانسحب الجميع وبقيتُ وسط القطيع الذي أُلحقتُ به للتو. أحاطت بي زميلاتي ورحن يقبّلنني ويقلن: «يا إلهي كم هي جميلة! كم يُبرز الغطاء الأسود بياضها! كم يلائمها رباط الرأس هذا! كم

يُدَوِّر وجهَها! كم يوسِّع خدّيها! كم يبرز هذا الثوب خصرها وذراعيها!..». كنت لا أكاد أصغي إليهن؛ كنت حزينة أشعر بالأسف. إلا أنني، يجب أن أقر بذلك، حين أصبحت بمفردي في حجرتي، تذكرتُ مدائحهن، ولم أستطع منع نفسي من التحقق منها في مرآتي الصغيرة. وبدا لي أنها لم تكن في غير محلها كلياً. ثمة امتيازات مرتبطة بهذا اليوم، ضُخِّمت لي، لكنني لم أعبأ بها، أحبّوا أن يعتقدوا عكس ذلك ويقولوه لي، رغم أنه كان واضحاً جداً أن لا شيء من ذلك صحيح. وفي المساء، عند الخروج من الصلاة، اتجهت رئيسة الدير إلى حجرتي. «في الحقيقة، قالت لي بعد أن تملّتني قليلاً، لا أدري لماذا تنفرين من هذا الثوب كل هذا النفور؛ إنه يلائمك على نحو رائع، وتبدين فاتنة. أنت راهبة وسيمة جداً يا أخت سوزان وهو ما سيجعلك محبوبة أكثر. دعينا نرى قليلاً. تمَشّي. لستِ منتصبة كفاية؛ لا يجب أن تنحني هكذا..». رفَعَت لي رأسي وقدميّ وقامتي وذراعيّ؛ كان الأمر أشبه بدرس من دروس مارسيل[1] في حركات التأنّق الرهبانية: لأن لكل حالة حركاتها. ثم جلستْ وقالت لي: «جيد، ولكن لنتكلم الآن بجدّ قليلاً. هاهما عامان كسبناهما إذن. قد يغيّر أبواك قرارَهما، وأنت نفسك ربما تودّين البقاء عندما يريدان إخراجك من هنا؛ لن يكون هذا مستحيلاً على الإطلاق. – سيدتي، لا تظني ذلك. – أمضيتِ بيننا وقتاً طويلاً لكنك لا تعرفين حياتنا بعد. صحيح أن لها متاعبها، لكن لها حلاواتها أيضاً... بإمكانكَ التكهن تماماً بكل ما أضافَتْه لي عن العالم الخارجي وعن حياة الدير، فهو مكتوب في كل مكان، وبالطريقة نفسها؛ فأنا أحمد الله على أنهم جعلوني أقرأ الحشو الكثير الذي رواه الرهبان عن رهبنتهم التي يعرفونها جيداً ويكرهونها، مقارنةً مع الخارج الذي يحبونه وينتقدونه بعنف ولا يعرفونه.

لن أخبركَ بتفاصيل الفترة التي أمضيتُها كمُستجِدّة. فلو تفحّصنا كل صرامتها لما استطعنا احتمالها. إلاّ أنها الفترة الألطف في حياة الأديرة. رئيسة المستجِدّات هي الراهبة الأكثرُ رأفةً بين الراهبات. يقوم درْسُها على حجبِ كل منغّصات الرهبنة عنك. إنها حصةٌ من أشد حصص التضليل براعةً وأفضلها إعداداً. هي التي تجعل الظلماتِ دامسةً حولَك

1- «معلّم رقص باريسيّ شهير ..». (إميل، الكتاب الثاني) ذكره جان جاك روسو مراراً للسخرية منه.

في الخارج، هي التي تهدهدك، وتنوّمك، وتخدعك، وتَفْتِن لبّك. تلك التي كانت أمّاً لنا كمستجدّات، تعلّقتْ بي على نحو خاص. لا أظن أن هناك روحاً شابة بلا خبرة، تقف منيعةً أمام هذه البراعة المشؤومة. توجد في العالَم هُوّات، لكنني لم أتخيل أن سفحاً بهذا الانحدار البسيط يوصِل إليها. إذا عطستُ مرتين متتاليتين، أُعفيت من القداس ومن العمل والصلاة، فأرقد في ساعة أبكر وأصحو متأخرة، ولا تعود القوانين تشملني. تصوّرْ يا سيدي أن هناك أياماً كنت أتوق فيها للحظةِ التي أقدّم فيها نفسي قرباناً. لا يقع حدث مؤسف خارج الدير إلاّ ويحدِّثنك عنه. يحوِّرن القصص الحقيقية لتصبح زائفة. يلي ذلك تسبيحات لا تنتهي بحمد الله وشكره لأنه وقانا من هذه الأحداث المشينة. في تلك الأثناء اقترب الوقت الذي كنت أحياناً أُسَرِّعُ قدومَه بالتَّمَنّي. أصبحتُ عندئذ حالمةً، وشعرت بنفوري يستيقظ، ويتضخم. كنتُ أذهب للبوح به إلى رئيسة الدير، أو إلى رئيسة المستجِدّات: إن أولئك النسوة ينتقمن حقاً من الضجر الذي نجلبهُ لهن؛ إذ لا يجب الظن بأنهن يستمتعن بالدور المنافق الذي يلعبنه، أو بالسخافات التي يضطررن لترديدها على مسامعك؛ فالأمر يصبح في النهاية في غاية الاستهلاك والكآبة بالنسبة إليهن؛ لكنهن يَمضين فيه لقاءَ نحوِ ألفِ إكيّة[1] يدرُّها على ديرهن. هذا هو الغرض المهم الذي، من أجله، يكذبن طوال حياتهن ويُعدِدن لفتيات بريئات يأساً يدوم أربعين أو خمسين عاماً، وربما شقاءً أبدياً. لأن من المؤكد يا سيدي، أنه من بين مئة راهبة يمُتْن قبل الخمسين، هناك مئة من المعذّبات بالمعنى الدقيق، عدا عن أولئك اللواتي، بانتظار الموت، يُصَبْن بالجنون أو الخبل أو يصبحن ساخطات.

حدث يوماً أن هربت واحدةٌ من هؤلاء من الحجرة التي احتُجِزت فيها. لقد رأيتُها. سيدي، هذا هو أوانُ سعادتي أو شقائي، تبعاً للطريقة التي ستتعامل بها معي. لم أر في حياتي شيئاً بهذه الشناعة. كانت مشعثة الشعر ودون ثياب تقريباً، تجرجر قيوداً حديدية، وعيناها زائغتان؛ كانت تقطّع شعرها وتدق بقبضتيها فوق صدرها، وتركض، وتصرخ، وتُنزِل أفظع اللعنات بنفسها وبالأخريات، وتدور باحثة عن نافذة تلقي بنفسها منها.

1- Ecu: عملة فرنسية قديمة.

تملّكني الرعب ورحت أرتجف بكل أطرافي. رأيت مصيري في مصير هذه المنكودة. وفي لحظتها تَقرّر في قلبي بأن الموت ألف مرة خيرٌ من تعريض نفسي له. لقد استشعرن بما قد يتركه ذلك الحادثُ في نفسي من أثر، ورأين بأن عليهن استباقَه. أخبرنني بما لا أدري من الأكاذيب السخيفة المتناقضة عن تلك الراهبة: بأنها منذ استقبالها لم تكن سليمة من الناحية الذهنية، وأنّ فزعاً شديداً تملّكها في مرحلة صعبة، وأن رؤىً تراودها؛ وبأنها تظن نفسها على تواصل مع الملائكة؛ وبأنها قرأت أشياء مضلِّلة أفسدت لها ذهنها؛ وبأنها سمعت شباناً مستجدّين من المفرطين في التشدد الأخلاقي، زرعوا في قلبها رعباً من يوم الحساب، طوّحتْ شِدّتُهُ برأسها المهزوز؛ وبأنها لم تعد ترى سوى الأبالسة والجحيم ولَجج النار، وبأنهن تعيسات من أجلها؛ وأن أحداً لم يسمع قط بحالة مماثلة في الدير؛ ولا أدري ماذا أيضاً. لم يؤتِ هذا الكلام ثماره عندي. كانت صورة تلك الراهبة المجنونة تعاودني في كل لحظة، ورحت في سري أجدد قَسَمي بالامتناع عن النطق بأي نذر من نذور الرهبنة.

حانت اللحظة التي تتطلب مني إثبات قدرتي على احترام كلمتي. فذات صباح، رأيتُ رئيسة الدير تدخل إليّ بعد الصلاة، حاملةً رسالة، وعلى وجهها ارتسمت تعابير الحزن والوهن. كان ذراعاها مرتخيين وكأن يدها لا تقوى على حمل تلك الرسالة. راحت تنظر إلي، وبدا كأن دموعاً في عينيها. صمتتْ وكذلك فعلتُ أنا. كانت تنتظر أن أتكلم أولاً. راودتني رغبة بذلك لكنني أمسكتُ نفسي. سألتني عن حالي، عن الصلوات التي طالت اليوم حقاً، وعن كَوْني سَعَلْتُ قليلاً، وبدَوتُ لها متوعكة. أجبت عن ذلك كله بـ: «لا، أيتها الأم العزيزة». كانت ما تزال تمسك برسالتها بيدٍ مرتخية، ووضعتْها فوق ركبتيها، أثناء طرحها لتلك الأسئلة، ويدُها تخبئها جزئياً. أخيراً، وبعد أن التفّتْ حول بضع استفسارات عن أبي وأمي، وحين رأت بأنني لا أسألها عما تكون تلك الورقة، قالت لي: «هاك رسالة..».

عند هذه الكلمة شعرت بقلبي يضطرب، وأضفت بصوت متقطع وشفتين مرتجفتين: «أهي من أمي؟

– أنت قلتِها. خذي، اقرئي..».

هدأ روعي قليلاً. تناولتُ الرسالة وقرأتها بقدر كافٍ من التماسك في البداية؛ لكني كلما تقدمتُ في القراءة، ومع تعاقُب مشاعر الخوف والاستنكار والغضب والغيظ في داخلي، راحت تصدر عني أصوات مختلفة، وترتسم على وجهي تعابير مختلفة، وأقوم بحركات مختلفة. أحياناً لا أكاد أمسك بتلك الورقة، أو أمسكها كأني أريد تمزيقها، أو أشد عليها بعنف كما لو أني أرغب بجعلَكَتِها ورميِها بعيداً عني.

«إذاً يا طفلتي، بمَ سنجيب على هذا؟

– أنت تعرفين يا سيدتي.

– لا، لا أعرف. الظروف صعبة وعائلتُك قد تكبدت الخسائر. ووضعُ أختَيْك المادّي متعثّر ولدى كل منهما كثير من الأطفال، وبعد أن استُنفدت المواردُ من أجل زواجهما، فإنّ المعونات التي تُرسَل إليهما تسير بالعائلة نحو الإفلاس. من المستحيل أن توفّر لك مستقبلاً مضموناً. أنت ارتديتِ ثوب الرهبنة، والعائلة أنهكَتْها النفقات. بهذه الخطوة زرعتِ الآمال. فقد ذاع خبرُ نذرِ نفسك القريب للرهبنة، بين الناس. عدا ذلك، ثقي دوماً بدعمي. لم أجتذب إلى الدّين أحداً قط. فهي حالة يدعونا إليها الرب، ومن الخطير جداً خلطُ أصواتنا بصوته. لن أشرع أبداً بمخاطبة قلبك إذا لم تخاطبه العنايةُ الإلهية؛ حتى الآن لا أحمل وِزر شقاءِ فتاة أخرى، فكيف أبدأ بك يا بنيّتي وأنت الغالية عليّ إلى هذا الحد؟ لم أنسَ أنك قمت بالخطوات الأولى بإقناع مني، ولن أقبل بأن يُستغل ذلك من أجل تطويعك رغماً عن إرادتك. لنر معاً إذاً، دعينا نتفاهم. هل تريدين أن تنذري نفسك؟

– لا يا سيدتي.

– أليس لديك أي ميل للرهبنة؟

– لا يا سيدتي.

– ألن تطيعي أبويك أبداً؟

– لا يا سيدتي.

– ماذا تريدين أن تصبحي إذاً؟

– أي شيء، إلا راهبة. لا أريد أن أكون راهبة، ولن أكون.

– حسناً إذاً، لن تكوني راهبة. لنرَ، دعينا نرتب جواباً لأمك..».

اتفقنا على بعض الأفكار. كتبتْ وأطلعَتْني على رسالتها التي بدت لي جيدة جداً أيضاً. في تلك الأثناء أُوفِدَ إلي مديرُ الدير؛ وأُرسل لي الدكتور الذي وعظني في حفل ارتدائي للثوب؛ وأوصوا بي رئيسةَ المستجدات؛ رأيت السيد أسقف حلب؛ واضطررتُ لمجادلة نسوة ورِعات لاأعرفهن تدخّلن في قضيتي؛ ودارت مداولات بلا انقطاع مع رهبان وقساوسة؛ جاء أبي، وكتبت لي أختاي؛ وكانت أمي آخر من ظهر: قاومتُ كل شيء. مع ذلك تَقرّرَ يومُ ترسيمي؛ لم يُهملوا شيئاً في سبيل الحصول على موافقتي؛ لكنهم عندما رأوا عدم جدوى التماسِها، قرروا الاستغناء عنها.

حُبست في حجرتي منذ تلك اللحظة، وفُرض علي الصمت، وفُصلت عن العالم وهُجرتُ. رأيت بوضوح بأنهم مصممون على التصرف بمصيري دون أن يعبأوا بي. لم أكن أريد إعطاء تعهُّد؛ تلك كانت نقطة محسومة: وكل الأهوال التي راحوا يرمونني بها بلا انقطاع، حقيقيةً كانت أم وهمية، لم تجعلني ألين أو أتردد. إلا أنني كنت في حالة يرثى لها؛ كنت أجهل ما الذي يمكن أن يدوم؛ وإذا انتهى، كنت أكثر جهلاً بما يمكن أن يحدث لي. وسط هذه الشكوك اتخذت موقفاً، لك يا سيدي أن تقيّمه على هواك. لم أعد أرى أحداً، لا رئيسة الدير ولا أمّ المستجدّات ولا زميلاتي؛ أخطرتُ الرئيسةَ وتظاهرتُ بالاقتراب مما يريده أبواي؛ لكن هدفي كان إنهاءَ هذا الاضطهاد بطريقة مدوِّية، والاحتجاجَ أمام الملأ على فعل الإكراه الذي يضمرونه. بناءً عليه قلتُ بأن الإنسان هو سيد مصيره، وأن بوسعه التصرف فيه كما يريد؛ وهم يطالبونني بأن أنذر نفسي للرهبنة وسأفعل. عمّ الفرحُ الديرَ كله، وعادت الملاطفات، ومعها كل المدائح وكل الإغراءات. «لقد خاطبَ الله قلبي. ولا يوجد مَن هو منذور لحالة الكمال أكثر مني. ولم يكن ممكناً ألاّ يحدث ذلك، وكان متوقعاً دوماً، وأنّ أحداً لا يؤدي واجبات الرهبنة بهذا القدر من الاستهداء إلى الفضيلة ومن الجلَد، لو لم يكن منذوراً لها حقاً. وأنه لم يسبق لأمّ المستجِدّات أن رأت في أيّ من تلميذاتها ميلاً طبيعياً أشدّ نصاعةً. كانت متفاجئة تماماً من الانعطافة التي قمتُ بها؛ لكنها لطالما أشارت لرئيسة الدير بضرورة الصبر، لأن الأمر كان سينقضي، وأنّ أفضل الراهبات مررن بلحظات من هذا النوع؛ وأنها وسوسات من الشيطان الذي يضاعف جهوده حين

يكون على وشك فقدان فريسته؛ وأنني كنتُ سأفلت منه؛ وأنه لم يعد أمامي غيرُ الورود؛ وأن فروض حياة الرهبنة ستبدو لي أكثر قابلية للتحمل كوني هوّلتُها على نفسي تهويلاً أشدّ؛ وأنّ هذا الشعور بنيرٍ جاثم ثقيل، هو نعمة من الله الذي لجأ إلى هذه الوسيلة من أجل تخفيفه..)).

كان يبدو لي فريداً بما فيه الكفاية أن يأتي الشيءُ نفسه من الله أو من الشيطان، وفقاً للطريقة التي يراد رؤيته بها. هناك حالات كثيرة مماثلة في الدين، فأولئك الذين واسوني، كثيراً ما قال لي بعضُهم عن أفكاري بأنها وسوسات من الشيطان، وقال بعضهم الآخر بأنها إلهام من الله. الشر نفسه يأتي إما من الله الذي يمتحننا أو من الشيطان الذي يوسوس لنا.

تصرفتُ بتكتّم؛ ظننت بأنني أستطيع أن أضْمَن نفسي. رأيتُ أبي؛ كلّمني ببرود. رأيت أمي؛ قبّلتني؛ تلقيتُ رسائل تهنئة من أختيّ ومن آخرين كُثُر. علمتُ بأن شخصاً يدعى السيد سورنان، كاهنَ سان روش، هو الذي سيلقي العظة، والسيد تييري، رئيس الجامعة، هو الذي سيتقبّل نذوري. سار كل شيء على ما يرام حتى عشية اليوم المشهود، باستثناء أنني حين علمت بأن الحفل سيجري خفيةً، وسيحضره عدد قليل جداً من الناس، وأن باب الكنيسة لن يفتح إلاّ للأهل، لجأتُ إلى الراهبة المكلفة بالعلاقات مع الخارج، لتستدعي جميع الأشخاص القاطنين في جوارنا، وأصدقائي، وصديقاتي. أُذن لي بالكتابة إلى بعض معارفي من الفتيات. أقبَلَ كل هذا العدد الذي لم يكن متوقعاً من الحضور، وكان لا بدّ من السماح لهم بالدخول. وصل عدد الحضور في الحفل تقريباً إلى الكثرة اللازمة للغرض الذي أخطط له. آه يا سيدي، يا لتلك الليلة التي سبقت! لم أرقد أبداً؛ لبثت جالسةً في فراشي أسأل الله أن ينجدني، أرفع يدي إلى السماء وأُشْهدُها على العنف الذي ينزَل بي. رحتُ أتصور الدور الذي سأقوم به أمام المذبح بصفتي شابّة تحتجّ بصوت مرتفع ضد فعلٍ يَظهر أنها قبلتْ به، فأتخيّل استنكار الحضور، ويأسَ الراهبات، وغضب أبويّ. آه يا إلهي! ماذا سيحل بي؟...

عند نطقي بهذه الكلمات أصابني دوار وانهارت قواي، وسقطتُ مغمىً عليّ

فوق وسادتي واجتاحتني قشعريرةٌ أخذت ترتجف لها ركبتاي وتصطكّ أسناني بصوت مسموع؛ تلت هذا الانهيارَ وهذه القشعريرةَ حرارةٌ رهيبة: اضطرب ذهني؛ ولا أذكر أخلعت ثيابي، أم بأنني خرجت من حجرتي؛ ومع ذلك فقد عُثر عليّ عاريةً في ثوبي الداخلي ممددةً على الأرض أمام باب رئيسة الدير، بلا حراك وتقريباً بلا حياة. علمت بهذه الأشياء لاحقاً. وجدت نفسي صباحاً في حجرتي، وسريري محاط برئيسة الدير ورئيسة المستجدّات، وبأولئك اللواتي يسمّين بالمعاوِنات. كنتُ شديدة الوهن. وجّهن لي بعض الأسئلة، وبيّنتْ لهن أجوبتي جهلي التام بما حدث، فلم يكلمنني بالأمر. سألنني عن صحتي، وما إذا كنت باقيةً على قراري المقدس، وهل كنت أشعر في نفسي بالقدرة على تحمُّل تعب النهار. أجبت بنعم؛ وعلى عكس توقعاتهن، لم يتعرقل شيء.

رُتِّب كل شيء منذ العشيّة. قُرعت الأجراس لإعلام الجميع بقربِ صُنع إنسانة تعيسة. خفق قلبي أيضاً. جئن لتحضيري، فهذا اليومُ يومُ تزيُّن. ويبدو لي الآن وأنا أتذكر كل تلك المراسم، بأنه قد يكون لها وقع مهيب ومؤثر حقاً بالنسبة إلى فتاة بريئة ليست لديها ميول أخرى. أخذْنني إلى الكنيسة. أقيمت طقوس الترسيم القدسية: ألقى عليّ القس الطيب الذي اشتَبَهَ بعدم خضوعي، عظةً طويلة ليس فيها كلمةٌ واحدة غير معكوسة المعنى؛ كان كل ما يقوله لي عن سعادتي، عن النعمة، عن شجاعتي، عن حميّتي، عن تقواي، وعن كل المشاعر الجميلة التي يَفترضها فيّ، مضحكاً حقاً. أربكتْني هذه المفارقة بين مديحه، وبين الخطوة التي كنت مقدِمةً عليها. مررتُ بلحظات من عدم اليقين لكنها لم تدم طويلاً. وتشكّل لديّ من جرّاء ذلك شعورٌ أفضل بافتقاري إلى كل ما يلزَم توفُّره عند الفتاة لكي تكون راهبة جيدة. أخيراً جاءت اللحظة الرهيبة. عندما توجب الدخول إلى المكان الذي يجب أن أنطق فيه بكلمات نذوري والتزامي الديني، ما عادت ساقاي تحملانني، أمسكتني من ذراعيّ راهبتان من مرافِقاتي؛ استند رأسي إلى إحداهما، كنت أتقدم بصعوبة. لا أعرف ما الذي كان يجري في نفوس الحاضرين، لكنهم كانوا يرون ضحيةً شابة ضعيفة حتى الموت تُحمل إلى المذبح، فتُفلِت من كل الأرجاء حسراتٌ وشهقاتُ نحيب، أنا واثقةٌ تماماً من أنه لم يكن لأبي وأمي نصيب فيها. لبث الجميع واقفين، وكان هناك فتيةٌ صعدوا فوق

الكراسي والتصقوا بقضبان الحاجز المشبّك. وساد صمت عميق عندما قال لي ذاك الذي يرأس مراسم نُطقي بنذوري: «ماري- سوزان سيمونان، هل تَعِدين بقول الحقيقة؟

- أعد بذلك.

- هل أنت هنا بكامل رِضاك وإرادتك الحرة؟

أجبتُ بـ «لا»؛ لكن مرافِقاتي أجبن عني بـ «نعم».

«ماري- سوزان سيمونان، هل تعدين الرب بالعفاف والفقر والطاعة»؟

ترددت لحظة؛ راح الكاهن ينتظر؛ وأجبت:

«لا يا سيدي».

أعاد السؤال:

«ماري- سوزان سيمونان، هل تعدين الله بالعفة والفقر والطاعة»؟

أجبته بصوت أكثر حزماً:

«لا يا سيدي، لا».

توقف وقال لي: «يا بنيّتي، عودي إلى رشدك، واستمعي إليّ.

- سيدي، قلتُ له، تسألني إذا كنتُ أعِد الله بالعفة والفقر والطاعة؛ لقد سمعتكَ جيداً وأجيبك أنْ لا..».

وحيَن استدرتُ بعدها نحو الحضور الذين علا بينهم همسٌ صاخب، أشرتُ إلى أنني أود الكلام. صمت الهمس فقلت:

«سادتي، وأنتما بشكل خاص يا أبي وأمي، إنني أُشهِدكم جميعاً..».

مع هذه الكلمات، أوقعَتْ إحدى الراهبات الوشاحَ من الحاجز المشبك، ورأيتُ أن لا فائدة من الاستمرار. أحاطت بي الراهبات، وأوسعنني توبيخاً. استمعتُ إليهن دون أن أنبس بكلمة. أُخذتُ إلى حجرتي حيث أُغلق عليّ بالمفتاح.

وهناك، حيث أُسلمتُ لأفكاري، بدأتُ في وحدتي أُطمْئن نفسي. استرجعتُ ما قمت به، فلم أندم عليه. رأيت أنّ من المستحيل بعد الفضيحة التي أثرتُها، أن أبقى طويلاً هنا، وأنهم ربما لن يجرؤوا على إعادتي إلى الدير. لم أكن أعرف ما الذي سيفعلونه بي،

لكنني لا أرى ما هو أسوأ من إرغام فتاة على الرهبنة. بقيتُ وقتاً طويلاً لا يكلمني أحد. فالراهبات اللواتي يحملن لي الطعام، كنّ يضعن عشائي على الأرض، وينصرفن بصمت. وبعد مرور شهر، أُحضِرت لي ثياب دنيويّة، وخلعت ثياب الدير. جاءت رئيسة الدير وطلبت مني أن أتبعها. تبعتُها حتى باب الدير. وهناك صعدتُ في عربةٍ وجدتُ والدتي تنتظرني فيها وحدها. جلستُ في المقعد الأمامي، وانطلقت العربة. لبثت إحدانا مقابل الأخرى دون كلمة لبعض الوقت. كنت أخفض ناظريّ ولا أجرؤ على النظر إليها. لم أكن أعرف ما الذي يخامر نفسي، لكنني ارتميتُ فجأةً على قدميها، وأسندتُ رأسي فوق ركبتيها؛ لم أكلمها، لكنني كنتُ أنتحب وأغصّ بدموعي. دفعتني بقسوة. لم أنهض. مع سيلان أنفي بدأت أرعف. التقطتُ إحدى يديها رغم اغتياظها. رحتُ أرويها بدموعي ودمي النازف، أطبقت شفتيّ فوق تلك اليد ورحت أقبلها وأقول: «أنت ما تزالين أمي وأنا ما أزال ابنتك..». وأجابتني (دافعةً إياي بقسوة أشد أيضاً، ومنتزعةً يدها من يديّ) : «انهضي، أيتها التعسة، انهضي». أطعتُها وجلستُ. شددتُ غطاء رأسي فوق وجهي. لقد وضعتْ في صوتها من السطوة والحزم ما جعلني أعتقد بأن عليّ الاختفاء من أمام ناظريها. امتزج الدم النازف من أنفي بدموعي، وراح يسيل على طول ذراعيّ، وغطّاني بأكملي دون أن أنتبه. قالت بضع كلمات استنتجتُ منها بأن فستانها وثيابها الداخلية قد تلطخَتْ، وأن هذا كان يزعجها. وصلنا إلى الدير. وتمَّ اقتيادي في الحال إلى غرفة صغيرة أعدت لي. على السلالم، ارتميت فوق ركبتيها مرة أخرى، وأمسكتُها من ثوبها؛ لكن كل ما حصلتُ عليه منها هو أنها التفتت نحوي، ونظرت إلي بحركة استنكار من رأسها وفمها وعينيها، تُدرك حضرتُك بشكل أفضل بأنني لا أستطيع أداءها لك.

دخلتُ إلى سجني الجديد، حيث أمضيتُ ستة شهور، مطالبةً يومياً، دون جدوى، بالسماح لي بمكالمتها، أو رؤية أبي، أو بالكتابة إليهما. كان الطعام يجلب لي، وتقدّم لي الخدمات، وترافقني خادمة إلى القداس أيام الأعياد، ثم تعيدني إلى حبسي. كنت أقرأ، وأدرس، وأبكي، وفي بعض الأحيان أغني. وبهذه الطريقة راحت تنقضي أيامي. ثمة إحساس خفي كان يمدني بالقوة، هو إحساسي بأني حرة، وبأن مصيري يمكن أن يتغير مهما كان قاسياً. لكن كان قد تَقَرّر بأن أصبح راهبة، وأصبحتُ.

علي مولا

هذا القدْر من اللاّإنسانية والتصلب من جانب أبويّ، عزز لي في النهاية شكوكي بشأن ولادتي. لم أستطع أبداً تبرير سلوكهما بطريقة أخرى. كانت أمي تخشى على ما يبدو أن أستأنف يوماً موضوعَ تقاسُم الممتلكات، وأطالب بحصتي الشرعية، فأقرِن ابنةَ سِفاح إلى ابنتين شرعيتين. لكنّ ما كان مجرد تخمين سوف ينقلب إلى يقين.

أثناء فترة حبسي في الدير كنت أؤدي القليل من الشعائر الدينية خارج غرفتي. لكنني أُرسلت للاعتراف عشية الأعياد الكبرى. قلت لكَ بأن مرشدي الديني كان نفسه مرشدَ أمي. تكلمت معه، أخبرته عن القسوة التي مورستْ بحقي منذ نحو ثلاث سنين. كان يعرف بها. اشتكيتُ بوجه خاص من أمي بمرارة وحقد. كان هذا الكاهن قد دخل الرهبنة متأخراً. وكان يتصف بالطيبة. استمع إلي بهدوء وقال لي:

« ارْثي لأمكِ يا ابنتي، ارْثي لها أكثر مما تلوميها. إن لها روحاً خيّرة؛ وثِقي بأنها تتصرف على هذا النحو رغماً عنها.

– رغماً عنها يا سيدي! وما الذي يمكن أن يرغمها! ألم تلدني؟ وهل هناك فرق بين أختيّ وبيني؟

– هناك الكثير.

– الكثير! لا أفهم قصدك»...

كنت سأدخل في مقارنة بيني وبين أختيّ ، عندما أوقفني وقال لي:

«هيا، هيا، ليست القسوة هي عيبُ أبويك؛ حاولي أن تتقبّلي مصيرك بصبر، أو على الأقل أن تجعلي منه فضلاً لك أمام الرب. سوف أرى أمك، وثقي بأنني سأستخدم لصالحك كل ما أملكه من تأثير عليها..».

هذا «الكثير» الذي أجابني به، كان التماعةَ ضوءٍ بالنسبة إليّ. لم أعد أشك بحقيقةِ الظنون التي كانت تراودني بشأن ولادتي.

في يوم السبت التالي، حوالى الخامسة والنصف مساءً، مع انحسار النهار، صعدَت الخادمة التي أُلحقتْ بي، وقالت لي: «تأمرك السيدة أمّك بارتداء ثيابك..». وبعد ساعة:

«تريدك سيدتي أن تنزلي معي..». وجدتُ عند الباب عربةً صعدنا فيها، الخادمة وأنا؛ وعلمتُ بأننا نتجه إلى فويان، عند الأب سيرافان. كان ينتظرنا بمفرده. ابتعدت الخادمة، ودخلتُ أنا إلى ردهة الاستقبال. جلستُ قلقةً أشعر بالفضول لما يريد قوله لي. إليكَ ما قاله لي:

«آنستي، سوف أوضح لك لغزُ سلوكِ أبويك القاسي معك. لقد أَذنتْ لي السيدة والدتك بذلك. أنت فتاة عاقلة تتمتعين بالنباهة والتماسك. إنك في عمر يمكن البوح لك فيه بسرّ، حتى لو لم يكن يخصّك. لقد مضى زمن طويل على أول مرةٍ حثثتُ فيها السيدة والدتك على البوح لك بالسر الذي ستعرفينه الآن؛ لم تتمكن أبداً من حزم أمرها وإخبارك. يصعب على أمّ أن تعترف لولدها بخطيئة كبيرة اقترفَتْها: أنت تعرفين طبعها؛ إنه طبع لا ينسجم كثيراً مع ذلك النوع من إذلال النفس الناجم عن الاعتراف. ظنتْ أنها تستطيع إيصال ما تريده إليك دون الاضطرار إلى هذا الاعتراف. لقد أخطأت الظن، وهي غاضبة من ذلك. عادت اليوم إلى نصيحتي، وهي التي كلفتني أن أعلن لك بأنك لستِ ابنةَ السيد سيمونان».

أجبته في الحال : «لقد شككتُ بذلك.

– انظري الآن يا آنستي، تأملي في الأمر مليّاً، قَدّري واحكمي إذا كانت السيدة والدتك تستطيع، دون موافقة السيد أبيك، بل وحتى مع موافقته، مساواتَكِ مع ابنتين لستِ شقيقتَهما تماماً؛ وإذا كانت تستطيع الاعتراف للسيد أبيك بواقعٍ أثار عنده في الأساس قدراً كبيراً من الشكوك.

– ولكن يا سيدي، من هو والدي؟

– آنستي، هذا ما لم يُسرّ لي به. كان واضحاً جداً يا آنستي، أضاف، أنه وقع تمييزٌ عجيب لأختيك، وجرى اتخاذ جميع الاحتياطات التي يمكن تخيُّلها من عقود زواج وتغيير أملاك واشتراطات ووصايا الائتمان وغيرها من الوسائل، من أجل تقليص حصتك الشرعية إلى لا شيء، في حال لجأتِ يوماً إلى القانون للمطالبة بها. لن تجِدي الكثير إذا فقدتِ أبويك؛ وربما ستندمين لأنك لستِ في ديرٍ إذا رفضتِ الرهبنة.

– هذا غير وارد يا سيدي، أنا لا أطلب شيئاً.

– أنتِ لا تعرفين ما هو التعب، ما هو العمل، وما هو العوَز.

– أعرف على الأقل ثمن الحرية، ووطأة حالةٍ نعيشها دون ميل لها.

– لقد قلتُ لكِ ما عندي ؛ ولك يا آنستي أن تتفكّري عميقاً في الأمر..». ثم نهض.

«ولكن يا سيدي، سؤال آخر.

– بقدرِ ما تريدين.

– هل تعرف أختاي بما أخبرتَني به؟

– لا يا آنستي.

– فكيف استطاعتا إذن سرقة أختهما، طالما أن هذا هو ما تعتقدانه؟

– آه يا آنستي. المصلحة! المصلحة! وإلاّ لَما حصلتا أبداً على الزوجين المرموقين اللذين عثرتا عليهما. كل إنسان في هذا العالم يفكر بنفسه؛ ولا أنصحك بالاعتماد عليهما في حال فقدتِ أبويك؛ ثقي بأنهما ستزاحمانك حتى على الأوبول[1] في الحصة الضئيلة التي ستضطرين لاقتسامها معهما. لديهما الكثير من الأطفال، وستكون هذه الذريعة من النزاهة بحيث ستدفعك إلى التسوُّل. ثم إنهما لم يعد بمقدورهما فعلُ شيء. فزوجاهما هما اللذان يقومان بكل شيء: فإذا أظهرتا أي تعاطف معك، ستتحول المعوناتُ التي ربما تقدّمانها لك دون علم زوجيهما، إلى مصدرٍ للخلافات العائلية. لا أرى إلاّ من هذه الحالات: أبناءَ مهجورين وإن كانوا شرعيين، أو أبناء يتلقّون المساعدات على حساب السلم العائلي. إننا نحصل على خبزنا بصعوبة يا آنستي. صدقيني يا آنستي. تَصالحي مع أبويك، وافعلي ما تنتظره أمك منك. انذري نفسك للدين. سوف يخصّص لك معاش بسيط يمكنك بواسطته أن تمضي أياماً محتَمَلة على الأقل، إن لم تكن سعيدة. عدا ذلك فأنا لا أخفيك بأن تخلّي والدتك الواضح عنك، وإصرارها على إرسالك إلى دير، وبضعةَ مواقف أخرى لا تحضرني، لكنني عرفتُها في وقتها، ولّدت عند أبيك الأثر نفسه تماماً الذي

1– وحدة نقد في اليونان القديمة.

ولّدتْهُ عندك: شكٌّ بأبوّته لك. انتهى الشك الآن. ودون أن يطّلع على السر، بات على يقين من أنك لا تنتمين إليه إلاّ الانتماء القانوني الذي يَنسب الأبناءَ إلى حامل لقب الزوج. هيا يا آنستي، أنت فتاة طيبة وعاقلة، فكري بما عرفته للتو».

نهضتُ وأخذت أبكي. رأيت أنه هو نفسه قد تأثّر. رفع ناظريه بهدوء نحو السماء وسار بي إلى الخارج. استعدتُ الخادمةَ التي رافقَتْني. صعدنا مجدداً إلى العربة وعدنا إلى الدير.

كان الوقت متأخراً. أمضيت جانباً من الليل أحلم بما انكشف لي، كما حلمتُ به في اليوم الذي تلا أيضاً. لم يعد لي أب، وكان وخزُ الضمير قد انتَزعَ مني أمي. واتُّخذت إجراءات احتياطية تَحول دون سعيي للمطالبة بحقوقي كابنةٍ شرعية. إنها عبوديةٌ أسريّة في غاية القسوة. ليس لي رجاء، ولا أي مصدر عيش. لو أنهم تداولوا معي بعد تزويج أختيّ، وأبقوني في البيت الذي لا يمكن إلا أن يتردد إليه أناس، لربما أتى شخصٌ ما يبدو له طبعي وروحي وصورتي ومواهبي، مهراً كافياً للزواج مني. لم يكن الأمر قد أصبح مستحيلاً بعد، لكن الفضيحة التي أثرتُها في الدير جعلته أشد صعوبة. فهم لا يفهمون كيف استطاعت فتاةٌ بين السابعة عشرة والثامنة عشرة من العمر، المضي إلى هذا الحد لولا قوة إرادةٍ ليست شائعة جداً. يمتدح الرجال هذه الصفة، لكنهم يبدو لي أنهم يستغنون عنها بطيبِ خاطر في الفتيات اللواتي يفكرون بهنّ كزوجات. مع ذلك فقد كانت تلك وسيلة يجب اللجوء إليها قبل التفكير بغيرها. اخترتُ المكاشفةَ مع أمي. طلبت لقاءً معها، وتمت الموافقة على طلبي.

جرى ذلك في فصل الشتاء. كانت جالسة في مقعد أمام النار. وجهها قاسٍ، ونظرتها ثابتة، وقسماتها جامدة. اقتربتُ منها، ارتميت فوق قدميها وطلبت مغفرتَها عن كل المواقف التي بدرت مني دون وجه حق.

«سوف تقولين لي، أجابتْني، بأنك تستحقين ما أنت فيه. انهضي. أبوك غائب وأمامك الوقت كله لتفسير سلوكك. لقد رأيتِ الأب سيرافان. وها أنت تعرفين أخيراً من أنت، وما الذي يمكنك توقُّعه مني، إذا لم تكن غايتك هي معاقبتي طوال حياتي على خطيئةٍ كفّرتُ عنها أكثر مما يجب. حسناً يا آنستي، ما الذي تريدينه مني؟ ماذا قررتِ؟

– أمي، أجبتها، أعرف أنني لا أملك شيئاً، وأن عليّ ألاّ أطمح لشيء. لن أزيد من عذاباتك أياً كانت. ربما كنتِ ستجدينني أكثر خضوعاً لمشيئتك لو أنك قمتِ في وقت أبكر بشرح الوضع الذي كان صعباً أن أستشفّه، لكنني عرفت أخيراً. أعرف نفسي، ولم يبق لي سوى أن أتصرف بما ينسجم مع وضعي. لم أعد متفاجئةً بالتمييز الذي وقع بين شقيقتيّ وبيني. أقرّ بأنه عدْل. أقبَل به. لكنني ما زلت ابنتك. حملتِني في بطنك، وأتمنى أنك لن تنسي ذلك.

– ويل لي، أضافت بحيوية، إذا لم أقرّ لك بما هو ضمن حدود إمكاناتي!

– حسناً يا أمي، قلتُ لها، أعيدي لي عطفَكِ، أعيدي لي حضورَك، أعيدي لي حنانَ الشخص الذي يظن نفسه والدي.

– إنه يحتاج إلى القليل، أضافت، للوصول إلى يقينِك ويقيني بشأن أبوّته لك. لا أتصورك بجانبه أبداً دون أن أسمعه ينتقدني. إنه ينتقدني عبر القسوة التي يعاملك بها. لا تنتظري منه أبداً عواطف أبٍ حنون. ثم إنك، أعترف لك بذلك، تُذكّرينني بخيانة تعرضتُ لها من رجل آخر، بنكرانٍ فظيع إلى درجة لا أستطيع معها تحمُّل فكرتِه. هذا الرجل يَظهر دائماً بينك وبيني، يُبعدني، والكراهية التي أكنُّها له تمتد إليك.

– ماذا! قلتُ لها، ألا أستطيع أن أتمنى منك أنتِ والسيد سيمونان، ألاّ تعاملاني كغريبة، أو كشخص مجهول آويتُماه بدافع إنساني؟

– لا نستطيع ذلك لا هو ولاّ أنا. لا تسمّمي حياتي يا ابنتي لوقتٍ أطول. لو لم يكن لديك شقيقات لعرفتُ ماذا عليّ أن أفعل. لكن لديك اثنتين، ولدى كلٍ منهما أسرة كبيرة. لقد انطفأ الشغف الذي كان يقوّيني، وعدت أتصرف بدافع الضمير.

– وذاك الذي أدين له بمولدي...

– إنه لم يعد موجوداً. لقد مات دون أن يتذكرك... وهذا أبسطُ آثامه..».

عند هذه النقطة تشوّهت قسماتها، واشتعلت عيناها، وهيمن الاستنكارُ على وجهها. أرادت الكلام لكنها لم تنطق. منعَها ارتجافُ شفتيها. كانت جالسة ومالت برأسها فوق يديها لكي تُداري عني الانفعالات العنيفة التي تعتمل بداخلها. بقيتْ في هذه الحالة بعض

الوقت ثم نهضت. دارت بضع دورات في الغرفة دون كلمة، كانت تكبح دموعها التي تسيل بألم، وتقول:

«الوحش! إنّ كل الآلام التي سبّبها لي لم تخنقك في أحشائي. لكن الله أبقانا أنتِ وأنا لكي تكفِّر الأم عن خطيئتها من خلال ابنتها. أنت لا تملكين شيئاً يا ابنتي، ولن تملكي شيئاً قط. والقليل الذي أستطيع تقديمه لك، أنتزعه خلسةً من أختيك. تلك هي عواقب لحظة ضعف. وآمُل مع ذلك، ألا يكون هناك ما ألوم نفسي عليه وأنا أموت. سأجمع مالَ جهازك مما أقتصده. لا أُفْرِط أبداً باستغلال التسهيلات التي يمنحني إياها زوجي، لكنني كل يوم أضع جانباً ما أحصل عليه من وقت لآخر من كرَمه. بعتُ ما كان لدي من مجوهرات، وأعطاني حقّ التصرف وفق مشيئتي بالمال الذي عاد عليّ ثمناً لها. كنت أحب القمار، ولم أعد أقامر؛ كنت أحب الذهاب إلى المسرح، وحرمتُ نفسي منه؛ كنت أحب الصحبة، وأعيش حياة عزلة؛ كنت أحب البذخ وعدلتُ عنه. إذا دخلتِ الدير كما هي رغبتي ورغبة السيد سيمونان، فإن نقود جهازِك ستكون ثمرة ما أقتطعه يومياً.

– ولكن يا أمي، قلتُ لها، ما زال هناك أناس صالحون يأتون إلى هنا. وربما يوجد بينهم مَن يمكن أن تُرضيه شخصيتي فلا يشْترِط حتى المدخرات التي خصصتِها لجهازي.

– لم يعد يجب التفكير بذلك. لقد دمّرتْكِ فضيحتُك.

– ألا يوجد علاج لذلك؟

– لا علاج.

– ولكن هل من الضروري أن أترهّب إذا لم أجد زوجاً؟

– إلاّ إذا أردتِ إطالة ألمي وتبكيتِ ضميري حتى لحظة مفارقتي للحياة. لابد أن أصل إلى ذلك. وفي تلك اللحظة الرهيبة، ستكون شقيقتاك قرب سريري؛ انظري إذا كان بمقدوري أن أراك بينهما. ما الأثر الذي قد يتركه حضورك في تلك اللحظات الأخيرة! يا ابنتي، فأنت ابنتي رغماً عني، لقد حصلت أختاك بالقانون على اسم أخذته أنت بالإثم. لا تُكبّلي بالحزن أمّاً تنطفئ؛ دعيها تمضي بهدوء إلى القبر، كي تستطيع أن تقولَ لنفسها عندما يصبح مثولُها وشيكاً أمام الرب، بأنها أصلحت خطأها قدر استطاعتها، وأن بوسعها أن تأمل بأنك لن تثيري الاضطراب في البيت بعد موتها، ولن تطالبي بحقوقٍ لا تملكينها.

– أمي، قلتُ لها، اطمئني من هذه الناحية؛ استدعي رجل قانون، واجعليه يحرر صك تنازل، وسوف أوقّع على كل ما تريدين.

– هذا غير ممكن: الابن لا يَحرم نفسَه من الميراث؛ بل يجري ذلك عقاباً له من أب وأم غاضبين عن وجه حق. إذا شاء الله وناداني غداً، فسوف يكون عليّ المضيّ إلى هذا الحد، ومصارحة زوجي لكي نتخذ التدابير نفسها بالتوافق. لا تعرّضيني لمكاشفة تجعلني مَقيتةً في نظره، وتؤدي إلى تبعات تُشينك. إذا عشتِ من بعدي ستبقين بلا اسم ولا ثروة ولا وضع اجتماعي. أيتها الشقيةً! قولي لي ما الذي ستؤولين إليه؟ أية أفكار تريدينني أن أحملها معي وأنا أموت؟ سوف يتوجب إذن أن أقول لأبيك... ما الذي سأقوله له؟ هل أقول له بأنك لستِ ابنته!... يا ابنتي، لو أن الأمر لا يحتاج إلاّ للارتماء عند قدميك لكي أحصل منك على... لكنك لا تشعرين بشيء؛ إن لك روحاً لا تلين مثل والدك..».

في تلك الأثناء، دخل السيد سيمونان. شاهدَ اضطرابَ زوجته. كان يحبها وكان رجلاً عنيفاً. توقفَ دون زيادة، ووجّهَ إليّ نظرات رهيبة، وقال لي:

«اخرجي..».!

لو كان والدي لما أطعته. لكنه لم يكن.

أضاف وهو يكلم الخادم الذي يضيء لي:

«قل لها ألاّ تعود للظهور».

حبستُ نفسي في سجني الصغير. حلمتُ بما قالته لي أمي. جثوتُ على ركبتيّ، دعوت الله أن يهديني، وصليتُ طويلاً. لبثتُ ملصقةً وجهي بالأرض. إننا نكاد لا نبتهل إلى السماء إلا عندما لا نعرف كيف نحسم أمرنا؛ وعندما نبتهل إليها، فمن النادر ألاّ تنصحنا بالإذعان. وهو ما قررتُه. «يريدونني أن أكون راهبة. ربما تكون تلك هي أيضاً مشيئة الله. حسنٌ! سأكون راهبة. فما دمتُ محكومةً بالتعاسة، ما يَهُمَّ أين أكون!..». طلبتُ ممن تقوم بخدمتي أن تُخطرني بخروج أبي. منذ اليوم التالي طلبتُ مقابلة أمي. حمّلتْ الخادمةَ رسالةً تجيبني بأنها وَعدتْ السيد سيمونان بخلاف ذلك، ولكن بأنني أستطيع الكتابة إليها بقلم رصاص قُدّم لي. كتبتُ إذن على قصاصة ورق، وعُثر على تلك القصاصة القاتلة، فاستُخدمت ضدي استخداماً شديد الإحكام.

«ماما، أنا حزينة من كل الآلام التي سبّبتُها لك؛ سامحيني: أريد وضع حد لها. مُريني بما تشائين. إذا كانت رغبتك هي أن أنذر نفسي للرهبنة، فلتكن تلك مشيئة الله أيضاً..».

تناولت الخادمةُ تلك الورقة المكتوبة وحملتْها إلى أمي. بعد هنيهة صعدتْ إليّ الخادمة من جديد، وقالت لي بانفعال: «آنستي، إذا كانت سعادة أبيك وأمك وسعادتك أنت لا تحتاج سوى إلى كلمة واحدة، فلماذا أخّرْتِها كل هذا الوقت؟ منذ مجيئي إلى هنا لم أرَ السيدَ والسيدةَ بمثل هذه البشاشة أبداً: كانا دائمي المشاجرة بخصوصك؛ شكراً لله، لن أرَ ذلك مجدداً..».

وفيما راحت تحدثني، كنت أفكر بأنني قد وقّعتُ للتو على قرار موتي، وهذا الشعور يا سيدي سيصبح حقيقة إذا تخليتَ عني.

مضت بضعة أيام دون أن أسمع عن شيء؛ وفي صبيحة أحد الأيام انفتح بابي فجأةً، قرابة الساعة التاسعة، ودخل السيد سيمونان برداء البيت وقلنسوة النوم. منذ معرفتي بأنه ليس والدي، لم يعد حضوره يثير لديّ غيرَ الفزع. نهضتُ وانحنيتُ انحناءة الاحترام. بدا لي أنّ لي قلبين: فلا أستطيع التفكير بأمي دون أن يرق قلبي وأرغب بالبكاء. وليس الأمر كذلك إزاء السيد سيمونان. من المؤكد أن الأب يثير فينا نوعاً من المشاعر لا نكنُّها لإنسان سواه في العالم، ولا نعرف ذلك إن لم نجد نفسنا، مثلي، وجهاً لوجه أمام الشخص الذي حَمل هذه الصفةَ العظيمة وقتاً طويلاً، وفقدها للتو. لن يعرف الآخرون هذه المشاعر أبداً. كان يبدو لي أنني شخص آخر إذا انتقلتُ من حضوره إلى حضور أمي. قال لي:

«سوزان، هل تتعرفين على هذه القصاصة؟

– نعم يا سيدي.

– هل كتبتِها بملء حريتك؟

– لا أستطيع إلا أن أجيب بالإيجاب.

– هل أنت على الأقل عازمة على تنفيذ ما تَعِدين به؟

– نعم.

– هل تفضّلين ديراً معيناً على غيره؟

– لا، إنها سيان بالنسبة لي.

– هذا يكفي».

هذا ما أجبتُ به. لكن جوابي للأسف لم يكن مكتوباً. أثناء نحو أسبوعين من الجهل التام بما يجري، بدا لي أنه تمت مخاطبة أديرة مختلفة، وأن فضيحةَ موقفي الأول حالت دون قبولي فيها راهبةً مُستجدّة. وكان دير لونشان أقل تشدداً حتماً بسبب الإلماح إلى كوني موسيقية وإلى جمال صوتي. بالغت أمي وزوجُها في تصوير الصعوبات التي اعترضتهما والنعمة التي تُسبَغ عليّ نتيجةَ قبولي في ذلك الدير. حتى إنهما كلّفاني بالكتابة إلى رئيسة الدير. لم أكن أستشعر بتبعاتِ تلك الشهادة المكتوبة التي طالَباني بها: كان واضحاً أنهما يخشيان أن أتراجع يوماً عن نذوري. فأرادا إقراراً مكتوباً بخط يدي بأنها تمّت بملء إرادتي. لو لم تكن تلك هي الغاية، كيف أمكن إذن لتلك الرسالة التي يُفترض أن تبقى بحوزة رئيسة الدير، أن تنتقل إلى صِهْريّ؟ ولكن دعني أغمض عينيّ بسرعة عن هذا الموضوع لأنهما تُرِياني السيد سيمونان كما لا أريد أن أراه. لقد اختفى.

تم اقتيادي إلى لونشان. أمي هي التي اصطحبتني. لم أطلب وداعَ السيد سيمونان. وأعترف بأن الفكرة لم تأتني إلاّ في الطريق. كانت راهبات الدير بانتظاري. وقد أُعلِن عن قدومي من خلال حكايتي كما من خلال مواهبي. لم يُشِرْن بشيء إلى حكايتي لكنهن كن في غاية العجلة لمعرفة إذا كان ما حصلن عليه يستحق العناء. تحادثْنا عن أشياء كثيرة غير مهمة، فبعد كل ما جرى، لك أن تتخيّل بأنهن لم يكلمنني عن الله ولا عن الإرشاد الرباني ولا عن أخطار العالم الخارجي ولا عن حلاوات الرهبنة، وأنهن لم يخاطرن بكلمة واحدة من ذلك الهذر الورِع الذي تُحشى به تلك اللحظاتُ الأولى، قالت رئيسة الدير: «آنستي، أنت تفهمين في الموسيقى، وتغنّين. لدينا آلة كلافسان؛ إذا شئتِ نذهب إلى بهو الاستقبال..». كانت روحي منقبضة، لكن اللحظة لم تكن مناسبة للتعبير عن الاشمئزاز. مشت والدتي وتبعتُها. وسارت رئيسة الدير خلف بضع راهبات جذبَهُنّ الفضول. كان الوقت مساء، فأُحضرت شموع. جلستُ إلى الكلافسان واستغرقتُ وقتاً طويلاً أعزف نغمات تمهيدية باحثةً عن قطعة موسيقية في رأسي المليء بها، ولا أجِد. لكنّ الرئيسة

حثّتني فغنيتُ دون رقة بحكم الاعتياد نظراً لأن القطعة كانت مألوفة لي: تحضيرات حزينة، مشاعل باهتة، يومٌ أشدّ إثارة للرعب من الظلمات... لا أدري ما الأثر الذي خلّفه ذلك، لكنهن لم يستمعن طويلاً، وأوقفنني بمدائح فوجئتُ حقاً بأن أتلقّاها بهذه السرعة وهذه التكلفة الزهيدة. أسلمتْني والدتي إلى رئيسة الدير، أعطتني يدها لأقبلها واستدارت راجعة.

ها أنذا إذن في ديرٍ آخر للراهبات، راهبة مُستجدّة، وبكل مظاهر المُستجدّةِ حُرةِ الاختيار. ولكن، ما رأيك أنت يا سيدي، كونك تعرف كل ما حدث حتى اللحظة؟ حين أردتُ الرجوع عن نذوري لم أستند إلى غالبية هذه الأشياء لأن بعضها حقائق بلا براهين، وبعضها الآخر كان سيجعلني شخصاً مَقيتاً دون أن يخدمني. كان الآخرون سينظرون إلي كأنني إبنةٌ مشوّهة تهتك ذاكرةَ أهلها لكي تنال حريتَها. كانوا يملكون البرهان على ما هو ضدي؛ أما ما هو لصالحي فلم يكن ممكناً الاستناد إليه ولا إثباته. لم أشأ حتى التلميح للقضاة بالشك المحيط بولادتي. نصحني أشخاصٌ لا علاقة لهم بالقوانين بالتشكيك بكلام مُرشدِ أمي ومرشدي. لكن ذلك لم يكن ممكناً. وعندما يصبح ممكناً لن أطيق القيام به. ولكن بالمناسبة، خوفاً من أنسى أمراً ومن أن تمنعك رغبتُك بمساعدتي من التفكير به، أظن أنه يجب كتمان معرفتي الموسيقية، وخبرتي بالعزف على الكلافسان، إلاّ إذا كان لك رأي أفضل. لا يحتاج الأمر إلى أكثر من هذا لكشفِ أمري؛ ولا يتماشى عرضُ هذه المواهب أبداً مع التعتيم والأمان اللذين أنشدهما. أمثالي يجب ألاّ يعرفوا هذه الأشياء، وعليّ أن أتجاهلها. وإذا اضطررت للتغرّب، سأعيش منها. التغرّب! قل لي لماذا تفزعني هذه الفكرة؟ هذا لأنني لا أعرف إلى أين أذهب ولأنني شابة وبلا خبرة ولأنني أخشى الفقر، وأخشى الرجال والرذيلة، ولأنني لطالما عشت معزولة، وإذا أصبحتُ خارج باريس سأظن بأنني ضعتُ في العالم. قد لا يكون هذا كله صحيحاً، لكنه ما أشعر به. سيدي، إذا لم أعرف إلى أين أذهب، ولا ماذا سيحلّ بي، فهذا يعتمد عليك.

يتم تغيير الرئيسات كل ثلاث سنين في دير لونشان كما في غالبية الأديرة. وعندما تم اقتيادي إلى الدير استلمَت المنصبَ سيدةٌ تدعى مدام دي موني. لا أستطيع أن أمدحها لك

كثيراً، مع أن طيبتها هي التي ضيّعتني. كانت سيدة حكيمة، تفهم القلب البشري، واتصفت بالتساهل مع الأخطاء، مع أن أية راهبة لم تكن بحاجة إلى ذلك. كنا جميعاً بَناتِها، ولم تكن ترى من الأخطاء سوى تلك التي لا تستطيع منعَ نفسِها من رؤيتها، أو تلك التي لا تسمح فداحتُها بغضّ الطرف عنها. أتكلم عنها بتجرُّد؛ لقد قمتُ بواجبي بدقة، وسوف تعترف لي بأنني لم أرتكب أي خطأ كان عليها أن تعاقبني أو تسامحني عليه. إذا كانت تفضّل راهبات على غيرهن، فإن جدارتهنّ هي التي كانت تدفعها لهذا التفضيل. بعد هذا، لا أعلم إذا كان مناسباً القول لك بأنها أحبّتْني، وأنني لم أكن بين أثيراتها الأخيرات. أعرف أنه مديح كبير أوجِّهه لنفسي، أكبر من أن تستطيع تخيله، كونك لم تعرفها. الأثيرات هو الاسم الذي تطلقه الأخريات، حسَداً، على مَن تُحبُّهن الرئيسة. إذا كان لدي ما ألوم السيدةَ دي موني عليه، فهو أن حبّها للفضيلة والتقوى والصراحة والرقة والموهبة والنزاهة، كان يجرفها علناً، وأنها لم تكن تجهل بأن هذا يقوّي الشعور بالإهانة لدى المفتقِرات إلى تلك المزايا. كانت أيضاً تملك موهبة تمييز النباهة على الفَور، وهو شيء قد يكون أكثر شيوعاً في ديرٍ مما هو في الخارج. ومن النادر أن تُعجَب براهبةٍ لم تكن منذ البداية محطّ إعجابها. سرعان ما سُرّت برفقتي. كنتُ قبل كل شيء قد وثقتُ بها منتهى الثقة. يا لتعاسة أولئك اللواتي لا يولينها الثقة بسهولة! لا بُدّ أنهن سيئات على نحو لا علاج له، وأن يعترفن بذلك. تبادلتْ معي الحديث عن مغامرتي في دير سانت ماري. فرويتُها لها بصراحةٍ مثلما أرويها لك. أخبرتُها بكل ما كتبْتُه لك للتو؛ حول ولادتي وحول متاعبي، لم أنس شيئاً. فرثتْ لي وواستني وجعلتني آمُلُ بمستقبل أفضل.

انقضت فترة المُستجدّة المتدرّبة على الرهبنة، وحان وقت ارتداء ثوب الرهبنة، وارتديتُه. أمضيتُ فترة التدرُّب بلا قرف. إنني أمرّ سريعاً فوق تلك السنتين، لأنهما لم تحملا من المنغصات سوى الشعور الخفي باقترابي خطوةً خطوة من مدخل حالة لم أُخلَق لها. كان هذا الشعور يتجدد أحياناً بقوة. لكنني سرعان ما ألجأ إلى رئيسة الدير الطّيبة التي تحضنني، وترفع معنويّاتي طارحةً أسبابها أمامي بقوة، والتي تختم حديثها دائماً قائلة لي: «وماذا عن الحالات الأخرى، أليس لها منغّصاتها أيضاً؟ لا يشعر الإنسان إلا بمنغّصاته. هيا يا بنيّتي، لنركع ونصلّي..».

عندئذٍ تركع وتصلي بصوت مسموع إنما بقدرٍ من الورع والبلاغة والرقة والعلوّ والقوة يجعلك تظن بأن روح الله تُلهمها. تتغلغل أفكارها وتعبيراتها وصورها في أعماق القلب. تصغي إليها أول الأمر، ثم تنجذب شيئاً فشيئاً، وتتوحد معها؛ تختلج نفسُك، وتشاركها انفعالاتِها الجارفة. ليس غرضُها أن تفتنك، لكن الأكيد أن هذا ما كانت تفعله. تخرج من عندها بقلب مضطرم، وعلاماتُ الفرح والوجد ترتسم على وجهك، وتذرف دموعاً في غاية الحلاوة! كان يظهر عليها نفسها هذا الانفعال الذي يلازمها وقتاً طويلاً، ويبقى محفوظاً لديك. لا أستند إلى تجربتي وحدي، بل إلى تجربة الراهبات جميعاً. بعضهن قال لي بأنهن شعرن بحاجة إلى المؤاساة تُولد بداخلهن، تُشبهُ الحاجةَ إلى سعادة عظيمة؛ وأظن بأنه لم ينقصني غيرُ مقدارٍ أكبر قليلاً من الاعتياد، لأبلغ هذا الحد.

إلا أنني، مع اقتراب موعد تكريسي، كنت أشعر بكآبة بلغتْ من العمق حداً وضَعَ رئيستي الطيبة في مِحنٍ رهيبة؛ فقد هجرَتْها ملَكَتُها. اعترفتْ لي نفسُها بذلك. «لا أعرف، قالت لي، ما الذي يجري بداخلي؛ يبدو لي أنك عندما تأتين أنت ينسحب الله وتصمت روحُه. فعبثاً أحثّ ذهني، أو أبحث عن أفكار أو أريد تهييج نفسي. أجد نفسي امرأة عادية ومحدودة؛ أخشى الكلام..». «آهٍ يا أمي العزيزة! أقول لها، يا له من حدس! إذا كان الله هو من يجعلكِ بكماء...!»

شعرتُ ذات يوم بأنني أكثر شكاً وإحباطاً من أي وقت آخر، فذهبتُ إلى حجرتها. في البداية أذهلها حضوري. بدا واضحاً أنها قرأت في عينيّ وفي شخصي ككل، بأن الشعور العميق الذي أحمله، يتخطّى قدراتِها؛ ولم تشأ أن تكافح دون يقينٍ بأنها ستنتصر. ومع ذلك فقد باشرت الكلام معي، وبدأت تحتدم شيئاً فشيئاً. وكلما خفّ ألمي زاد حماسُها: وفجأة ارتمت راكعة على ركبتيها، وفعلتُ مثلها. ظننتُ أنني سأشاركها فورة انفعالها، هذا ما كنت أتمناه. لفظتْ بضع كلمات، وفجأةً صمتتْ. انتظرتُ بلا جدوى: كفّت عن الكلام، ونهضتْ؛ كانت تبكي بدموع غزيرة، شدتني من يدي وضمّتني بين ذراعيها: «آهٍ يا طفلتي العزيزة، قالت لي، أيّ تأثير طاغٍ أحدثْتِه بي! لقد وقع الأمر وانسحبتْ روحُ الله. أشعر بذلك: اذهبي، وليخاطِبكِ الله بنفسه، طالما لم يشأ أن يخاطبكِ عن طريقي..».

لا أعرف في حقيقة الأمر ما الذي جرى بداخلها. هل أوحيتُ لها بشكٍّ لم تُبدّده قدراتُها، وهل جعلتُها تصاب بالخجل؟ أو هل قطعتُ حقاً صلتها مع السماء؟ لكنها لم تستَعِدْ ملكةَ المؤاساة أبداً. ذهبتُ لرؤيتها عشية ترسيمي. كانت في حال من الكآبة تُعادِل حالي. أخذتُ أبكي، وهي كذلك. ارتميت فوق قدميها. باركتني وأنهضتني، حضنتني ثم صرفتني قائلة : «لقد سئمتُ العيش، وأتمنى الموت. سألتُ الله ألاّ أرى هذا اليوم أبداً. لكنه لم يشأ ذلك. هيا، سوف أكلّم والدتك، وسأمضي الليل بالصلاة، صلِّ أنت أيضاً؛ ولكن نامي، آمرُكِ بذلك.

– أتسمحين لي، أجبتها، بالانضمام إليك؟

– أسمح لك بذلك من التاسعة وحتى الحادية عشرة، ليس أكثر. سأبدأ بالصلاة في التاسعة والنصف، وأنت كذلك؛ ولكنك عند الحادية عشرة ستتركيني أصلّي وحدي، وتذهبين لترتاحي. هيا، يا طفلتي العزيزة، سأسهر بقية الليل ماثلةً بين يدي الله».

أرادت أن تصلي لكنها لم تستطع. وبينما كنت نائمة، مضت تلك المرأة القديسة في الأروقة تطرق على كل الأبواب، توقظ الراهبات وتدعوهنّ للنزول إلى الكنيسة بلا ضجيج. نزلن جميعاً وعند وصولهن دعتهنّ للتوجه بالصلاة إلى السماء من أجلي. جرت هذه الصلاة بصمت في البداية. بعد ذلك أطفأت الأضواء ورتلن جميعاً ترتيلة الشكوى، باستثناء الرئيسة التي راحت تعذب نفسها بقسوة وهي راكعة أسفل المذبح، قائلةً: «إلهي! إذا كانت خطيئةً ارتكبْتُها هي التي جعلتكَ تنسحب مني، فاغفرها لي. لا أسألك أن تعيد لي الملَكة التي انتزعتَها مني، بل أسألك أن تخاطب بنفسك تلك الفتاة البريئة التي تنام فيما أبتهل إليك هنا من أجلها. إلهي! خاطِب قلبَها، خاطِب أهلَها، واغفر لي».

في اليوم التالي، دخلتْ إلى حجرتي في ساعة مبكرة. لم أسمعها لأنني لم أكن قد استيقظت بعد. جلستْ بجانب سريري، ووضعتْ إحدى يديها برفق فوق جبيني، وراحت تنظر إليّ: كانت مشاعر القلق والاضطراب والألم تتعاقب فوق وجهها، وبهذه الصورة بدت لي عندما فتحتُ عينيّ. لم تكلمني أبداً عما جرى أثناء الليل؛ سألتْني فقط إن كنت قد رقدتُ باكراً؛ فأجبتُها: «وقتَ أمرتِني.

– وهل استرحتِ؟

– بعمق.

– كنتُ أتوقع ذلك... وكيف تجدين نفسك؟

– بأحسن حال. وأنت أيتها الأم العزيزة؟

– مع الأسف، قالت لي، لم أرَ فتاة تدخل الرهبَنة بدون قلق؛ ولكنني لم أشعر إزاء أيٍّ منهن بهذا القدر من الاضطراب الذي أشعر به إزاءك. أتمنى لو تكونين سعيدة.

– إذا أحببتِني دوماً، سأكون.

– آه لو لم يتعلّق الأمر إلاّ بذلك! ألم تفكري بشيء أثناء الليل؟

– لا.

– ألم تحلمي بشيء؟

– لا.

– ما الذي يدور في نفسك الآن؟

– أشعر بأنني غبية، وأمتثل لقدري بلا اشمئزازٍ ولا رغبة، وبأن الضرورة تقودني، وأسْحَبُ بلا مقاومة. آه يا أمي العزيزة، لا أشعر بشيء من ذلك الفرح اللذيذ، من تلك القشعريرة، من تلك الكآبة، من ذلك القلق اللذيذ الذي لاحظتُه أحياناً لدى مَن مررن باللحظة التي أمرُّ بها. إنني بلهاء، لن يسعني حتى البكاء. الفكرة الوحيدة التي تخطر لي هي... هذا ما يريدونه، هذا ما يجب القيام به... ولكنك لا تقولين لي شيئاً.

– لم آتِ لأحدّثك، بل جئت كي أراك وأسمعك. أنتظر والدتك؛ حاولي ألاّ تثيري مشاعري؛ دعي المشاعر تتراكم داخل روحي، وعندما تملؤها، سوف أغادرك. يجب أن أصمت. أعرف نفسي. لي فورة عاطفية واحدة لكنها عنيفة، ويجب ألاّ تتدفق معك. استرْخي لحظة أخرى، لأراك؛ قولي لي بضع كلمات فقط، ودعيني آخُذ من هنا ما جئتُ أبحث عنه. سأمضي، والباقي على الله..».

لذْتُ بالصمت وانكببتُ فوق مخدتي. مددتُ لها إحدى يديّ فأمسكتْ بها. بدا أنها تتأمل، وبعمق. عيناها مغمضتان بمشقة، تفتحهما أحياناً لتنظرا إلى الأعلى ثم تعودان

للنظر إليّ. كانت روحها تضطرم، تمتلئ بالبلبلة والصخب، تأتلف ثمّ تعود للاضطرام. لقد ولدت هذه المرأة في الحقيقة لكي تكون نَبيّةً. ولها مظهر الأنبياء وطباعهم. كانت فيما مضى جميلة، لكن العمر الذي نزل بوطأته فوق تقاطيعها محدثاً فيها تجاعيد كبيرة، أضاف على مظهرها المزيدَ من النبل. عيناها صغيرتان لكنها تبدو كأنها تنظر إلى داخلها، أو كأن نظرتها تتجاوز الأشياء القريبة لتحطّ وراءها بعيداً باتجاه الماضي أو المستقبل دائماً. كانت أحياناً تشد على يدي بقوة. وفجأةً سألتْني كم الساعة.

«تقترب من السادسة.

– وداعاً، إني ذاهبة. سيأتين لإلباسك الثوب. لا أريد أن أشهد ذلك، فربما يلهيني. لم يعد لي غيرُ همّ واحد، هو الحفاظ على اعتدالي في اللحظات الأولى».

ما كادت تَخرج حتى دخلت رئيسة المستجدات ورفيقاتي. نزعن عني ثياب الدير، وألبسنني ثياباً دنيوية؛ وهي عادةٌ تعرفها. لم أسمع شيئاً مما يقال حولي. كنت أشبه بالآلة فلم أنتبه إلى شيء. فقط راحت تنتابني اختلاجاتٌ صغيرة متقطعة. كن يقلن لي ما يجب أن أفعله، مضطرات مراراً إلى تكراره لأنني لم أسمعه من المرة الأولى، فأفعل. ليس الأمر أنني كنت أفكر بشيءٍ آخر، بل إنني كنت مأخوذةً تماماً، وكان رأسي متعباً كما عند الإفراط في التفكير. في تلك الأثناء كانت رئيسة الدير تتحادث مع والدتي. لم أعرف قط ما الذي جرى في هذا اللقاء الذي طال جداً. قيل لي فقط بأن أمي، عندما افترقَتا، كانت مضطربة إلى درجة لم تتمكن معها من العثور على الباب الذي دخلتْ منه، وأن رئيسة الدير خرجت وهي تضغط بقبضتيها فوق جبينها.

دقت الأجراس، ونزلتُ. كان عدد الحاضرين في الجلسة قليلاً. أُلقيت عليّ العظة، لم أسمع منها شيئاً ولا أعرف إنْ كانت جيدة أو سيئة. تصرّفوا بي على هواهم طيلة ذلك الصباح عديمِ القيمة في حياتي، كَوْني لم أعرف كم استغرق من الوقت، لم أعرف ما فعلتُه ولا ما قلتُه. لا شك بأنهم سألوني، ولا شك بأنني أَجبت. نطقتُ بكلمات نذوري، لكنني لا أذكر شيئاً منها؛ ووجدتُ نفسي راهبةً بالبراءة التي وجدتُ بها نفسي مسيحيةً. لم أفهم من كل حفلِ ترسيمي أكثر مما فهمتُه من حفلِ عِمادي، مع فارق أنّ الأول يمنح البركةَ

والثاني يَفترض وجودَها. حسناً يا سيدي! هل تظن بأنني الآن، رغم عدم اعتراضي في لونشان كما فعلتُ في سانت ماري، أكثر تورّطاً وانغماساً؟ أحْتَكم إليكَ، وأحتكم إلى الله. كنتُ في حال من الانحطاط العميق لم أفهم معه المقصود مما أُعلن لي بعد بضعة أيام بأنني في الخورس. سألتُ إذا كان صحيحاً حقاً بأنني نذرتُ نفسي. أردتُ رؤية توقيعي على نذوري: كان يجب أن تُرفَق مع هذه البيّنة شهادةُ الرهبانية كلها، وشهادةُ بعض الغرباء الذين تمت دعوتهم لحضور حفل الترسيم. كتبتُ عدة مرات إلى رئيسة الدير أقول لها: «هذا صحيح إذن؟..». وأنتظر دوماً أن تجيبني بـ «لا، يا ابنتي، إنهم يخدعونك..». لم يقنعني تكرارُ تأكيدها، إذ لم أستطع أن أتصور كيف لا أتذكّر شيئاً من يوم كامل بهذا الصخب وهذا التنوع وهذا الامتلاء بظروف فريدة وصارخة، ولا حتى وجه مَن عُهِدَت إليه خدمتي، ولا وجه الكاهن الذي وعظني، ولا وجه ذاك الذي أودعتُه نذوري. الشيء الوحيد الذي أتذكره هو تبديل ثوبي الديني بثوبٍ دنيوي.

أصبحتُ منذ تلك اللحظة ما يسمى بالمستلَبة جسدياً. احتاج الأمر إلى شهور بحالها كي أخرج من هذه الحال. وأعزو نسياني العميق لما جرى إلى امتداد تلك الفترة الشبيهة بالنقاهة. كمنْ طال عليه مرضٌ ما وتكلّمَ أثناءه بحصافة، وتلقّى القربان المقدس، وحين تعافى، لم يذكر شيئاً مما حدث. لقد شاهدتُ في الدير عدة أمثلة على ذلك، وقلت لنفسي: «يبدو أن هذا ما حدث لي يوم إعلان نذوري». ولكن بقي أن نعرف هل تُشكّل هذه الأشياء جزءاً من أفعال الإنسان، وهل يدركها وإنْ بدا كذلك.

حدثت لي في العام نفسه ثلاث حالات فقدان كبرى: فقدتُ أبي، أو بالأحرى فقدتُ الشخص الذي كان بمثابة أبي. كان مسنّاً، وعمل كثيراً، وانطفأ. فقدتُ رئيسة ديري، وفقدتُ والدتي.

شعرتْ تلك الراهبة الفاضلة من بعيد بدنوّ أجلها. حكمتْ على نفسها بالصمت. طلبت أن يُحمل تابوتُها إلى حجرتها. كانت قد فقدت القدرة على النوم، وراحت تمضي الأيام والليالي بالتأمل والكتابة. لقد تركتْ خمسة عشر نصاً تأملياً تبدو لي شخصياً فائقة الجمال. لدي نسخة منها. إذا راوَدكَ يوماً فضولٌ لمعرفة الأفكار التي توحي بها تلك

اللحظة، فسوف أعرضها عليك إنها تحمل عنوان: لحظات الأخت دي موني الأخيرة.

مع اقتراب أجلها، طلبتْ إلباسَها زيها الكامل. لبثت ممددة فوق سريرها، ومُنحت الأسرار الأخيرة؛ كانت تمسك مسيحاً بين يديها، وكان الوقت ليلاً وضوء المشاعل ينير ذلك المشهد الفاجع. أحطنا بها ونحن نبكي بدموع غزيرة. كان دوي الصرخات يملأ حجرتها عندما التمعتْ عيناها فجأةً؛ نهضتْ على نحوٍ مباغت وصلّتْ. كان صوتها بالقوة نفسها تقريباً التي يتصف بها في المعافاة. عادت إليها الملكة التي فقدتْها، ولامتْنا على الدموع التي بدت كأنما تحسدها على سعادة أبدية. «بَناتي، أُلْكُنّ يخدعكنّ. هناك هناك، قالت وهي تشير إلى السماء، سأكون مفيدةً لكُنّ. ستنظر عيناي بلا انقطاع إلى الأسفل نحو هذا الدير. سأتوسّط من أجلكن، وسيُستَجاب لي. اقتربن جميعاً لأعانقكنّ. اقترِبن لأباركنّ وأودّعكن..». توفيت تلك المرأة النادرة وهي تلفظ هذه الكلمات الأخيرة، تاركةً وراءها حسراتٍ لن تنتهي.

توفيت والدتي لدى عودتها من سَفرة قصيرة في نهاية الخريف إلى إحدى ابنتيها. أصابها حزن، وتدهورتْ صحتها بشدة. لم أعرف منها قط اسم والدي ولا قصة ولادتي. سلّمني مَن كان مُرشِدَها ومرشدي، رزمةً صغيرة من طرَفها، ضمت خمسين لويسية[1] وبطاقة، صُرّت في قطعة قماش خيطت حولها. جاء في تلك البطاقة:

«بنيّتي، إنه شيء زهيد؛ لكن ضميري لا يسمح لي بالتصرف بمبلغ أكبر. إنه ما بقي مما استطعتُ توفيره من هدايا السيد سيمونان الصغيرة. عيشي حياتكِ بتقوى، فهذا أفضل حتى من أجل سعادتك في هذا العالم. صلّي لأجلي. كانت ولادتُك الخطأَ الجسيمَ الوحيد الذي اقترفتُه. ساعديني للتكفير عنه، وعسى الله يغفر إنجابي لك بفضل ما ستقومين به من أفعال صالحة. لا تثيري البلبلةَ في العائلة خصوصاً. إياكِ أن تُغيّري الوضع الذي تبنّيته حتى لو لم يكن خيارُكِ له بالقدر الذي تمنّيتُهُ من الطواعية. لو أنني حُبستُ في ديرٍ طوال حياتي، ربما لما اعتراني كل هذا القلق من فكرة الحساب الرهيب الذي يجب الخضوع له في لحظةٍ ما! فكِّري يا ابنتي بأن المصير الذي ستلقاه والدتك في العالم الآخر، يعتمد

1- عملة ذهبية قديمة تحمل رسم ملك فرنسا.

كثيراً على السلوك الذي ستسلكينه في هذا العالم، وأن الله الذي يرى كل شيء سيلصق بي، في عدالته، كل الحسنات والسيئات التي ستفعلينها. وداعاً يا سوزان. لا تطلبي شيئاً من أختيك، فليستا في حالٍ تُمكّنُهما من مساعدتك. لا تأملي شيئاً من أبيك، لقد سبقني وشهد اليوم الكبير. إنه بانتظاري، وسيكون حضوري بالنسبة إليه أقلّ فظاعةً من حضورِه بالنسبة إليّ. وداعاً مرة أخرى؛ آهٍ للأم الشقية! آهٍ للطفلة الشقية! لقد وصلتْ أختاك؛ لستُ راضية عنهما: إنهما تأخذان وتَنهبان، وتتخاصمان أمام عينيّ أمّهما المحتضِرة خصامَ مَصالحَ يسبِّبُ لي الحزن العميق. عندما تقتربان من سريري، ألتفتُ إلى الناحية الأخرى. ما الذي سأراه فيهما؟ إنهما مخلوقتان أطفأ فيهما الفقرُ العاطفةَ الطبيعية. إنهما تَتوقان للحصول على القليل الذي سأتركه، توجّهان للطبيب والممرضة أسئلةً غير لائقة تعبّر عن مقدار نفاد صبرهما بانتظار لحظةِ مفارقتي للحياة، لتستوليا على كل ما يحيط بي. لا أعرف كيف شَكّتا بأنّ لدي مالاً خبأتُه بين فرُشي. لا يوجد شيء لم تلجأا إليه لكي تجعلاني أنهض، وأفلحتا. ولكن، لحسن الحظ فإنّ الشخص الذي أئتمِنُه جاء بالأمس فأسلمتُه هذه الرزمة الصغيرة مع هذه الرسالة التي أمليتُها عليه. أحرِقي الرسالة. وعندما يصلكِ خبر بأنني لم أعد على قيد الحياة، وهو ما سيحدث قريباً، أقيمي من أجلي قداساً تجددين فيه نذورك، فما زلتُ أتمنى أن تظلّي راهبةً في الدير: إنّ فكرة تخيُّلكِ في العالم وأنت شابة بلا عون ولا سند، سوف تُكمل تنغيصَ لحظاتي الأخيرة».

توفي أبي في الخامس من كانون الثاني، ورئيسةُ الدير في أواخر الشهر نفسه، وتوفيت والدتي يوم عيد الميلاد الثاني[1].

الأخت سانت كريستين هي التي خلفت الأم دي موني. آهٍ يا سيدي، كم هناك فرق بين هذه وتلك! أخبرتُكَ أيةَ امرأة كانت الأولى، فيما لا تملك هذه صفاتٍ سامية، وهي ضيقة الأفق، ورأسها مشوّش بالخرافات؛ كانت تنساق مع المعتقدات الجديدة، وتتحادث مع أتباع من السولبيسيّة واليسوعية[2]. كرهتْ جميع من كنّ أثيرات لدى سابقتها. وخلال

1- عبارة غامضة ولا بد أن يكون المقصود هو شهر كانون الأول (ديسمبر) من السنة الجارية.

2- الاضطراب الذي أثارته وثيقة يونيجينيتوس (1713)، [وثيقة أدانت الجنسينية المتشددة القائلة بوجود أشخاص مقدّر لهم سلفاً الحصول على نعمة الرب، وآخرين محرومون منها] شهد في عام 1752 زخماً جديداً. ولم يهدأ إلا عندما مَنع البابا بونوا الرابع عشر الكهنةَ من الامتناع عن منح الأسرار الأخيرة لمن يُشتبه بأنه من أنصار الجنسينية. لكن التوتر بين

وقت قصير امتلأ الدير بالبلبلة والبغضاء، بالغيبة والاتهامات، بالنميمة والاضطهاد: كان علينا أن نبيّن موقفنا من قضايا لاهوتية لا نفهم منها شيئاً، ونلتزم بصيغ معينة، ونخضع لعقوبات عجيبة. لم تؤيد الأمُّ دي موني أشكال القصاص هذه التي تُنزَلُ بالجسد. وهي لم تعاقب نفسها سوى مرتين في حياتها: مرةً عشية تكريسي، ومرة أخرى في ظرف مماثل. كانت تقول عن هذه العقوبات بأنها لا تُصلِح عيباً، ولا فائدة منها سوى منح الشعور بالكرامة. أرادت أن تكون راهباتُها بصحة جيدة وأجساد سليمة ونفوس مطمئنة. وأول ما فعلَتْه عندما استلمَت مهامها، أنها أمرت بأن تُجلب إليها جميع المسوح الخشنة وأدوات الجَلْد، ومَنعت إفسادَ مذاق الأطعمة بالرماد، والنومَ على السطوح القاسية، ومنعت التزوُّد بأي من تلك الأدوات. أما الثانية فبالعكس، أعادت لكل راهبة مسوحها ومِجْلدتَها، وسحبت العهدين القديم والجديد. ولم تعد أثيراتُ العهد القديم أثيرات في العهد الذي تلا. لم تُعرِني رئيسةُ الدير الحالية أي اهتمام، كي لا أقول شيئاً أسوأ، نظراً لأن سابقَتَها أحبّتْني. لكنني سرعان ما جعلتُ وضعي يتفاقم بأفعالٍ ستسميها، حسب طريقتكَ في النظر إليها، إما تَهوُّراً أو عناداً. الفعل الأول هو أنني أرخيتُ العنان لكل الحزن الذي أشعر به لفقدِ رئيستنا الأولى، ومدحتُها في كل مناسبة، وعقدتُ بينها وبين الحالية مقارنات ليست في صالح الأخيرة، وصوّرتُ حال الدير في السنين الماضية، وذكّرتُ بالسلام الذي كنا ننعم به، والرأفة التي كنا نُعامل بها، والغذاء المادي والروحي الذي كان يقدّم لنا، وأشدتُ بأخلاق الأخت دي موني وعواطفها وشخصيتها. الفعل الثاني هو أنني ألقيتُ بمسوحي في النار، وتخلصتُ من مِجلدتي، ودعوتُ صديقاتي إلى ذلك، وورّطتُ بعضهن ففعلن فعلي. الثالث هو أنني تزوّدتُ بالعهدين القديم والجديد. والرابع هو أنني رفضتُ الانحياز إلى أي جماعة، واقتصرتُ على لقبِ مسيحية، دون قبول بلقب جنسينيّة أو مولينيّة. الخامس هو أنني تقيّدتُ تقيُّداً صارماً بقواعد الدير، ورفضتُ القيام بأي شيء يزيد أو ينقص عنها، مما يعني عدم قبول أيّة إضافة على الواجبات التي تبدو لي أساساً قاسية جداً، وعدم الجلوس إلى الأورغن إلاّ أيام الأعياد، وعدم الغناء إلاّ في الجوقة، والكف عن

اليسوعية والجنسينية استمر حتى صدور قانون إلغاء اليسوعية في فرنسا عام 1764.

السماح باستغلال لُطْفي ومواهبي وتكليفي بكل شيء وكل يوم. قرأتُ القوانين وأعدتُ قراءتها حتى حفظتُها غيباً. فإذا أمرتُ بشيء غير منصوص عليه بوضوح فيها، أو غير مشارٍ إليه فيها، أو بدا لي مناقضاً لها، رفضتُ القيام به رفضاً قاطعاً، وتناولتُ الكتاب وقلت: «هذه هي الواجبات التي تعهدتُ الالتزام بها، ولم أتعهد القيام بشيء آخر».

استمالت خطاباتي بعضَ الراهبات. باتت سلطةُ رئيساتنا محدودة للغاية. ما عاد بمقدورهن استخدامنا كأننا عبدات لهن. لم يكن يمرّ يومٌ تقريباً دون وقوع فضيحة. وكانت زميلاتي يستشرنني في الحالات الملتبسة، وأقف دوماً مع القاعدة وضد الطغيان. سرعان ما ظهرتُ بمظهر مثيرة شغب، وربما لعبتُ هذه اللعبة قليلاً. كان كبار نوّاب المطران يُستَدعَون بلا انقطاع، وأَمْثل أمامهم، فأدافع عن نفسي وعن زميلاتي. ومن شدة حرصي على أن يكون الحق بجانبي، لم أُدَنْ مرة واحدة. كان مستحيلاً الطعن في سلوكي من ناحية واجباتي لشدة دقتي في أدائها. أما لَفْتات العطف الصغيرة التي تُعتبر رئيسةُ الدير حرةً دوماً في منحها أو حجبها، فلم أطلبها. لم أكن أظهر في ردهة الاستقبال أبداً، وبما أنني لا أعرف أحداً لم أكن أتلقى زيارات قط. لكنني كنت قد أحرقت مسوحي، وتخلصت من مِجْلدتي، ونصحتُ أخرياتٍ بالشيء نفسه. لم أشأ سماع أي كلام عن جنسينية أو مولينيّة لا بالخير ولا بالشر. عندما يسألونني إذا كنت أرضخ للدستور[1]، أجيبُ بأنني أرضخ للكنيسة، وإذا كنت أقبل بفتوى الحِرْم البابوية، بأنني أقبل بالإنجيل. زاروا حجرتي واكتشفوا فيها العهدين القديم والجديد، فتملّصتُ بأحاديث عن خصوصيات حميمية مريبة لبعض الأثيراتِ لدى الرئيسة، وعن لقاءات خاصة مطولة ومتكررة أجرتْها رئيسةُ الدير مع قس شاب، وميّزتُ بين السبب الذي دفعها لإجرائها، وبين الذريعة التي لجأت إليها لتبريرها. لم أُغفل شيئاً مما يمكن أن يؤدي إلى خشيةِ جانبي وإلى كراهيتي ودماري؛ وكان لي ذلك. لم تعد تُرفع شكاوى ضدي إلى الرؤساء، بل انصبّ الاهتمام على تسويد عيشتي. مُنعَت الراهباتُ الأخريات من الاقتراب مني، وسرعان ما وجدتُ نفسي وحيدة.

1- المقصود هنا هو وثيقة أو قانون أصدره البابا كليمان الحادي عشر أدان فيه الجنسينية، وأثار جدلاً واضطرابات طويلة.

كان لدي عدد قليل من الصديقات. ونظراً لأنهنّ لا يستطعن التحدث إليّ نهاراً، ساد شكٌّ بأنهن قد يسعين خلسةً لزيارتي أثناء الليل، أو في ساعات ممنوعة تعويضاً من الحظر المفروض عليهن. فأُخضِعنا للمراقبة، وتمت مباغتتي تارةً مع هذه وتارةً مع تلك. لقد صنعن من ذلك الفعل الطائش كل ما أردنه، وعاقبنني عليه بأقسى الطرق. حكم عليّ بأداء صلواتي أسابيع بطولها جاثيةً على ركبتيّ، منفصلةً عن البقية وسط الجوقة؛ وبأن أعيش على الخبز والماء، وأبقى حبيسة حجرتي، وأقوم بأحطّ الوظائف في الدير. لم تلقَ اللواتي سُمّين شريكاتي، معاملةً أفضل. عندما لا يستطعن أن يجدنني متلبّسةً، يَفترضن ذلك. كانت تُعطى لي في وقت واحد أوامر غير متوافقة، وأعاقَب على إخلالي بها. قُدّمتْ مواعيد الصلوات ووجبات الطعام؛ جرى دون علمي تشويش نظام الدير كله. وبأكبر قدرٍ من العناية كنت أجدني مذنبةً كل يوم، وكنت أعاقَب كل يوم. إنني أملكُ الشجاعة، ولكنْ لا شيء يَصمد أمام الهجر والوحدة والاضطهاد. وصلت الأمور إلى درجةِ أنهن جعلن من تعذيبي لعبةً. كان ذلك تسليةَ خمسين راهبة متّحدات. يستحيل عليّ الدخول في كل تفاصيل تلك الأذيّات الشريرة. كنت أُمنع من النوم ومن السهر والصلاة. سُرقتْ يوماً قطعٌ من ثيابي، ومرة أخرى سُرقتْ مفاتيحي أو كتاب صلواتي، وعُبث بقفْلِ بابي. كنت إما أُمنع من القيام بالأشياء على نحو متقَن، أو تُفسَد الأشياء التي قمتُ بها على نحو متقَن. كانت تُفترض أقوالٌ قلتُها، وأفعال قمت بها، وأُحمّل مسؤولية كل شيء حتى باتت حياتي سلسلةَ جُنَح فعلية أو مفتعلة، وعقوبات. لم تصمد صحتي أمام محنٍ طويلة وقاسية إلى هذا الحد. فانهَدّ جسمي، وسقطتُ في الغم والاكتئاب. في بدايات الأمر كنت أذهب إلى المذبح وأصلي طلباً لشيء من القوة، وأجدها أحياناً. كنت أترنح بين التسليم واليأس. أخضع تارةً لمصيري القاسي، وتارةً أفكر بالتخلص منه بوسائل عنيفة. يوجد في آخر الحديقة بئر عميقة. كم من المرات ذهبت إلى هناك! وكم من المرات تطلّعتُ إلى أعماقها! ثمة مقعد حجري بجانبها. كم من المرات جلست عليه مُسْندةً رأسي إلى حافة هذه البئر! كم من المرات نهضتُ فجأةً، في اضطراب أفكاري، عازمةً على إنهاء آلامي! ما الذي أمسكني؟ لماذا فضلتُ آنذاك أن أبكي، أن أصرخ بأعلى صوتي، أن أدوس وشاحي

وأُنتّف شعري، وأمزّق وجهي بأظافري؟ إذا كان الله هو الذي يمنعني من تدمير نفسي، فلماذا لا يوقف أيضاً كل تلك الأفعال الأخرى؟ سأقول لكَ شيئاً قد يبدو غريباً جداً، لكنه يبقى صحيحاً، هو أنني متأكدة من أن زياراتي المتكررة إلى تلك البئر قد لوحِظَتْ، ومن أن عَدُوّاتي القاسيات طاب لهن الاعتقاد بأنني، يوماً ما، سأحقق مُراداً يغلي في أعماق قلبي. عندما أذهب من ناحية، يتظاهرن بالابتعاد عنها وبالنظر إلى ناحية اخرى. رأيت باب الحديقة مفتوحاً مرات عدة في أوقاتٍ يفترض أن يكون فيها مغلقاً، خصوصاً في الأيام التي يكنّ قد ضاعَفْن فيها أسباب غمّي، ودفعن بالعنف الكامن في طبعي إلى أقصاه، واعتقدن بأن مسّاً يسكن روحي. ما أن حزرتُ بأن وسيلة الموت هذه تكاد تُقَدّم لي في يأسي، وأنني أُجَرّ من يدي إلى هذه البئر التي سأجدها دائماً جاهزة لاستقبالي، توقفتُ عن الاهتمام بها والتفتَ ذهني إلى وسائل أخرى. رحت أمكث في الممرات وأقيس علوّ النوافذ، وأثناء خلع ملابسي مساءً، أجرِّب، دون تفكير، متانةَ رباطِ جواربي، وفي يوم آخر أرفض تناول الطعام، فأنزل إلى مطعم الدير وأمكث مسندةً ظهري إلى الحائط بيدين متدليتين إلى جانبيّ وعينين مغمضتين، ولا أقرَب الأطعمة الموضوعة أمامي. وعلى هذه الحال أنسى نفسي نسياناً تاماً إلى درجة أنني أبقى وحدي وجميع الراهبات قد خرجن. كنّ عندها يتظاهرن بالانسحاب بلا صوت، ليتركنني هناك. وبعدها أعاقَب على تخلُّفي عن التمارين الروحية. ماذا سأقول لك؟ لقد جعلْنَني أشمئزّ من كل وسائل التخلص من الحياة، لأنه بدا لي أنهنّ لا يكتفين بعدم الاعتراض عليها بل على العكس، يَعْرِضْنَها علي. يبدو أننا لا نريد أن يرسلنا أحد خارج هذا العالم. وربما ما كنتُ موجودة حتى الآن لو أنهنّ تظاهرن بالتمسك بي. ربما أننا نريد دفع الآخرين إلى اليأس عندما نُنهي حياتَنا، وعندما نحسَب أننا نُرضيهم نُبقي عليها. إنها حالات تنتابنا على نحوٍ غير محسوس. فإذا استطعتُ تَذكُّر حالتي بجانب البئر، يبدو لي أنني كنت، في الحقيقة، أصرخ في داخلي مخاطبةً أولئك الشقيّات اللواتي يبتعدن لتسهيلِ اقترافِ إثم كبير: «افعلن شيئاً لأجلي، أظهِرْن لي رغبة بسيطة بإنقاذي، أَسرِعن إليّ لإيقافي، وكنّ واثقات بأنكن ستصلن بعد فوات الأوان». في الحقيقة، لم أكن مستمرة في الحياة إلاّ لأنهن كنّ يتمنّين موتي. ضراوةُ الإنسان في تعذيب

الآخرين وتدميرهم يصيبها الكللُ خارج الأديرة، أما داخل الأديرة فهي ضراوةٌ بلا كلل.

كنت في تلك الحال عندما راودتني، وأنا أستعيد حياتي الماضية، فكرةُ إبطالِ نذوري. حلمتُ بذلك قليلاً في البداية، وكيف عساني أنجح في مشروع بهذه الصعوبة وأنا وحيدة ومتروكة بلا سند، وحتى بوجود كل المساعدات التي كانت تنقصني؟ مع ذلك طمأنتني تلك الفكرة، فهدأ روعي وتمالكتُ نفسي أكثر، وتفاديتُ بعض العقوبات، وتحملتُ بصبرٍ أكبر عقوباتٍ أقرّت بحقي. لاحظن هذا التغيير، ودهشن له. توقّف الأذى هكذا بلا زيادة، مثل عدوٍّ جبان يطاردك فتواجهه في لحظةٍ غير متوقّعة. ثمة سؤال يا سيدي يجب أن أطرحه عليك، هو: لماذا من بين كل الأفكار المشؤومة التي تعبر رأسَ راهبةٍ يائسة، لم تخطر لها قط فكرةُ إضرام النار في الدير؟ هذه الفكرة لم تخطر ببالي أبداً كما لم تخطر ببال غيري، مع أنها الأسهل تنفيذاً: يكفي أن تأخذ مشعلاً، وتحمله في يوم عاصف إلى سقيفة المؤن، أو إلى مخزن الحطب، أو إلى ممر داخلي. لا وجود لأديرة محروقة، ففي أحداث كهذه تُفتح الأبواب ويهرب من يشاء. أليس مردّ ذلك هو خشيتك من تعريض نفسك وتعريض من تحبهم للخطر، ورفضُ إنقاذك بشكل مشترك مع من تكرههم؟ لعل هذه الفكرة الأخيرة أشد رهافةً من أن تكون صحيحة.

إنّ شدة انشغالنا بأمرٍ ما قد تجعلنا نشعر بعدالته، بل قد تجعلنا نعتقد بإمكانية حدوثه. وعندما نصل إلى هذا الاعتقاد نكون أقوياء حقاً. لقد استغرق الأمر مني نحو أسبوعين لا أكثر، لأن ذهني عمل بسرعة. يتعلق الأمر بإعداد مذكّرة ثم إعطائها لشخصٍ ما للتداول بشأنها؛ وفي الأمرين مخاطرة. لأنهن، منذ تشكلت ثورةٌ في رأسي، بِتْن يراقبْنَني بانتباه أشد من أي وقت مضى ويتابعْنَني بالنظر. لم أكن أخطو خطوة دون أن يسلّط عليها الضوء، ولا أقول كلمة دون أن توزَن. فتَقَرّبن مني وحاولن سبر أغواري، ورحن يستجوبنني، ويصطنعن التعاطف والصداقة معي، يسألنني عن حياتي الماضية، يوجهن إلي اتهاماً ضعيفاً، ويَعذرنني متَمنّياتٍ مني أن أحسّن سلوكي، ويهدهدنني بخديعة المستقبل الأفضل. مع ذلك كن يدخلن إلى حجرتي بذرائع مختلفة في كل الأوقات، نهاراً أو ليلاً، على نحو مباغت أو خفيةً. كنّ يزِحْن ستائر حجرتي قليلاً وينسحبن. إلى جانب عادةِ النوم بثيابي

التي كنت قد اكتسبتُها، كانت لدي عادةٌ أخرى، هي كتابة اعترافي. في تلك الأيام، وهي أيام تركت أثراً مميزاً، ذهبتُ لأطلب حبراً وورقاً من رئيسة الدير، ولم ترفض طلبي. انتظرتُ يوم الاعتراف، وأثناء انتظاري رحتُ أخطّ في رأسي ما لديّ للعرض. إنه باختصار، كل ما كتبتُه لك للتو؛ عرضتُه فقط بأسماء مستعارة. لكنني ارتكبتُ ثلاث هفوات: الأولى قَولي لرئيسة الدير بأن لدي أشياء كثيرة أكتبها، وتذرُّعي بذلك من أجل طلبِ كميةٍ أكبر مما يُمنح من الورق. والثانية هي انشغالي بمذكّرتي وترْكُ اعترافي عند ذلك الحد. والثالثة هي عدم مكوثي سوى لحظة في كرسي الاعتراف إذ أنني لم أكن مستعدة لهذا الطقس الديني لّما لم يسبق أن اعترفت. لقد لاحظن ذلك كله، واستخلصن منه بأن الورق الذي طلبتُه قد استعملتُه لغيرِ ما قلتُه. ولكن، إذا لم أستعمله لكتابة اعترافي، كما هو واضح، فكيف استعملتُه؟ ودون أن أعرف بأن تلك المخاوف سوف تنتابهن، شعرتُ بضرورة ألاّ يجدن مخطوطاً بهذه الأهمية عندي. فكرتُ في البداية بأن أخيطه داخل وسادتي أو فراشي، ثم فكرتُ بأن أخفيه بين ثيابي، أو أخبئه في الحديقة، أو ألقي به إلى النار. لا يمكنك أن تصدق إلى أية درجة كنت أتعجّل كتابته، وإلى أية درجة كنتُ مرتبكةً حين كتبتُه. ألصقتُه أولاً ثم ضممتُه إليّ تحت ثيابي، ومضيتُ لأداء الصلاة التي قُرعت أجراسُها. كنتُ في حالةِ قلقٍ يُستشفُ من حركاتي. جلستُ بجانب راهبة تحبني. كنت قد رأيتها أحياناً وهي تنظر إلي بإشفاق وتذرف الدموع: لم تكلّمني أبداً، لكنها كانت بالتأكيد تتألم لأجلي. وقررتُ، مُخاطرةً بكل ما يمكن أن يحدث، أن أعهد إليها بمخطوطي. وفي لحظة من لحظات التضرُّع التي تركع أثناءها جميع الراهبات، وينحنين فيَبدون كالغارقات في مقاعدهنّ، سحبتُ المخطوط بهدوء من عبّي، ومددتُ يدي إلى الخلف وأعطيته إليها. أخذَته وخبّأته في كُمّها. كانت هذه أهم خدمة تسديها لي. لكنها قدمت لي خدمات كثيرة غيرها. فقد عملتْ شهوراً بكاملها دون أن يَشتبِه أحد بها، على إزالة كل العراقيل التي تُعيق بها الراهباتُ أدائي لفروضي، من أجل إعطاء أنفسهن الحقّ بمعاقبتي. كانت تأتي، وتطرق بابي وعندما تحين ساعة المغادرة، تصلح ما أفسدته، وإذا لزم الأمر تذهب للتقريع أو الردّ عليهن. كانت تتواجد في كل مكان عليها التواجد فيه، وكنت أجهل ذلك كله.

حسناً فعلتُ باتخاذ تلك الخطوة. عندما خرجنا من الخورس، قالت لي رئيسة الدير: «أخت سوزان، اتبعيني». تبعتُها، ثم قالت وهي تتوقف عند بابٍ في الممر: «ستكون هذه هي حجرتك؛ وستَشغل الأخت سان جيروم حجرتك السابقة..». دخلتُ، ودخلتْ معي. كنا جالستين بلا كلام عندما ظهرتْ راهبة تحمل ثياباً وضعَتْها فوق كرسي. قالت لي الرئيسة: «أخت سوزان، اخلعي ملابسك وارتدي هذه..». أطعتُ في حضورها. لبثتْ منتبهةً لكل حركاتي. كانت الراهبة التي جلبت الملابس واقفة بالباب. دخلتْ وحملت الملابس التي خلعتُها وخرجتْ، ثم تبعتْها الرئيسة. لم يفسّر لي سبب هذه الإجراءات، ولم أطلب ذلك. في تلك الأثناء جرى تفتيش كل مكان من حجرتي. فُتِقَت الوسادة والمرْتبات. أُزيح كل ما يمكن إزاحته أو كل ما غُيِّر مكانه. اقتُفِي أثري إلى كرسي الاعتراف فالكنيسة فالحديقة فالبئر فالمقعد الحجري. رأيتُ جانباً من هذا البحث، واشتبهتُ بالباقي. لم يعثرن على شيء، ومع ذلك بقين مقتنعات بوجود شيء ما. تابَعْن التجسس عليّ أياماً عديدة. كن يذهبن إلى حيث ذهبتُ، وينظرن في كل مكان، بلا جدوى. وأخيراً، ظنتْ رئيسة الدير أنه لا يمكن معرفة الحقيقة إلاّ منّي. فدخلت يوماً إلى حجرتي وقالت لي:

«أخت سوزان، لديك عيوب، لكن ليس بينها الكذب. قولي لي الحقيقة إذن: ماذا فعلتِ بكل الورق الذي أعطيتك إياه؟

– سيدتي، لقد قلته لك.

– هذا غير ممكن، لأنك طلبت الكثير من الورق، ولم تمكثي في كرسي الاعتراف سوى لحظة.

– هذا صحيح.

– ماذا فعلتِ به إذن؟

– ما قلتُه لك.

– حسناً! أقسِمي إذن بالقَسَم المقدّس الذي نذَرتِ لطاعة الرب، بأن الأمر ماقلتِه، وسوف أصدّقك رغم ظاهر الأشياء.

– سيدتي، ليس مسموحاً لك بمطالبتي بقَسَمٍ على شيء زهيد بهذا الشكل، وليس مسموحاً لي بأن أفعل. لا يمكنني أن أُقسِم.

– إنك تخدعينني يا أخت سوزان، ولا تعرفين إلى ما تعرِّضين نفسك له. ماذا فعلتِ بالورق الذي أعطيتك إياه؟

– قلت لك ذلك.

– أين هذا الورق؟

– لم يعد بحوزتي.

– ماذا فعلتِ به؟

– ما يُفعَل بهذا النوع من الكتابات التي لا يعود لها نفع بعد استخدامها.

– أَقْسِمي لي، بقَسَم الطاعة المقدّس، أنك استخدمتِ الورق كله لكتابة اعترافك، وأنه لم يعد بحوزتك.

– سيدتي، أكرر لك بأنني لا يمكن أن أقْسم، كون هذا الأمر الثاني ليس أهمّ من الأول.

– أقَسْمي، قالت لي، وإلاّ ...

– لن أقسم.

– لن تقْسمي؟

– لا، يا سيدتي.

– أنت مذنبة إذن.

– وبماذا أذنبْت؟

– بكل شيء. لا يوجد شيء لستِ مذنبة فيه. لقد تعمّدت إظهار المديح لَمن سبقتْني، من أجل الحطّ من قدري، تعمّدتِ تحقير الوسائل التي حظّرَتْها، والقوانين التي ألغَتْها والتي ظننتُ أن من واجبي إعادة إقرارها. تعمّدتِ تحريضَ الوسط برمّته، ومخالفةَ القواعد، وبثّ الشقاق في النفوس، والإخلال بواجباتك جميعاً، وإجباري على معاقبتك، ومعاقبة أولئك اللواتي أغويتِهنّ، وهو أكثر أمرٍ شقّ عليّ. كان بوسعي اللجوء إلى أقسى السبل

في معاقبتك لكنني راعيتُك: واعتقدتُ بأنك ستعترفين بأخطائك، بأنك ستستعيدين روح الحالة التي تعيشينها، وبأنك سوف تعودين إليّ. ولم تفعلي. ثمة شيء سيء يدور في ذهنك. لديك مشاريع تقتضي مصلحةُ الدير أن أعرفها، وسأعرفها. أنا من يؤكد لك ذلك. أخت سوزان، قولي لي الحقيقة.

– لقد قلتُها لك.

– سأخرج الآن، اِخْشَيْ من عودتي... بل سأجلس، وأعطيك لحظة إضافية لتقرري...

أوراقكِ، إذا كان لها وجود...

– لم تعد بحوزتي.

– أو أن تقسمي بأنه لم يكن فيها سوى اعترافك.

– لا يمكنني أن أفعل ..».

لبثتْ صامتةً للحظة، ثم خرجت وعادت برفقة أربع من راهباتها المقرّبات. ظهرن بهيئة زائغة شديدة الغضب. ارتميتُ على أقدامهنّ أتوسل إليهن طالبةً الرحمة. رحن يصرخن جميعهن معاً: «لا رحمة. سيدتي، لا تسمحي لنفسك بالإشفاق عليها. إما أن تُعطي أوراقها، أو لتذهب بسلام..». كنتُ تارةً أقبّل ركبتَي هذه وتارةً تلك، وأقول لهن مسَمّيةً إياهن بالأسماء: «أخت سانت آنييس، أخت سانت جولي، ماذا فعلتُ لكما؟ لماذا تحرّضان رئيستنا ضدي؟ هل تعاملتُ معكما بهذه الطريقة؟ كم مرة تضرّعتُ من أجلكما؟ ما عدتما تتذكران. أنتما كنتما متلبّستين، ولستُ كذلك».

قالت لي رئيسة الدير التي كانت تنظر إليّ بلا حراك: «سلِّمي أوراقك، أيتها التعسة، أو أفصِحي عن محتواها.

– سيدتي، قالتا لها: لا تطلبيها منها بعد الآن، طِيبتُكِ تفوق الحد. أنت لا تعرفينها. إنها روحٌ عاصية لا تستجيب إلاّ بالوسائل القصوى. هي التي تدفعك إلى ذلك، فلتتحمّل النتائج.

– أيتها الأم العزيزة، قلتُ لها، لم أفعل شيئاً يُغضب الله أو البشر، أقسم لك على ذلك.

– ليس هذا هو القسَم الذي أريد.

– لا بد أنها كتبتْ مذكّرةً ضدك، ضدنا، إلى نائب المطران، أو إلى المطران. الله وحده يعلم كيف وصفتْ ما يجري داخل الدير. الأشياء السيئة سهلة التصديق. سيدتي، يجب أن تتصرفي مع هذه المخلوقة، إذا أردتِ ألاّ تتصرف هي بنا».

أضافت رئيسة الدير: «أخت سوزان، انظري...

نهضتُ فجأةً وقلتُ لها: «سيدتي، لقد رأيتُ كل شيء، وأشعر بأني هالكة. وسواء حدث هذا الآن أو بعد لحظة، فهو أمر لا يستحق عناء التفكير. افعلن بي ما تُردن. امْضي مع جنونهن، وأتِمّي ظلمَكِ لي..». وفي الحال، مددتُ لهن ذراعي، فقبضت مرافقاتُها عليهما. انتُزع عني وشاحي، وعُرّيتُ بلا حياء. وجدن فوق صدري صورة صغيرة لرئيسة الدير السابقة، فاستولين عليها. توسلتُ إليهما السماح لي بتقبيلها مرة أخيرة فرفضن. رمين إلي بقميص، انتزعن جوربيّ، غطّينني بكيس، وسقنني عبر الممرات حاسرة الرأس عارية القدمين. رحتُ أصرخ وأطلب النجدة. لكن الجرس كان قد قُرع للتنبيه إلى وجوب عدم ظهور أحد. رحت أتضرع إلى السماء. كنتُ مرميةً على الأرض وهنّ يَجرُرنني. وصلتُ عند أسفل السلالم مدمّاة القدمين مرضوضة الساقين. كنت في حال ترقّ لها القلوب المتحجرة. بمفتاح ضخم فُتح بابٌ يفضي إلى مكانٍ مظلم تحت الأرض، ألقي بي فيه على حصيرةٍ جعلتْها الرطوبة نصف متعفّنة. هناك، وجدتُ قطعة خبز أسود وجرة ماء مع بعض الأوعية الضرورية والبدائية. كانت الحصيرة مدروجة من أحد طرفيها لتشكّل وسادة. وفوق كتلة حجرية يوجد رأسُ ميتٍ ومعه تمثال مسيح مصلوب من خشب. كانت أول حركة قمتُ بها أني أردتُ قتل نفسي. ضغطتُ بيديّ فوق حلْقي، مزقتُ ثوبي بأسناني، أطلقتُ صرخات مخيفة، كنت أعوي مثل حيوان ضارٍ، وأضرب رأسي بالجدران حتى أدميتُ نفسي تماماً. ظللتُ أحاول قتل نفسي حتى خارت قواي، وهو ما لم يطل انتظاره. أمضيتُ في ذلك المكان ثلاثة أيام، وكل ظني أني سأمضي فيه بقية حياتي. كل صباح كانت إحدى جلاداتي تأتي وتقول لي:

«أطيعي رئيسة الدير، تخرجي من هنا.

– أنا لم أفعل شيئاً، ولا أعرف ما المطلوب مني. آهٍ يا أخت سان كليمان، هناك إله..».

في اليوم الثالث، حوالى التاسعة مساءً، فُتح الباب، وظهرت الراهبتان اللتان قادتاني إلى هناك. وبعد أن كالتا المديح لطيبة قلبِ الرئيسة، أعلنتا لي بأنها تعفو عني، وأنه سوف يطلق سراحي.

«فات الأوان، قلت لهما، اتركاني، أريد أن أموت هنا».

إلا أنهما أنهضتاني وراحتا تجُرّاني. قادتاني إلى حجرتي حيث وَجدتُ رئيسة الدير.

«لقد استعنتُ بالله بشأن مصيرك. فحنّن لي قلبي: أرادني أن أشفق عليك: وأنا أطيعه. اركعي واطلبي مغفرته». ركعتُ وقلت:

«إلهي، أطلب منك المغفرة على الأخطاء التي ارتكبتُها، مثلما طلبْتَ المغفرةَ فوق الصليب من أجلي.

– أيٌّ كبرياء! صرخْنَ، إنها تُقارن نفسها بيسوع المسيح، وتقارنُنا باليهود الذين صلبوه.

– لا تتأمّلْنني، بل تأمّلْن أنفسكن، واحكُمن.

– ليس هذا كل شيء، قالت لي الرئيسة، أَقسِمي لي، بقَسَم الطاعة المقدس، أنك لن تتكلمي أبداً عما جرى.

– ما فعلتنّه إذن أمر سيء طالما أنكن تطالبنني بأن أقسم على السكوت عنه. لن يعلم أحد شيئاً عن ذلك قط، سوى ضمائركن. أقسم لكُنّ .

– تُقسمين؟

– نعم، أُقسم».

بعدها نزعن عني الثياب التي ألبسنني إياها، وتركْنني أرتدي ثيابي.

كانت الرطوبة قد تغلغلت بداخلي، وكنت في حال حرجة وجسدي مرضوض بكامله. فلم أتناول سوى بضع نقاط من الماء وقليل من الخبز منذ عدة أيام. ظننتُ أن هذا سيكون آخر اضطهادٍ أتعرض له. إنّ قوةَ الطبيعة الكائنة في الشباب إنما تَظهر من خلال الأثر العابر لتلك الهزات العنيفة. فقد تعافيتُ في وقت قصير جداً. وحين ظهرتُ ثانيةً، وجدتُ كل راهبات الدير مقتنعات بأنني كنت مريضة. استأنفتُ وظائفي في الدير

واستعدتُ مكاني في الكنيسة. لم أنسَ مخطوطي ولا الراهبة الشابة التي عهدتُ إليها به. كنت متأكدة من أنها لم تسئ استخدام تلك الوديعة قط، ومن أنها لم تحتفظ بها بلا قلق. بعد بضعة أيام من خروجي من السجن، وقت اجتماع الجوقة، وفي اللحظة التي أعطيتُها فيها المخطوط، أي أثناء ركوعنا وغرقنا في مقاعدنا مع انحناء بعضنا باتجاه البعض الآخر، شعرتُ بأن هناك من يشدني برفق من ثوبي. مددتُ يدي، فأُعطيت لي بطاقة ليس فيها سوى هذه الكلمات: «كم شغلتِ بالي! وماذا يجب أن أفعل بذلك المخطوط المؤذي؟» درَجتُ تلك الورقة بين يديّ بعد قراءتها، وابتلعتُها. حدث ذلك كله مع بدء الصوم الكبير واقتراب الوقت الذي يَدفع فيه الفضولُ كلّ من هب ودب، للمجيء من باريس إلى لونشان من أجل سماع الأصوات. كنت أملك صوتاً جميلاً جداً لم أفقد منه شيئاً تقريباً. فالأديرة هي المكان الذي يتم فيه الاهتمام بأصغر القضايا. حظيتُ ببعض المراعاة ونعمتُ بقدر أكبر قليلاً من الحرية. استطاعت الراهبات اللواتي أُعلّمهن الغناء، الاقتراب مني دون تبِعات. وكانت تلك التي أودعتُها مخطوطي واحدة منهن. فكنتُ آخذها جانباً في أوقات الاستراحة التي تمضيها في الحديقة، وأجعلها تغنّي. وبينما كانت تغنّي، قلتُ لها:

«أنتِ تعرفين أناساً كثيرين، وأنا لا أعرف أحداً. لا أريدك أن تعرّضي نفسك للشبهة. أفضّل الموت هنا على تعريضك لشبهةِ تقديم خدمةٍ لي. هذا سيودي بك إلى الهلاك. أعرف ذلك يا صديقتي وهذا لا يجلب لي الخلاص. وإذا كان خلاصي في هلاكِكِ، فلا أريد خلاصاً بهذا الثمن.

– دعينا من هذا، قالت لي، ما الأمر؟

– الأمر هو حَمْلُ هذه الاستشارة على نحوٍ مضمون إلى محام بارع، دون أن يعلم من أي دير وصلَتْهُ، والحصول منه على جواب تنقلينه إليّ في الكنيسةً أو في مكان آخر.

– بالمناسبة، ماذا فعلتِ ببطاقتي؟

– اطمئني، لقد ابتلعتُها.

– اطمئني أنت أيضاً، سأفكر بموضوعك».

سوف تلاحظ يا سيدي بأنني كنت أغنّي وهي تكلمني، وأنها كانت تغنّي وأنا أجيبها،

وأنّ فواصل غناء كانت تقطع محادثتنا. ما تزال هذه الإنسانة الشابة في الدير يا سيدي. سعادتها بين يديك. فإذا حدث واكتُشف ما فعلَتْه من أجلي، سوف تتعرض لكل صنوف العذاب. لا أريد أن أكون سبباً لفتح باب زنزانة أمامها، أُفضّل أن أعود أنا نفسي إلى هناك. أحرِقْ تلك الرسائل إذن يا سيدي، فليس فيها ما تستحق أن يُحتَفَظ بها من أجله، إذا فصلتَ عنها الاهتمام الذي ستوليه إلى مصيري. هذا ما كنتُ أقوله لكَ آنذاك. ولكنها للأسف لم تعد حاضرة! وبقيتُ وحدي.

لم تتأخر في الوفاء بوعدها لي، وأخبرتْني بذلك بالطريقة المعهودة بيني وبينها. حلت الجمعة الحزينة، وأقبلَ حشدٌ كبير لحضور تسابيح السَّحَر في ديرنا. كان إنشادي جيداً إلى درجة إثارة ذلك التصفيق المعيب الذي يُقابَل به الممثلون في صالات المسرح، والذي يجب عدم سماعه أبداً في هياكل الرب، خاصةً في الأيام المَجيدة والمفجعة التي يُحتفل فيها بذكرى تعليق ابنه فوق الصليب كفّارةً عن جرائم الجنس البشري. كنتُ قد أعددتُ تلميذاتي الشابات إعداداً جيداً. امتلك بعضهن أصواتاً جميلة، وامتلكن جميعاً تقريباً حلاوة التعبير والتذوق الجيد. وبدا لي أن الجمهور استمع إليهن بمتعة، وأن رضاً عن النجاح الذي تحقّقَ بعنايتي، ساد بين راهبات الدير.

تعلم ياسيدي أنه في يوم الخميس يتم نقل القربان المقدس من مكانه إلى محمل خاص يبقى فيه حتى صباح الجمعة. هذه الفسحة من الزمن تمتلئ بصلوات متتالية من قبل الراهبات اللواتي يذهبن إلى المحمل فرادى، أو اثنتين اثنتين. وتوجد لوحة تُحدد لكل منهن ساعة تَوجُهها للعبادة. وقد سرني أني قرأتُ فيها: الأخت سانت سوزان والأخت سانت أورسولا، من الثانية وحتى الثالثة صباحاً! وفي الساعة المقررة ذهبتُ إلى المحمل، وكانت رفيقتي هناك. جلستْ إحدانا بجانب الأخرى فوق درجات المذبح، ركعنا معاً وابتهلنا إلى الرب مدة نصف ساعة. وفي نهاية تلك المدة، التقطت صديقتي يدي، وشدت عليها قائلةً:

«ربما لا تتاح لنا أبداً فرصة تبادل الحديث كل هذا الوقت وبهذه الحرية. يعلم الله حالة القسر التي نعيشها، وسيغفر لنا الله إذا تَقاسمْنا معه وقتاً يجب أن نكرسه كله له. أنا لم أقرأ

مذكّرتكِ، لكن ليس صعباً التكهُن بما تحتويه. سأتلقى في القريب رداً عليها. لكن، في حال منحك هذا الردُّ الإذنَ بالمضيّ في إبطال نذوركِ، ألا ترين أنك ستحتاجين بالضرورة إلى التشاور مع رجال قانون؟!

– صحيح.

– وأنك ستحتاجين إلى حرية في العمل؟

– صحيح.

– وأنك إذا أحسنتِ التصرف سوف تستفيدين من الإجراءات الجارية للحصول على بعض منها؟

– فكرتُ بهذا.

– ستفعلين ذلك إذن؟

– سأرى.

– هناك شيء آخر: إذا بوشر بالعمل في قضيتك، سوف تبقين هنا عرضةً لكل غضب الراهبات. هل تحسّبتِ لأعمال الاضطهاد التي تنتظرك؟

– لن تكون أفظع من تلك التي عانيتُها.

– كيف لي أن أعلم.

– اعذريني. إنهن أولاً لن يجرؤوا على حجز حريتي.

– ولماذا؟

– لأنني سأكون عندئذٍ تحت حماية القانون: سيكون عليّ أن أمْثُل إذا استُدعيت. سأكون، إذا جاز التعبير، بين العالَم والدير: سأتكلم وأشتكي بحرية. سأشهد عنكن جميعاً، لن يُقْدمن على أفعال يمكنني تقديم شكوى عليها. سيُحجِمن عن إثارة فضيحة. سأرضى شاكرةً بأن يسئن معامَلتي، لكنهن لن يفعلن: كوني واثقة بأنهن سيسلكن سلوكاً مناقضاً تماماً، وسوف يعمدن إلى إغرائي ويحذّرنني من الضرر الذي سأوقعه بنفسي وبالدار. وتوقّعي ألاّ يصلن إلى التهديد إلاّ بعدما سيتبيّن لهن عدم جدوى أسلوب اللطف والإغراء، وأنهن سيتجنّبن اللجوء إلى وسائل العنف.

– ولكنه شيء لا يُصدّق أن تشعري بكل هذا البغض لحالةٍ تؤدّين واجباتها بكل هذه السهولة والدقة.

– أشعر بهذا البُغض هنا. جئت به حين ولدت، ولن يفارقني. سينتهي بي الأمر لأن أصبح راهبة سيئة، ويجب تدارك هذه اللحظة.

– ولكن، إذا هُزمتِ نتيجة ظرفٍ سيئ ما؟

– إذا هزمتُ سأطلب نقلي إلى دير آخر، أو أموت في هذا الدير.

– يتألم الإنسان طويلاً قبل أن يموت. آه يا صديقتي، مسعاكِ يجعلني أرتعد من الخوف. أخاف من إبطال نذورك، وأخاف من عدمِ إبطالها. وإذا أُبطِلَتْ، ماذا سيحل بك؟ ماذا ستعملين في هذا العالم؟ لديك الوجه الحسن والعقل الراجح والمواهب؛ ولكنّ هذا كله يقال بأنه لا يوصل إلى شيء مع فضيلة العفاف، وأعرف أنك لن تتنازلي عن هذه الميزة الأخيرة.

– لقد أوفيتِني حقي، لكنك لم توفِ الفضيلةَ حقّها، لأنني أتّكل عليها وحدَها، وهي كلما نَدُرت أكثر بين البشر وجب أخذُها بالاعتبار أكثر.

– الناس يُكبِرونها لكنهم لا يفعلون شيئاً من أجلها.

– هي التي تشجعني وتسندني في مسعاي. ومهما وجّه لي الآخرون اللوم سوف يكنّون لي الاحترام. وعلى الأقل لن يقال عني كما يقال عن معظم الأخريات، بأن أهواء منْحَلّة هي التي تدفعني للخروج من الرهبنة. لا أرى أحداً ولا أعرف أحداً. أطلب أن أكون حرة، لأن تضحيتي بحريتي لم تكن بإرادتي. هل قرأتِ مذكرتي؟

– لا. فتحتُ المغلف الذي أعطيتني إياه لأنه كان بلا عنوان وظننت بأنه يخصّني. لكن السطور الأولى أظهرت لي خطأ ظني، فلم أمض في القراءة أبعد. كم كنتِ ملهَمةً بتسليمه لي! لو أنك تأخرتِ لحظة واحدة لعثرن عليه بحوزتك... ولكن هاهي ساعة نهايةِ محطتنا تقترب، دعينا نركع لتجدَنا مَن تَلينا في الوضعية التي يجب أن نكون عليها. توجّهي إلى الله بالصلاة لكي ينير قلبك ويرشدك، وسوف أضم إليها صلاتي وتنهداتي.

ارتاحتْ روحي قليلاً. كانت رفيقتي تصلي مستقيمة الجسم، بينما انحنيتُ أنا ساجدةً

حتى استند جبيني إلى آخر درجات المذبح، وامتدت ذراعاي إلى الدرجات الأعلى. لا أظن بأنني توجهتُ إلى الله قط بقدرٍ أكبر من العزاء والورع. كان قلبي يدق بعنف، وخلال لحظةٍ نسيت كل ما يحيط بي. لا أدري كم من الوقت بقيت على هذه الحال، ولا كم كنتً سأبقى، لكنْ صدِّقْني بأنني كنتُ مَشهَداً مؤثِّراً لرفيقتي وللراهبتين اللتين ظهرتا بغتةً. عندما نهضتُ، ظننتُ بأنني وحدي، لكني كنت مخطئة؛ كن ثلاثتهن خلفي واقفات ويذرفن الدموع بغزارة: لم يجرؤن على مقاطعتي، ولبثن بانتظار خروجي من تلقاء نفسي من حالة الوجد الدافق التي يشاهدنني فيها. عندما استدرتُ نحوهن كان لوجهي حتماً طابع مهيب نظراً للأثر الذي أحدَثَه فيهن ولِما أضفْنَه بأنني بدوتُ عندئذٍ شبيهةً برئيسةِ ديرنا السابقة وهي تؤاسينا، وبأن منظري سبّب لهن الارتعاد نفسه. لو كان لدي أي نزوع إلى النفاق أو التعصب، وأردتُ لعب دور في الدير، لا أشك بأنني لن أوَفَّق. فما أسهل ما تتّقد روحي فتتحمّس وتتأثر. لقد قالت لي تلك الرئيسة الطيبة مئة مرة وهي تعانقني بأن أحداً لن يحب الله كما أحِبُّه، وبأن لي قلباً من لحم ودم، بينما قلوب الأخريات من حجر. من المؤكد أنني كنت أجد سهولةً قصوى في مشاركتها وجْدها، فكان يحدث أثناء الصلوات التي تتلوها بصوت مسموع، أنْ أَدخُل أحياناً على الخط متابعةً حبْلَ أفكارها، فيلتقي كلامي، كأنما بِوحْيٍ ما، مع جزءٍ مما تقوله هي نفسُها. كانت الأخريات يستمعن إليها بصمت أو يتابعنها، أمّا أنا فكنت أقاطعها، أو أسبقها، أو أتكلم معها. وكنت أحتفظ زمناً طويلاً جداً بالانطباع الذي كوّنته؛ ولا بدّ أنني، حسب الظاهر، كنت أُحدِث لديها بالمقابل شيئاً ما، لأنك إذا لمستَ لدى الأخريات بأنهن قد تَكلّمن معها، لمسْتَ لديها بأنها تكلّمتْ معي. ولكن ماذا يعني ذلك عندما لا يتوافر المَيْل؟

انتهت فترتُنا، تركنا المكان للراهبتين التاليتين، وتعانقنا أنا ورفيقتي الشابة بحنانٍ قبل أن نفترق.

كان للمشهد في المذبح صدى كبير في الدير؛ إضافةً إلى نجاح تسابيح يوم الجمعة الحزينة. فقد رتّلتُ، وعزفتُ على الأرغن، وصُفِّق لي. يا للراهبات المخبولات! لم أضطر لفعل شيء تقريباً لكي أتصالح مع مجمع الراهبات بأسره. حضرن جميعاً إليّ وأوّلهن رئيسة

الدير. سعى أشخاصٌ من خارج الدير للتعرف علي. كان ذلك أشدّ توافقاً مع مشروعي من أن أرفضه. رأيتُ السيد رئيس المحكمة، والسيدة دي سوبيز، وحشداً من أشراف، ورهبان، وقساوسة وعسكريين، وقضاة، نساء متدينات ونساء مجتمع؛ وبين أولئك كلهم، ذلك الصنف من فارغي الرؤوس ممن تسميهم «أصحاب الكعوب الحمراء»، الذين سرعان ما صرفتُهم. لم أتعاطَ إلاّ مع أشخاص لا يمكن أن أُلام عليهم؛ وتركتُ ما تبقّى لراهباتنا اللواتي لم يكنّ متَطلّبات إلى هذا الحد.

نسيت أن أقول لك بأن أول بادرة طيّبة أُظهرت لي هي إعادتي إلى حجرتي. تجرأتُ، وطلبتُ استعادة الصورة الصغيرة لرئيسة الدير السابقة، ولم يَجْرُؤْن على ردّ طلبي. عادت الصورة إلى مكانها فوق قلبي، وستبقى هناك ما حييت. أول حركة أقوم بها كل صباح، هي التوجّه إلى الله، ثم تقبيل الصورة. إذا أردتُ الصلاة وشعرتُ ببردٍ في روحي، أنزعها من عنقي لأضعها أمامي وأنظر إليها، فتلهمني. خسارة حقاً أننا لم نعرف القديسين أصحاب الصور المعروضة للإجلال. كانوا سيُحدثون فينا تأثيراً مختلفاً، وما كنا لنظلّ بالبرود الذي نقف به أمامهم أو نركع به عند أقدامهم.

جاءني الرد على مذكرتي. من شخص يدعى مانوري. لم يكن رداً إيجابياً ولا سلبياً، تُطلب فيه، قبل الحكم في هذه القضية، إيضاحاتٌ كثيرة يصعب تقديمها دون لقاء. لذا قدّمتُ نفسي بالاسم، ودعوتُ السيد مانوري للتوجه إلى لونشان. تنقُّلات هؤلاء السادة صعبة. لكنه جاء. أجرينا محادثات لوقت طويل جداً. اتفقنا على مراسلات تَنقلُ طلباته إليّ وردودي إليه على نحو آمِن. رحت من جانبي أستغل كل الوقت الذي أعطاه لقضيتي، لتهيئة النفوس، واستثارة الاهتمام بمصيري، وإيجاد حِمايات لنفسي. أفصحتُ عن السلوك الذي سلكتُه في أول دير أقمتُ فيه، وكشفتُ عن المعاناة التي لاقيتها في بيت الأسرة، وعن الآلام التي سُببت لي في الدير، وعن الاعتراض الذي قدمتُه في دير سانت ماري، وعن إقامتي في لونشان، وارتدائي ثوب الرهبنة، وعن نطقي بنذور الرهبنة، وعن القسوة التي عوملتُ بها منذ أن طعنتُ بنذوري. رثين لي وعرضن المساعدة. احتفظتُ بحسن النية الذي عبّرن عنه، لوقت الحاجة، دون تقديم مزيد من الإيضاحات. لم يرْشَح

شيء في الدير. كنتُ قد حصلتُ من روما على الإذن بالاعتراض على نذوري، وكانت القضية ستُثار في أقرب وقت، وغمرني نتيجة ذلك شعورٌ عميق بالأمان. أدَعُكَ تتخيل حجمَ مفاجأةِ رئيسة الدير عندما وصلها بأن اعتراضاً على النذور يجري العمل فيه باسمِ الراهبة ماري سوزان سيمونان، مع طلبٍ بخلع لباس الرهبنة عنها وإخراجها من الديرِ لكي تتصرف بمصيرها كما تراه مناسباً.

توقعتُ أن تعترضني أشكال عدة من العقبات، عقبة القوانين وعقبة الدير إضافة إلى عقبة صِهرَيّ وشقيقتيّ المستنفَرين من شدة القلق. لقد حصلوا على كل أملاك الأسرة، وإذا عدت حرةً ربما أستعيد مقادير كبيرة منها. كتبتُ إلى شقيقتيّ ورجوتُهما ألاّ تعترِضا على خروجي. ناشدتُهما أن تُحَكِّما ضميرهما بشأن فعلِ ترسيم افتقر إلى الحرية بهذا الشكل. عرضت عليهما وثيقة رسمية موقعة أتنازل فيها عن أي تطلُّع إلى المطالَبة بإرث أبي وأمي. لم أوفر شيئاً لإقناعهما بأنّ ما أقوم به هنا ليس بدافع مصلحة أو هوى. لم أحاول التأثير على عواطفهما. هذه الوثيقة الرسمية التي عرضتُها عليهما، والتي وقعتُها أثناء انخراطي في الرهبنة، فقدتْ صلاحيتها. وكان من المشكوك به إلى أقصى حد بالنسبة لهما أن أُصادق عليها عندما أستعيد حريتي. ثم هل كان يناسبهما القبول باقتراحاتي؟! وهل ستتركان شقيقة لهما بلا مأوى وبلا مورد؟ وهل ستنعمان بمالها؟ وماذا سيقول الناس؟ وإذا جاءت تطلب منا خبزاً، هل سنمنعه عنها؟ وإذا خطر لها الزواج، من يدري بأي نوع من الرجال ستقترن؟ وإذا أنجبت أطفالاً ؟... يجب أن نضع كل قوانا لمنع محاولة خطيرة كهذه... ذلك هو ما قالتاه لنفسيهما وما فعلتاه.

ماكادتْ رئيسة الدير تستلم الإحالة القانونية لطلبي، حتى هرعت إلى حجرتي.

– »كيف يا أخت سوزان ، قالت لي، هل تريدين تركَنا ؟

– نعم يا سيدتي.

– وتطلبين نقْضَ نذورك بالقضاء؟

– نعم يا سيدتي.

– ألم تكوني حرة عند تقديم النذور؟

– لا يا سيدتي.

– وما الذي أرغمك؟

– كل شيء.

– السيد والدك؟

– والدي.

– السيدة والدتك؟

– هي بالذات.

– ولماذا لم تعترضي في حفل الترسيم؟

– كنت ذاهلةً عن نفسي إلى درجة لا أذكر معها أنني شهِدتُه.

– هل تستطيعين قول هذا الكلام ؟

– إنني أقول الحقيقة.

– ماذا؟ ألم تسمعي الكاهن يسألك: أخت سانت سوزان سيمونان، هل تعِدين بطاعة الله وتنذرين نفسك للعفة والفقر؟

– لا أذكر ذلك.

– ألم تجيبي بـ نعم؟

– لا أذكر .

– وهل تتخيلين بأنهم سيصدقونك؟

– إنها الحقيقة سواء صدقوني أم لا.

– ابنتي العزيزة، تخيّلي المفاسد التي قد تنجم عن إنصات الناس إلى مثل هذه الذرائع! لقد أقدمت على خطوة عديمة التبصُّر، وانجرفتِ مع عاطفة الانتقام، تدفعكِ العقوبات التي أرغمتِني على إنزالها بك. ظننتِ أنها كافية لنقضِ نذورك. لقد أخطأتَ. هذا غير ممكن أمام البشر ولا أمام الله. تذكّري أن اليمين الزور هو أكبر الآثام جميعاً، ولقد اقترفتهِ في قلبكِ وأنت مُقدمةٌ على إتمامه.

– لن أكون آثمةً باليمين الزور. لم أتعهد بشيء.

– إذا كان لنا معك بعض الأخطاء، ألم يتم إصلاحها؟
– ليست تلك الأخطاء هي سبب تصرفي.
– ما السبب إذن؟
– ليس لدي الميل، ولم أكن حرة عند نطقي بالنذور.
– إذا لم يكن لديك الميل، إذا كنتِ مكرَهةً، لَم لم تقولي ذلك عندما كان الوقت مناسباً؟
– وبماذا كان سيفيدني؟
– لَم لم تُظهِري العزم نفسه الذي أظهرته في دير سانت ماري؟
– هل يتوقف العزم علينا؟ كنتُ عازمة في المرة الأولى، وفي الثانية كنت بلهاء.
– لماذا لم تتصلي برجل قانون؟ لماذا لم تحتجّي؟ كانت لديك الساعات الأربع والعشرون كي تتحققي من كرهك.
– هل كنتُ أعرف أياً من تلك الشكليات؟ ولمّا عرفتُها، هل كنتُ في حالٍ يؤهلني للُجوء إليها؟ وعندما كنت في حال يؤهلني للجوء إليها، هل كنتُ سأتمكن من ذلك؟ ماذا يا سيدتي، ألم تلاحظي بنفسك الاستلاب الذي كنت فيه؟ إذا أخذتكِ كشاهد، هل ستُقسمين بأنني كنتُ سليمة الذهن؟
– سأقسم!
– إذاً يا سيدتي، أنتِ من ستحلفين زوراً، وليس أنا.
– يا ابنتي، ستثيرين فضيحة لا طائل منها. عودي إلى رشدك، أتوسل إليك من أجل مصلحتك، ومن أجل مصلحة الدير. هذا النوع من القضايا لا يسير دون نقاشات مشينة.
– لن يكون الذنب ذنبي.
– الناس خارج الدير أشرار، سوف يفترضون أسوأ الافتراضات التي في غيرِ صالحك فكراً وقلباً وأخلاقاً. سيظنون عنك...
– ليظنوا ما يريدون.
– كلّميني بقلب مفتوح. إذا كان هناك شيءٌ ما خفيّ يثير استياءك، فهناك علاج له.
– كنتُ، وأنا الآن، وسأبقى طوال حياتي مستاءة من وضعي.

– أيكون الشيطان المحدق بنا بلا انقطاع، والساعي إلى هلاكنا، قد أفاد من القدر الكبير من الحرية التي أُعطيت لك منذ وقت قليل، لكي يوحي لك بنزعةٍ مشؤومة؟

– لا يا سيدتي، تعلمين بأنني لا أحلف يميناً بلا مشقة: يشهد الله بأن قلبي بريء ولم يحمل عاطفة شائنة قط.

– هذا شيء صعب الإدراك.

– ليس هناك شيء أسهل إدراكاً. لكل إنسان طبعُه ولي طبعي. أنت تحبين حياة الدير وأنا أكرهها. أنت أنعم الله عليك بالصفات التي تؤهلك للرهبنة، وهي صفات أفتقر إليها كلها. أنت ستضيعين في الحياة الدنيا، وهنا تَضمَنين خَلاصَكِ، بينما سأضيع أنا هنا، وآمُل النجاة في العالم. لستُ راهبة جيدة ولن أكون.

– ولماذا؟ لا أحد يؤدي ما عليه أفضل منك.

– ولكنني أؤديه بمشقة وعلى مضض.

– تستحقين المزيد.

– لا أحد يعرف أفضل مني ما الذي أستحقه. وأَجدُني مضطرة للاعتراف لنفسي بأنني لا أستحق شيئاً مما أتعرضِ له في الوقت الذي أرضخ فيه لكل شيء. سئمتُ من كوني منافِقة. إنني أمقُت نفسي، وأُخضِعها للعقاب أثناء قيامي بما يؤدي إلى خلاصِ غيري. باختصار يا سيدتي، إنني لا أعرف راهبات حقيقيات سوى مَن دخلن إلى هنا بدافع رغبتهن باعتزال العالم، ومَن سيبقين هنا عندما لا يبقى حولهن قضبان أو أسوار تقف دونهن. وتنقصني أشياء كثيرة لكي أكون من ضمن هؤلاء. جسدي هنا لكن ليس قلبي؛ إنه في الخارج. وإذا توجّبَ الخيار بين الموت والاحتجاز المؤبد في دير، لن أتردد في اختيار الموت. تلك هي مشاعري.

– ماذا! ستخلعين هذا الحجاب وهذه الملابس التي كرّستكِ ليسوع المسيح، بلا ندم؟

– نعم سيدتي، لأني ارتديتُها بلا تفكير وتحت الإكراه..».

لقد أجبتُها باعتدال حقاً، لأن هذا الجواب ليس ما كان قلبي يقوله. كان يقول لي: «أتوق إلى اللحظة التي أمزّقها فيها، وألقي بها بعيداً...!»

لكن جوابي قد أرعبَها مع ذلك. شَحُب لونها، وأرادت الكلام لكن شفتيها كانتا ترتجفان، ولم تعرف ماذا يجب أن تقول لي أيضاً. رحتُ أتمشّى بخطاً واسعة في حجرتي وهي تصرخ:

«آهٍ يا إلهي! ما الذي ستقوله أخواتنا؟ آهٍ يا يسوع، أشفِقْ عليها بنظرة! أخت سانت سوزان!

– سيدتي.

– إنه إذن قرار لا رجعة عنه؟ تريدين إلحاق العار بنا، تريدين أن تجعلي منا ومن نفسِك سخريةً في أفواه العامة، تريدين الهلاك!

– أريد الخروج من هنا.

– ولكن، ماذا لو كان الدير فقط هو الذي لا يروق لك...

– إنه الدير، إنها الرهبنة، إنه التّديُّن. لا أريد أن أُحتجز لا في هذا الدير، ولا في غيره.

– ابنتي، الشيطان يتلبّسك؛ وهو الذي يحرِّضك، ويُنْطِقك، ويثير هياجك. هذه هي الحقيقة بعينها: انظري في أي حال أنت!»

بالفعل، نظرت إلى نفسي فرأيتُ ثوبي في فوضى، وإسكيمي[1] قد انزاح حتى أصبح وجهه إلى الخلف تقريباً، ووشاحي قد سقط فوق كتفي. وكنت قد سئمت من كلام تلك الرئيسة الشريرة التي لم تكن طريقةُ تَعاملها معي سوى الطريقة الملطّفةً والزائفة. قلت لها بغيظ:

«لا يا سيدتي، لا، ما عدتُ أريد هذا الثوب، ما عدتُ أريده..».

أردت مع ذلك إعادة ترتيب إسكيمي ويداي ترتجفان إلى درجةِ أنني كلما حاولتُ تصحيح وضعه، فأسأت إليه أكثر، ومن شدة نفاد صبري، أمسكت به وانتزعتُه بعنف، وألقيت به على الأرض، وبقيتُ أمام رئيستي بجبين معصوب، ورأس مشعث الشعر. كانت في تلك الأثناء تنتقل جيئةً وذهاباً، غيرَ متأكدةِ مما إذا كان عليها البقاء أو الخروج، وهي تقول:

1- الإسكيم هو قطعة قماش تغطي الرأس وتحيط بالوجه وأعلى الصدر عند الراهبات.

«يا يسوع! إنها ممسوسة؛ هذه هي الحقيقة بعينها، ممسوسة..».

وراحت المُنافقةُ ترسم إشارة الصليب على صدرها بصليبِ سُبْحتها الصغير.

لم ألبث أن تمالكتُ نفسي، وشعرتُ بالحال غير اللائقة التي أنا فيها، وتَهوُّرِ الكلام الذي قلته. أصلحتُ من حالي قدر المستطاع، والتقطتُ إسكيمي، ووضعته فوق رأسي، ثم قلت لها وأنا ألتفتُ نحوها:

«سيدتي، لستُ مجنونة ولا ممسوسة. أشعر بالخجل من العنف الذي بدر مني، وأسألك أن تسامحيني عليه. ولكن، لِتَحْكُمي من خلال ذلك إلى أي حد لا تناسبني الرهبنة، وكم هو صحيحٌ سعيي للخروج منها إذا استطعت».

كانت تردد دون أن تستمع إلي: «ما الذي سيقوله الناس؟ ما الذي ستقوله أخواتنا؟

– سيدتي، قلتُ لها، هل تريدين تفادي فضيحة؟ هناك وسيلة. إنني لا أسعى وراء جهازي، ولا أطلب سوى الحرية: لا أقول لك افتحي لي الأبواب، بل اتركيها، اليوم وغداً وبعد غد فقط، دون حراسة مشددة، وحاولي قدر استطاعتك ألاّ تنتبهي إلى فراري إلاّ في وقت متأخر...

– أيتها الشقية! ما هذا الذي تجروئين على اقتراحه عليّ؟

– إنه نصيحةٌ يجدر برئيسة ديرٍ جيدة وحكيمة اتّباعَها مع كلِّ مَن يَعتَبرن الديرَ سجناً. والدير بالنسبة إليّ أبشع ألف مرةٍ من السجون التي تضم الجُناة. يجب أن أخرج منه، أو أهلك فيه. سيدتي، قلت لها بنبرة صارمة ونظرة واثقة، اسمعيني: إذا خيّبَت القوانينُ التي لجأتُ إليها أملي، ودفعني يأسٌ بِتُّ أعرفه كثيراً... فلديكنّ بئر... وتوجد نوافذ في الدير... وجدران في كل مكان... وثوب يمكن تقطيعه... ويدان يمكن استخدامهما...

– توقفي أيتها الشقية! إنك تجعلينني أرتعد. ماذا! أيمكن أن...

– وإذا انعدمَتْ كافةُ الوسائل التي تُنهي آلام الحياة إنهاءً فجائياً، أستطيع رفض الطعام. الإنسان حر في أن يشرب ويأكل، أو لا يشرب ولا يأكل ... وبعد ما قلتُه لكِ للتو، فربما أجد في نفسي الشجاعة، وأنت تعلمين بأنني لا أفتقر إليها، وبأن حاجتنا إليها للحياة أكبر أحياناً من حاجتنا إليها للموت؛ احتكمِي إلى الله وقولي لي من التي ستبدو له مذنبة أكثر،

هل هي رئيسة الدير أم راهبتُها؟ سيدتي، لا أنتظر شيئاً من الدير، ولن أطالبه بشيء. جنّبيني اقترافَ إثم، وجنّبي نفسك تبكيت ضميرٍ طويل الأمد: دعينا نتفاهم وننسّق معاً ...

– أتفكرين بذلك حقاً أخت سانت سوزان؟ أن أخالف أوّلَ واجبٍ من واجباتي، أن أسهِّل الجريمة، وأشارك في انتهاك المحرّمات!

– إنني يا سيدتي، باحتقاري للثوب المقدس الذي أرتديه، أنا التي تقوم يومياً بالانتهاك الحقيقي للمحرمات. انزعيه عني، إنني غير جديرة به. واطلبي أن تُجلب لي أسمالُ أفقرِ فلاّحةٍ في القرية، ولتُترَك أبواب الدير مفتوحةً قليلاً أمامي.

– وإلى أين ستذهبين لكي تكوني أحسن حالاً؟

– لا أعرف إلى أين. ولكن حال الإنسان لا يكون سيئاً إلا حيث لا يريده اللهُ أن يكون! واللهُ لا يريدني هنا.

– أنت لا تملكين شيئاً.

– صحيح. لكن العوَز ليس أكثر ما أخشاه.

– إخشَيْ المشاكل التي يجرّها.

– الماضي يجيبني عن الآتي. لو استجبتُ للإثم، لكنتُ الآن حرة. أمّا إذا أردتُ الخروج من هذا الدير، فسيحدث ذلك برضاكِ، أو بقوة القانون. يمكنك الاختيار..».

طالت تلك المحادثة. وعندما أتذكرها أحمرُّ خجلاً من الأشياء غير اللائقة والمضحكة التي فعلتُها وقلتُها. لكن الأوان كان قد فات. كانت الرئيسة ما تزال تردد متعجبةً «ماذا سيقول الناس! ماذا ستقول أخواتنا!» عندما فرّقَنا جرسُ الصلاة. قالت لي وهي تغادرني:

«أخت سانت سوزان، اذهبي إلى الكنيسة، اسألي الله أن يلامس قلبك، ويعيد لك روحَ الرهبَنَة. عودي إلى ضميرك، وصَدِّقي ما سيقوله لك: محالٌ ألاّ يؤنِّبكِ. أُعفيكِ من الترتيل».

نزلنا معاً تقريباً. أنهينا الصلاة، وفي نهاية الصلاة، عندما كانت جميع الأخوات على وشك الافتراق، دقّت فوق كتاب صلواتها لتوقِفَهنّ. «أخواتي، قالت لهن، أدعوكنّ

للركوع أسفل المذبح، والتماسِ الرحمة من أجل راهبةٍ تَخلّى عنها الرب وفَقدتْ روحَ الدين والرغبةَ به، وهي على وشك المضي في فعلٍ تدنيسيٍّ في نظر الخالق وشائنٍ في نظر الناس».

يصعب أن أصف لكَ المفاجأة العامة؛ في لمح البصر، قامت كل منهن، دون حراك، بتصَفُّح وجوه رفيقاتها، محاولةً استكشاف المذنبة من خلال ارتباكها. ركعن جميعاً وصلّين بصمت. وبعد برهة طويلة بما فيه الكفاية، رتلَت الرئيسةُ بصوت خفيض نشيد إليّ أيها الخالق وأكمل الجميع ترتيل النشيد بصوت منخفض. ثم بعد فاصل صمتٍ آخر، طرقت الرئيسة فوق منضدتها، فخرجنا.

أدعُكَ تتخيل التهامس الذي علا بين الراهبات: «من تكون؟ من لا تكون؟ ماذا فعلت؟ وماذا تريد أن تفعل؟..». لم تدُم هذه الشكوك طويلاً، إذ بدأت تُسمَع أصداءُ الطلب الذي تقدّمتُ به، ورحت أتلقّى عدداً لا ينتهي من الزيارات: حمل لي بعضُها انتقاداتٍ، وبعضها الآخر نصائح. حصلتُ على تأييد البعض، ولوم البعض الآخر. ولم تكن لدي غير وسيلة واحدة أبرر بها سلوكي أمامهن جميعاً، هي إخبارهن عن سلوك أهلي. وتُدرك كم يجب أن أكون حذرةً في هذه النقطة. لم يكن هناك سوى بضع راهبات بقين مخلصات لي، إضافةً إلى السيد مانوري الذي تكفّل بقضيتي. عندما ينتابني الخوف من العقوبات التي أُهدّد بها، تَمْثُل في مخيلتي تلك الزنزانةُ التي أُخذتُ إليها مرةً، بكل هولها. كنت أعرف الخوف الذي تعاني منه الراهبات. نَقلتُ مخاوفي إلى السيد مانوري، فقال لي: «يستحيل تجنيبك كل أشكال العقاب. ستَلقين بعضاً منها؛ ولا بدّ أنك توقعت ذلك. يجب أن تتسلحي بالصبر، وتُقوّي نفسك بالأمل بانتهائها. بالنسبة لتلك الزنزانة، أعدكِ بأنك لن تعودي إليها ثانية أبداً؛ وهذا شأني». وبالفعل، بعد بضعة أيام، أَحضرَ إلى الرئيسة أمراً بأن تدعني أمْثُل كلما استُدْعيت.

في اليوم الثاني، بعد الصلاة، طُلبتُ أيضاً لإحياء الصلوات العامة: أقيمت الصلاة بصمت، ورُتِّل نشيدُ العشية نفسه بصوت خفيض. في اليوم الثالث تكرر الحفل نفسه مع فارق هو أنني أُمرت بأن ألبث واقفةً في منتصف المذبح، ورُتِّلت صلوات المحتضرين

وصلوات القديسين مع لازمةِ ارقدي بسلام. في اليوم الرابع جرى طقس مصطنع يعبّر حقاً عن غرابة شخصية رئيسة الدير. ففي نهاية الصلاة، جعلنَني أستلقي داخل تابوت وسط المذبح، ووضعن من حولي شموعاً مع إبريق ماء مبارك. غطينني بكفنٍ ورتلن ترتيلة الأموات، وبعد ذلك، قامت كل راهبة، عند خروجها، برشقي بالماء المبارك، قائلةً: ارقدي بسلام. يجب فهم لغة الأديرة من أجل إدراك نوع التهديد المتضمن في هذه الكلمات الأخيرة. قامت راهبتان برفع الكفن عني وإطفاء الشموع، وتركتاني هناك مبلولةً حتى جلدي بالماء الذي سقينني به بتلك الطريقة الماكرة. جفت ملابسي فوق جسدي، ولم يكن لدي ملابس بديلة. فعلُ الإماتة ذاك، تلاه آخَر. اجتمعت راهبات الدير ونظرن إلي كأنني ملعونة، واعتُبرت الخطوة التي أُقدِمُ عليها، نكراناً للدين؛ ومُنعتْ جميع الراهبات، تحت طائلة الاتهام بالعصيان، من التحدث معي، ونجدتي ومن الاقتراب مني، وحتى من لَمْس الأشياء التي أستعملُها. نُفّذت هذه الأوامر بحذافيرها. ممرات ديرنا ضيقة، وفي أماكن معينة منها يصعب على راهبتين المرور متواجِهَتين. فإذا كنتُ ذاهبةً، وكانت إحدى الراهبات مقْبِلة باتجاهي، كانت تعود أدراجها، أو تلتصق بالحائط ممسكةً بوشاحها وردائها، خوفاً من أن يحتكّا بِردائي. إذا كان هناك شيء يجب أن أسلمه إليهن، كنتُ أضعه على الأرض فيستلمنه مني بطرَف ملابسهن. ولو كان عليهن إعطائي شيئاً، كن يلقين به إلي. ولو شاء سوء الحظ أن يلمسْنَني، يخيل لهن بأنهن تلوّثن، فيذهبن للاعتراف وطلبِ المغفرة لدى رئيسة الدير. قيل بأن التملق شيء منْحَطٌّ ودنيء، إنه أيضاً قاسٍ وحاذق عندما يرمي لِنَيْل الإعجاب عن طريق ممارسات الإذلال التي يبتدعها. كم من مرة تذكرتُ ما قالته لي رئيسة الدير السماوية دي موني « اعلمي يا طفلتي أنه، من بين كل هذه المخلوقات التي تشاهدينها من حولي، المخلوقات الوادعات والبريئات والناعمات إلى هذا الحد، لا توجد واحدة منهن، لا، ولا واحدة تقريباً، إلاّ وأستطيع أن أجعل منها وحشاً ضارياً. وهو تحوّل غريب يكبر الاستعداد له بقدر صِغر سن الدخول إلى الدير، وبقدر قلة معرفة الحياة الاجتماعية. هذا الكلام يدهشكِ؛ جَنّبَك الله اختبارِ حقيقته. أخت سانت سوزان، الراهبة الصالحة هي تلك التي تجلب إلى الدير خطيئةً كبرى يجب التكفير عنها».

حُرمتُ من كل الأعمال. وفي الكنيسة كان يُترَك مقعد فارغ يحيط من كل الجهات بالمقعد الذي أشغله، وأُتْرَك وحدي إلى مائدةٍ في قاعة الطعام، ولا يُحمل الطعام إليّ، فأضطر للذهاب إلى المطبخ كي أطلب حصتي. في المرة الأولى صرخت الراهبة الطباخة في وجهي: «لا تدخلي، ابتعدي..».

أطعتُ.

«ماذا تريدين؟

– أن آكل.

– أن تأكلي! لستِ جديرة بالعيش..». كنتُ أحياناً أستدير عائدةً، وأمضي النهار دون تناول شيء، وأحياناً أُلحُّ، فيضعن لي عند العتبة أطعمة يخجل المرؤ من تقديمها للحيوانات؛ كنت ألتقطها باكيةً وأمضي. وأحياناً عندما أكون آخرَ الواصلين إلى باب الخورس، أجده مغلقاً، فأركع عنده، وأنتظر هناك نهاية الصلاة. وإذا كان ذلك في الحديقة أعود إلى حجرتي. لكن قواي راحت تضعف بسبب قلة الغذاء الذي أتناوله وسوء نوعيته، وفوقها أيضاً بسبب الألم الذي أشعر به من تحمُّل كل علامات الوحشيّة المتكررة تلك. شعرت أنني إذا بقيتُ أتألم دون شكوى، لن أشهد نهايةَ قضيتي مطلقاً. لذا عزمتُ أن أكلم رئيسة الدير. كنتُ نصف ميتة من الخوف: ذهبت مع ذلك، وطرقت بابها بلطف. فتحت، وعندما رأتني تراجعتْ عدة خطوات إلى الوراء وهي تصرخ قائلة لي: «أيتها المارقة، ابتعدي»!

ابتعدتُ.

«ابتعدي أكثر».

ابتعدتُ أكثر.

«ماذا تريدين؟

–بما أنه لم يُحكَم عليّ بالموت لا من الله ولا من البشر، أريد يا سيدتي أن تأمري بِجَعْلي أعيش.

– تعيشين! قالت لي مكررةً كلام الراهبة الطبّاخة، وهل تستحقين العيش؟

– الله وحده يعلم. لكنني أنبّهك إلى أنني سوف أضطر، إذا مُنع عني الطعام، أن أشكو الأمر إلى مَن قبِلوا بوضعي تحت حمايتهم. فلستُ هنا إلا وديعة قضائية إلى أن يُبتّ في أمري.

– اذهبي، قالت لي، لا تلوِّثيني بنظراتك؛ سأعالج ذلك..».

ذهبتُ وأغلقتْ بابها بعنف. أصدرتْ على ما يبدو أوامرها، لكنني لم ألقَ عنايةً أفضل بكثير؛ رحن يتباهين بمخالفة أوامرها، فيلقين إليّ بأردأ الأطعمة، بل ويُفسدنها بالرماد ومختلف أنواع النفايات.

هذا ما عشتُه طيلة فترة دعواي. لم أُمنع تماماً من الذهاب إلى ردهة الاستقبال؛ فلم يكن بمقدورهن أن ينتزعن مني حرية التحادُث مع قُضاتي أو مع المحامي. لقد اضطر هذا مرات عديدة لاستعمال التهديد لكي يحصل على إذن برؤيتي، فتُرافقني عندئذ إحدى الأخوات. فإذا تكلمتُ بصوت منخفض تشتكي، وإذا أطلتُ البقاء تتململ نافدة الصبر. تكذِّبني وتناقضني، وتنقل للرئيسة ما قلتُه، فتشوِّهه وتسمِّمه، بل وتنقل عني ما لم أقله. ما أدراني؟ لقد وصل الأمر إلى درجة سرقتي وتجريدي من كل ما لدي. كَراسيّ وأغطيتي وفرُشي. لم تعد تُقَدّم لي بياضات. كانت ملابسي تتمزق، وأصبحتُ تقريباً من دون جوارب ودون حذاء. كنت أجد عناء في الحصول على الماء، واضطررت عدة مرات أن أذهب بنفسي لجلب الماء من البئر، ذلك البئر الذي كلمتُكَ عنه. حطّمن الأوعية الخاصة باستعمالي اليومي، فكنت أقتصر على ما أستقيه من ماء البئر، ولا أستطيع حمل شيء منه معي. إذا مررتُ أسفل بعض النوافذ، اضطررت للفرار من تحتها وإلاّ تعرضتُ لرمي قاذورات الحجرات فوقي. بصقتْ بعض الراهبات في وجهي. اتّسختُ إلى حد بشع. ومُنعتُ من الاعتراف خوفاً من شكاوى قد أرفعها لمرشدينا.

في أحد أيام الأعياد الكبرى، وكان على ما أعتقد عيد الصعود، سَدَدْن قفل بابي فلم أستطع حضور القداس. وربما كان سيفوتني حضور جميع الصلوات الأخرى لولا زيارة السيد مانوري الذي قلن له أول الأمر بأنهن لا يعرفن شيئاً عني، وأنهن ما عدن يرينني، وأنني لم أعد أمارس أياً من طقوس العبادات المسيحية. إلا أنني من شدة غضبي كسرتُ

القفل واتجهت إلى باب المَصلى الذي وجدتُه مغلقاً مثلما يحدث عندما لا أكون من أوائل الواصلات. استلقيت على الأرض، أسندت رأسي وظهري إلى أحد الجدران، وصالبتُ ذراعيّ فوق صدري، وكان باقي جسمي الممدّد يَسدُّ المدخل. عندما انتهت الصلاة، وتقدمت الراهبات لكي يخرجن، توقفت الأولى بلا زيادة؛ تلتها الأخريات. فصاحتْ رئيسة الدير ما الأمر وقالت:

«سِرْن فوقها، ليست أكثر من جثة».

بعضهن أطعن ودسْنني، وبعضهن الآخر كن أقل وحشية، لكن أياً منهن لم تجرؤ على مد يدها إليّ لتُنهضني. في أثناء غيابي، أخذن من حجرتي مركَعي وصورةَ مؤسِّسة رهبَنَتنا وصور القديسين الآخرين وتمثالَ المسيح المصلوب. ولم يبق لي سوى الصليب الذي أحمله في طرف سُبحتي، والذي لم يتركنه لي طويلاً. بتُّ أعيش بين أربعة جدران عارية، في غرفة بلا باب ولا كرسي، إما أن أقف أو أجلس فوق فراش من قش، وبلا أيّ وعاء من الأوعية ذات الضرورة القصوى، فأُضطر للخروج ليلاً لتلبية حاجاتي الطبيعية، وفي الصباح أُتّهم بأنني أُقلِق راحةَ الدير وأهيم على وجهي وأُجَنّ. ونظراً لأنه لم يعد ممكناً إغلاق حجرتي، كنّ يدخلن إليها ليلاً بصخب، فيصرخن ويَسْحَبْنَ سريري ويكسرن نوافذي، ويمارسن عليّ كل أشكال الإرهاب. كان الضجيج يصل صعوداً إلى الطابق الأعلى ونزولاً إلى الطابق الأسفل. كانت الراهبات غير المتآمرات يقُلن بأن أشياء غريبة كانت تحدث في حجرتي، وبأنهن يسمعن أصواتاً مغمِّة وصراخاً وصليل سلاسل، وبأنني أتحادث مع الأشباح والأرواح الشريرة، وبأنني متحالفة حتماً، وأنه يجب باستمرار مغادرة المَمرّ الذي أنا فيه.

في مجمّعات الرهبنة توجد راهبات ضعيفات التفكير، بل إنّهن يشكلن العدد الأكبر: كُنّ يصدّقن ما يقال لهن عني، ولا يجرؤن على المرور أمام بابي، وبمخيّلتهن المشوشة كنّ يَرينني بهيئة مفزعة، ويرسمن إشارة الصليب إذا صادفنني، ويهربن صارخات: «اغرب عني أيها الشيطان! نَجّني يارب!..». ظهرت واحدةٌ من أصغرهن سناً في آخر الممر. كنتُ أمشي باتجاهها، ولم يكن أمامها إمكانية لتتجنبني، فأصابها خوف رهيب. في بداية

الأمر أدارت رأسها نحو الحائط مهمهِمةً بصوت مرتجف: «يا إلهي! يا إلهي! يا يسوع! يا مريم!..». كنت في تلك الأثناء أتقدم، وعندما شعرتْ بي بقربها، غطّتْ وجهها بيديها الاثنتين خوفاً من أن تراني، واندفعتْ باتجاهي وألقت بنفسها بعنف في حضني، وصرخت: «إليّ! إليّ! الرحمة! إني هالكة! أخت سانت سوزان لا تؤذِني؛ أخت سانت سوزان، ارحميني..». وخرّت على الأرض، وهي تقول هذه الكلمات، شبه مَيتة.

هرعت الراهبات على صراخها، وحملْنها. لا يسعني أن أقول لكَ كيف تم تشويه هذه الحادثة. لقد جعلن منها حكاية من أشد حكايات الإجرام: قلن إن شيطان الدنس قد استحوذ عليّ، ونسبن إليّ أغراضاً وأفعالاً لا أجرؤ على تسميتها، ورغباتٍ شاذة أرجَعْن إليها الاضطراب الذي ظهر جليّاً على الراهبة الصغيرة. الحقيقة أنني أجهل، كوني لست رجلاً، ما يمكن تخيل حدوثه من امرأة مع امرأة أخرى، وأجهل أكثر ما يمكن تخيل حدوثه من امرأة بمفردها. وطالما أن سريري كان بلا ستائر، وأنهن كن يدخلن إلى حجرتي في أي وقت، فما الذي قد أقوله لك يا سيدي؟ لا بدّ أنه كان لهؤلاء النسوة قلوب فاسدة حقاً مع كل مَظْهَرِهنْ الوقور من الخارج، وتواضعِ نظراتهن، وعفةِ تعابيرهن. إنهن يعرفن على الأقل بأن الواحدة منهن ترتكب أفعالاً شائنةَ وهي بمفردها، وأنا لا أعرف ذلك؛ لذا لم أفهم بالضبط أبداً بماذا كُن يتَهمنني. وكن يعبّرن عن ذلك بكلمات بلغت من الغموض حدّاً لم أعرف معه قط بماذا أجيب!

لن أنتهي أبداً إذا شئتُ تتبُّع تفاصيل هذا الاضطهاد. سيدي، إذا كان لديك أطفال وسمحْتَ لهم أن يدخلوا في الرهبنة دون أن تتوفر فيهم علامات الاستعداد الطبيعي الأشدّ قوةً وحسماً، فلتعلم، من خلال مصيري، أيّ مصيرٍ تُعدُّه لهم. كم يوجد ظلم في العالم! إننا نترك لطفلٍ أن يقرر التخلِّي عن حريته في عمرٍ لا نترك له فيه أن يتصرف بِـ ريال. أن تقتل ابنتَكَ خيرٌ من أن تحبسها في ديرٍ رغماً عنها. نعم، تقتلها. كم من المرات تمنيتُ لو خنقتْني أمي وهي تلدني! كان هذا سيجعلها أقل قسوة. هل كنتَ لتصدّق بأنهن انتزعن مني كتاب صلواتي وحظّرن علي الصلاة إلى الله؟ ظنُّكَ في محلّه بأنني لم أُطِع. للأسف، كانت الصلاة هي عزائي الوحيد؛ كنت أرفع يدي نحو السماء، أصرخ، وأجرؤ

على الاعتقاد بأن صراخي سيُسمع من الكائن الوحيد الذي يرى تعاستي كلها. كان هناك راهبات ينصتن عند بابي. وذات يوم وبينما كنت مُضناة القلب أتجه إلى الله وأسأله العون، قالت لي بعضهن:

«إنك تدعين الله بلا طائل، بالنسبة إليك لم يعد هناك رب. فلْتموتي في يأسك، ولتُلعَني..». وأضافت أخريات: «آمين على المارقة! آمين عليها»!

إليكَ تفصيلاً سيبدو لك أغرب من كل التفاصيل الأخرى. ولا أدري إن كان فعلاً شريراً أم وهماً. فعلى الرغم من أنني لم أفعل ما يدل على كوني مختلة عقلياً، ناهيك عن كوني ممسوسة، تداولن فيما بينهن حول ما إذا كان يجب تعزيمي؛ وتوصّلن بإجماع الأصوات إلى أنني كفرتُ بالميرون[1] الذي مُسحتُ به وبالعماد الذي تعمّدتُه، وأن الشيطان يسكن جسدي ويُقصيني أثناء الصلوات، قالت أخرى بأنني أثناء بعض الصلوات في الكنيسة كنت أصرف بأسناني وأرتجف، وأنني كنت ألوي ذراعيّ عند رفع القربان المقدس، وقالت أخرى بأنني كنت أدوس المسيح بقدميّ وأنني لم أعد أحمل سبحتي (التي سُرقت مني)، وأنني أَسبُّ مسبّاتٍ لا أجرؤ على إعادتها لك. وأجمعن على أن شيئاً ما غيرَ طبيعيّ يجري بداخلي، وعلى ضرورة إعلام النائب الأول عنه. وهذا ما حصل.

هذا النائب الأول كان يدعى السيد هيبير، وهو رجل مسنّ وذو خبرة، فظّ لكنه مُنْصِف ومتنَوِّر. أخبرنه بتفاصيل الفوضى الواقعة في الدير. ومن المؤكد أنها كانت كبيرة، وأنني إذا كنتُ سببَها، فهو سبب بريء حقاً. لا شك أنك تتصور بأنهن، في المذكرة التي أرسلنها إليه، لم يُغفلن خروجي في الليل، وغيابي عن الخورس، والضوضاء التي كانت تحدث في حجرتي، وما رأتْهُ هذه وسمعَتْه تلك، ونفوري من الأشياء المقدسة، وتجديفي، والأفعال الفاحشة التي نُسبت إليّ. وصوّرن ما جرى للراهبة الشابة بكل ما استطعْنَهُ من سوء. كانت الاتهامات قوية ومتعددة إلى درجة لم يستطع معها السيد هيبير، مع كل رجاحة عقله، منْعَ نفسه من وضعها جزئياً في الاعتبار، ومن الاعتقاد بوجود جانب كبير من الصّحة فيها. لقد بدا له الأمر على درجة كافية من الأهمية للاستعلام بنفسه عن الموضوع. أعلن عن

1- زيت مقدس للمسوح في طقوس معينة في الكنائس الأورثوزوكسية والكاثوليكية.

زيارته. وبالفعل جاء وبصحبته قسيسان شابان جُعلا مرافقين شخصيين له، وكانا يخففان عنه في الوظائف الشاقة.

قبل ذلك بأيام قليلة، كنتُ قد سمعتُ في الليل أصواتاً تدل على وجود أحد يدخل حجرتي بهدوء. لم أقل شيئاً، وانتظرت أن يوجّه إليّ الكلام. نوديتُ بصوت منخفض ومرتجف:

«أخت سانت سوزان، هل أنت نائمة؟

– لا، لست نائمة. من أنت؟

– هذه أنا.

– من؟

– صديقتكِ الخائفة حتى الموت، والتي تُعرّض نفسها للهلاك لكي تقدمَ لك نصيحةً قد تكون بلا فائدة. اسمعي: غداً أو بعد غد، سيزورنا النائب الأكبر: سوف يوجه لك الاتهام. استعدّي للدفاع عن نفسك. وداعاً. كوني شجاعة، وليكن الرب معك».

قالت ذلك وانسحبت بخفةِ انسحابِ الظّل.

كما ترى، في كل مكان، حتى في أديرة الرهبنة، ثمة نفوس عطوفة لا شيء يُحَجِّرُها.

في تلك الأثناء كانت دعواي تُتابَع بحرارة. اهتم بمصيري حشدٌ من أشخاص لا أعرفهم من الجنسين ومن كافة النماذج ومختلف الشروط الاجتماعية، داعين للعمل لصالحي. كنتَ من هؤلاء، وربما كنتَ تعرف قصة دعواي أكثر مني. لأنني في النهاية لم أعد أستطيع التباحث مع السيد مانوري. فقد قيل له بأنني مريضة. شكّ بأنه يُخدَع. وخشي من احتمالِ أن أكون قد حُبستُ في الزنزانة. توجّه إلى الأبرشية حيث لم يتنازل أحد ويستمع إليه، بعد أن أُخطِرت الأبرشية بأنني مجنونة أو ربما بما هو أسوأ من الجنون. عاد باتجاه القضاة؛ ألحّ على تنفيذ الأمر الموجّه إلى رئيسة الدير بأن تسمح لي بالمثول، حيةً أو ميتة، عندما يتم إخطارها بذلك رسمياً. تحادث القضاة الزمنيّون بالأمر مع قضاة الكنيسة؛ شعر هؤلاء بالعواقب التي قد تترتب على هذا الحادث إذا لم يمضوا فيه قدماً؛ وهذا هو السبب الذي عجّلَ فيما يبدو، بزيارة النائب الأكبر. لأن هؤلاء السادة، سَئِموا من الإزعاجات

الأبدية القادمة من الأديرة، لا يتعجّلون عادةً التدخل في شؤونها: إنهم يعرفون بالتجربة أن سلطتهم يتم التملص منها والتقليل من شأنها دائماً.

استفدتُ من نصيحة صديقتي لكي أبتهل إلى الله أن يمدّني بالعون، ولكي أُهدّئ روعي، وأُهيّئ دفاعي. لم أطلب من السماء غير سعادةِ استجوابي والاستماع إليّ بلا تحيُّز. حصلتُ على ذلك، لكنك ستعلم بأي ثمن. إذا كان مهماً لي أن أبدو أمام القاضي الذي يحاكمني بريئةً وعاقلة، فإنه لم يكن أقلّ أهميةٍ لرئيستي أن أبدو شريرةً يتلبّسها الشيطان ومذنبة ومجنونة. لذا، وبينما زِدتُ من الخشوع والصلوات، زِدْن من الأذى: فما عدن يعطينني من الطعام سوى القدر الذي يمنعني من الموت جوعاً. أرهقنني بأفعال الإذلال الجسدي؛ وضاعفن ممارسات الترويع من حولي، وانتزعن مني راحة الليل انتزاعاً تاماً، ولجأن إلى كل ما من شأنه أن يوهن صحتي ويشوش ذهني. كان ذلك تَفَنُّناً في القسوة ليست لديك فكرة عنه. ولتحكُم على البقية من خلال هذا.

كنت يوماً خارجةً من حجرتي للذهاب إلى الكنيسة أو إلى مكان آخر، رأيتُ مشبك شعرٍ على الأرض في عرض الممر. انحنيت لألتقطه، وأضعه بحيث تستطيع تلك التي أضاعتْه العثور عليه بسهولة: منعني الضوء من أن أرى بأنه أحمر تقريباً. أمسكته، لكنني وأنا أفلتُه من يدي، اقتلعَ معه جلدَ باطنِ كفي كله. وفي الأماكن التي يفترض أن أمرّ منها، كنّ يضعن في الليل عوائق لقدميّ أو على علوّ رأسي. جُرحتُ مئات المرات، ولا أدري كيف لم أقتل نفسي. لم يكن لدي ما أضيء به طريقي، فأضطرّ للسير مرتجفةً ومادةً يديّ أمامي. كنّ ينثرن قطع زجاج مكسور تحت قدميّ. وكنت عازمةً على قول ذلك كله، ووفيت بوعدي تقريباً. كنت أجد باب المراحيض مغلقاً، فأضطر للنزول عدة طوابق والركض إلى آخر الحديقة عندما يكون بابها مفتوحاً؛ وعندما لا يكون.... آه يا سيدي! يا لتلك المخلوقات الشريرة، تلك النسوة المنعزلات الواثقات من أنهن يساعدن رئيستهنّ على الحقد، اللواتي يعتقدن بأنهن يخدمن الرب عندما يُدخلن القنوط إلى قلبك! آن أوان قدوم رئيس الشمامسة؛ آن أوان انتهاء دعواي.

هذه هي أفظع لحظة في حياتي: لأنني يا سيدي كنت أجهل تماماً بأية صورةٍ صوِّرتُ

لهذا القس، وأنه حضر وبه فضولٌ إلى رؤية فتاة يتلبسها الشيطان أو تتظاهر بذلك. لقد اعتقدن بأنْ لا سبيل لظهوري بهذا المظهر سوى إصابتي بذعر شديد. وإليك كيف تصرّفن لبثّه في نفسي.

في يوم زيارته، دخلت رئيسة الدير إلى حجرتي، منذ الصباح، وبصحبتها ثلاث راهبات. حملت إحداهن جرنَ ماءٍ مقدس، وحملت الأخرى تمثال المصلوب، والثالثة حبالاً. قالت لي الرئيسة بصوتٍ قويٍ ومهدِّد:

«انهضي... اركعي واطلبي من الرب المغفرةَ لروحك.

– سيدتي، قلت لها، قبل أن أطيع هل لي أن أسألك ماذا سيحل بي، وما الذي قررتِه بشأني وما الذي يجب أن أطلبه من الرب؟»

راح عرق بارد يتصبب فوق جسدي كله؛ كنت أرتجف، وشعرت بركبتيّ تنوءان بحملي. كنت أنظر بفزعٍ إلى مرافِقاتِها الثلاث القاتلات؛ كنّ واقفات على استقامة واحدة، بوجوهٍ قاتمة، وشفاهٍ مزمومة، وعيون مغمضة. كان الخوفُ قد فصَلَ كل كلمة من السؤال الذي سألتُه، على حدة. وبسبب الصمت الذي لَزِمْنَهُ، اعتقدتُ بأنهن لم يسمَعنني، فكررتُ الكلمات الأخيرة من ذلك السؤال نظراً لأنني لم أجد القوة لتكراره كله. لذا قلتُ بصوتٍ خفيض ومائل إلى الانطفاء:

«عن أي شيء يجب أن أطلب مغفرة الرب؟» كان الجواب:

«اطلبي مغفرته عن خطايا حياتك كلها؛ كلِّميه كما لو أنك في لحظة مثولك بين يديه».

عند سماعي لهذه الكلمات، اعتقدتُ بأنهن اجتمعن للتداول في أمري، وقررن التخلص مني. سمعتُ بأن هذا يُمارَس أحياناً في أديرةِ بعض الرهبان، فيحاكِمون ويحكُمون بالموت وينفّذون الحكم، ولم أتخيل قط بأن هذه المحاكمات غير الإنسانية تُمارَس في ديرٍ للنساء. لكن هناك أشياء أخرى كثيرة لم أتوقعها كانت تحدث فيه! مع فكرة الموت القريب هذه، أردتُ الصراخ، لكن فمي كان مفتوحاً ولا يخرج منه أي صوت. مددتُ ذراعيّ بابتهالٍ نحو الرئيسة فيما ترنّح جسدي الخائر نحو الخلف. سقطتُ، لكنّ سقْطَتي لم

تكن قاسية. في لحظات الرعدة التي تفارقك فيها القوة بالتدريج، تخور الأطراف رويداً رويداً، ويتهاوى بعضها فوق الآخر إذا جاز القول، ويبدو أن الجسد، حين يغدو عاجزاً عن سَنْدِ نفسه، ينْهَدّ بليونة. فقدتُ الوعي والإحساس. كنت فقط أسمع أصواتاً مشوشة وبعيدة تغمغم من حولي. إما أنهن كن يتكلمن، أو كانت أذناي تطنّان. ما عدت أميز سوى ذلك الطنين المستمر. لا أدري كم من الوقت بقيت على تلك الحال، لكن برودةً مباغِتة أخرجَتْني منها مسبّبةً لي اختلاجاً خفيفاً، ومنتزعةً مني تنهيدةً عميقة. كان البلل قد نفذ عبر ملابسي، والماء يسيل منها إلى الأرض. إنه ماء جرنٍ كبير سكب فوق جسدي. كنت مستلقية على جانبي، ممّددةً في هذا الماء، رأسي مستند إلى الجدار، وفمي نصف مفتوح، وعيناي شبه ميتتين ومغمضتين. حاولت فتحهما لكي أنظر؛ ولكن بدا لي أن هواء سميكاً كان يغلّفني فلم أكن ألمح من خلاله غير ملابس متطايرة أحاول التعلق بها ولا أستطيع. بذلت مجهوداً لكي أرفع الذراع التي لا أستند إليها، لكنني وجدتُها شديدة الثقل. تلاشى ضعفي الشديد رويداً رويداً. نهضتُ، وأسندتُ ظهري إلى الجدار. كانت يداي مغمورتين في الماء ورأسي يميل منحنياً فوق صدري. أطلقت أنيناً مبهماً متقطّعاً وشاقاً. كانت أولئك النسوة تنظرن إلي بقدرٍ من الحتميّة والصلابة، انتزَعَ مني الجرأة على مناشدتهن. قالت رئيسة الدير: «أوقفْنها على قدميها».

أمسكن بي من تحت إبطي وأنهضنني. أضافت:

«بما أنها لا تريد أن تستغفر الله، فقد استحقت مصيرها. تعرفن ماذا عليكن أن تفعلن. لتُنهين ذلك».

ظننتُ أن تلك الحبال التي جلبْنها كانت مخصصة لخَنْقي. نظرتُ إليهن، وامتلأت عيناي بالدموع. طلبتُ تمثال المصلوب لأقبّله، فرفضن طلبي. طلبتُ الحبال لأقبِّلها، فقدّمنها لي. انحنيتُ وأمسكت بكتفيّة[1] الرئيسة، قبّلتُها وقلت:

«أشفق عليّ يا إلهي! أشفق عليّ يا إلهي! وأنتن أيتها الأخوات العزيزات حاوِلن ألاّ تجعلنني أتعذّب».

وقدّمتُ رقبتي.

1- الكتفيّة رداء يضعه بعض الرهبان فوق الثوب، وتتكوّن من شريطين عريضين يتدليان فوق الصدر والظهر.

لن أستطيع إخبارَكَ عن الحال الذي صرت إليه، ولا عما فعلنه بي: من المؤكد أن أولئك الذين يُساقون إلى الموت، وكنت أظن نفسي منهم، يموتون قبل تنفيذ العقوبة فيهم. وجدتُ نفسي فوق فراش القش الذي كنت أستخدمه كسرير، بذراعين مقيدتين خلف ظهري، جالسةً وفوق ركبتيّ تمثال مسيح كبير من الحديد...

سيدي المركيز، أرى من هنا كل الألم الذي أُسبّبه لك، لكنك أردتَ أن تعرف إذا كنتُ أستحق، قليلاً، التعاطف الذي أنتظره منك...

شعرتُ آنذاك بتفوق الديانة المسيحية على جميع ديانات العالم؛ يا للحكمة العميقة الموجودة فيما تُسميه الفلسفةُ العمياء هوَسَ الصليب.

بماذا كانت ستفيدني، في الحال التي كنتُ فيها، صورةُ مُشَرّعٍ سعيد ومكلّلٍ بالمجد؟ كنت أرى البريءَ الذي خُرقَت خاصرته، وتُوِّج بإكليل من الشوك، ودُقّت المسامير في يديه وقدميه، يموت في الآلام؛ فقلت لنفسي: «ها هو إلهي يعاني هذه المعاناة، وأجرؤ أن أشتكي!..». تعلّقتُ بهذه الفكرة وشعرت بالعزاء يولَدُ مجدداً في قلبي. عرفتُ أباطيل الحياة، ووجدت نفسي سعيدة جداً لفقدانها قبل أن أجد الوقت لزيادة آثامي. رحت أعدّ سنيّ حياتي، فوجدت بأنني بالكاد في العشرين من عمري، وتنهدت. كنت أشدّ إنهاكاً ووهناً من أن تستطيع روحي التعالي فوق أهوال الموت. لو كنتُ في كامل صحتي، أظن بأنني كنت سأقدر على حزم أمري بشجاعة أكبر.

عادت رئيسة الدير ومرافقاتها. وجدْنني في حالة من حضور الذهن لم يتوقعنها ولم يَتَمنّينني فيها. أوقفنني على قدميّ، ربطن غطاء رأسي فوق وجهي. أمسكتْ بي اثنتان من تحت إبطيّ، وأخذت ثالثةٌ تدفعني من ظهري، والرئيسة تأمرني بالسير. رحت أتقدم دون أن أعرف إلى أين أذهب، ظانّةً بأنني أسير إلى الموت، وأقول: «إلهي، أشفق عليّ! ألهي، أعِنّي! إلهي، لا تتخلّ عني! إلهي، سامحني إذا أخطأتُ»!

وصلتُ إلى الكنيسة. كان النائب الأسقفي قد أقام القداس فيها، وكانت الراهبات مجتمعات هناك. نسيتُ أن أقول لك بأنّ الراهبات الثلاث اللواتي كنّ يقدْنني ويضغطن علي ويدفعنني بعنف، عند وصولي إلى الباب، بَدَوْنَ مضطربات منهمكات مِن حولي،

فهذه تسحبني من ذراعي وتلك تُبقيني محتَجَزةً من الخلف كما لو أنني أبديتُ مقاومة ورفضتُ دخول الكنيسة، مع أن شيئاً من ذلك لم يحدث. أخذنني إلى درجات المذبح: كنت أجد مشقة في البقاء واقفةً على قدمي، فجَرَرْنني فوق ركبتيّ كما لو أنني رفضتُ الركوع. كنّ يحتجزنني كأنني كنت أنوي الهرب. أُنشدت ترتيلةُ إليّ أيها الخالق؛ عُرض القربان المقدس، ومُنحَت البرَكة. في لحظة منح البركة التي ننحني فيها إجلالاً، قامت الراهبتان اللتان تمسكاني من ذراعيّ، بإحناء ظهري كما لو بالقوة، وشدت الأخريات يديّ فوق كتفيّ. كنت أشعر بمختلف تلك الحركات، لكن كان من المستحيل عليّ التكهن بالغاية منها. أخيراً اتّضح كل شيء.

بعد منح البركة، نزع النائب الأسقفي عنه حلة القداس، واكتفى بلبسِ كتُّونتهِ وبطرشيله، وتقدم نحو درجات المذبح حيث كنتُ جاثية على ركبتي. وقفَ بين القسيسَيْن وظهْرُهُ إلى المذبح الذي عُرض فيه القربان المقدس، ووجهُهُ إليّ. اقترب مني وقال:

«أخت سوزان، انهضي».

أنهضتني الراهبتان الممسكتان بي، بفظاظة. كانت الأخريات يحطن بي ويُبقينني ممسوكةً من وسطي، كما لو أنهن يخشين أن أهرب. أضاف:

«ليُفكّ وثاقها».

لم يُطِعن، تَظاهَرْن بأنهن يجِدْن ضيراً بل حتى خطراً في تَرْكي حرةً. كرر بصوتٍ حازم وقاسٍ:

«ليفكّ وثاقها».

أطَعْن.

ما كاد الوَثاق يُحَل عن يديّ حتى أطلقتُ أنةً أليمة وحادة جعلَتْه يشحب، وابتعدت الراهبات المنافقات القريبات مني كأنهن أصِبن بالفزع.

تمالك نفسه، وعادت الراهبات متظاهِراتٍ بالارتجاف. لبثتُ بلا حراك، فقال لي:

«ماذا بك؟»

لم أجب بشيء سوى أنني جعلتُه يرى ذراعيّ. كان الحبل الذي قيدن به ذراعيّ قد دخل

بشكل كامل تقريباً في لحمي، وترك آثاراً بنفسجية جداً بسبب انقطاع جريان الدم وشدة تجمُّعه في الأوردة. أدرك أن ألمي ناجم عن الألم المفاجئ الذي يحدث مع عودة جريان الدم المفاجئ. قال:

«ليُنزع الغطاء عن وجهها».

كنّ، دون أن أنتبه، قد خِطْنهُ في أماكنِ مختلفة منه، فأضفن أيضاً قدراً كبيراً من الارتباك والعنف إلى أمرٍ لا يتطلّب ذلك إلاّ لأنه أُعدّ لكي يجري على هذا النحو. كان يجب أن يراني ذلك القسيس مهووسة، أو يتلبّسني الشيطان أو مجنونة. ومن كثرة الشدِّ انقطع الخيط في بعض المواضع، وفي مواضع أخرى تمزق إمّا غطاءُ رأسي أو ثوبي، فانكشف وجهي.

لي وجه جذاب شوّهه الألم العميق، لكنه لم ينزع شيئاً من سماته. ولي نبرة صوتٍ مؤثّرة تُشعِرك بأنها نبرة الصدْق. كان لهذه المزايا مجتمعةً تأثير قوي في إثارة شفقة مساعدَي القسيس. أما بخصوصه هو، فقد كان يجهل هذه الأحاسيس؛ إنه عادلٌ لكنه قليل الإحساس. كان من أولئك الذين، مع الأسف، ولدوا لكي يمارسوا الفضيلة دون أن يشعروا بحلاوتها، ممن يفعلون الخير من منطلق تطبيق النظام، كما يحاكمون الأمور. تناول كُمّ بطرشيلِه ووضعه فوق رأسي وقال لي:

«أخت سوزان، هل تؤمنين بالإله الأب وبالإبن والروح القدس؟»

أجبتُ:

«أؤمن.

– هل تؤمنين بأمِّنا الكنيسة المقدسة؟

– أؤمن.

– هل تتخلّين عن الشيطان وألاعيبه؟»

بدلاً من أن أجيب، قمتُ بحركة مباغِتة إلى الأمام وأطلقتُ صرخة كبيرة، فانفصل طرفُ كمه عن رأسي. اضطرب هو وشحب وجهُ مساعدَيْه. فرّت بعض الراهبات، وغادر بعضهنِ الآخر المقاعد التي كنّ جالساتٍ فوقها، بصخب شديد. أشار طالباً عودة الهدوء، ونظر إليّ؛ كان يتوقع شيئاً خارقاً للعادة. طمْأنتُهُ قائلةً:

«سيدي، لم يكن أمراً عظيماً؛ لقد وخزتْني إحدى هؤلاء الراهبات وخزةً قوية بشيء حاد». وأضفتُ متّجهةً بعينيّ ويديّ إلى السماء، وساكبةً سيلاً من الدموع:

«لقد جرحْنني في اللحظة التي سألتَني فيها إذا كنتُ أتخلى عن الشيطان وأباطيله، وأرى جيداً لماذا..».

احتججن جميعاً من خلال رئيسة الدير، بأنهن لم يلمسنني.

أعاد المفوّض الكنسي وضْعَ طرف بطرشيله فوق رأسي؛ همّت الراهبات بالاقتراب، لكنه أشار لهن بالابتعاد، وكرر سؤاله لي إذا كنت أتخلى عن الشيطان وأباطيله. وأجبته بثبات:

«أتخلّى، أتخلى».

أشار بأن يؤتى إليه بتمثال المصلوب وقدمه لي لكي أقبّله. قبّلته من قدميه ويديه وجرح خاصرته.

أمرني أن أتعبّده بصوت مسموع. وضعتُه على الأرض، وقلتُ وأنا راكعة: «يا رب، يا مخلِّصي، يا من قضيتَ فوق الصليب من أجل خطاياي وخطايا الجنس البشري، أعبدك. اجعلني أستحق الآلام التي قاسيتَها. اجعل نقطةً من دمك المُراق، تسيل فوق جسدي وتطهّرني. سامحني يا رب مثلما أسامح أعدائي جميعاً..».

قال لي بعد ذلك:

«عبّري عن الإيمان..». ففعلت.

«عبّري عن الرجاء..». ففعلت.

عبّري عن الإحسان..». ففعلت.

لا أتذكر العبارات التي استخدمتُها في صلواتي، لكنني أعتقد بأنها كانت مؤثرة لأنها انتزعت نشيجاً من بضع راهبات، وأبْكت مساعدي الكاهن الشابين، وسألني المبعوث الكنسي المندهش، من أين استخرجت الصلوات التي رتّلتُها للتو.

قلتُ له: «من أعماق قلبي؛ إنها أفكاري وأحاسيسي، وأُشهِد الله الذي يسمعنا في كل مكان والحاضر في هذا المذبح. إنني مسيحية. إنني بريئة. وإذا كنت قد ارتكبت بعض

الخطايا فإن الله وحده يعرفها، ولا يحق لغيره أن يحاسبني ويعاقبني عليها..».

مع هذه الكلمات، وجّهَ نظرةً رهيبة نحو رئيسة الدير.

انتهت بقيةُ ذلك الحفل الذي كانت الجلالةُ الإلهية قد أُهينت فيه للتو، ودُنِّستْ فيه أقدسُ المقدّسات، وتعرّض فيه مندوبُ الكنيسة للسخرية. انسحبت الراهبات باستثناء رئيسة الدير وأنا ومساعدَي الكاهن. جلس المفوض الكنسي، أخرج المذكرة التي قدّمتْ إليه ضدي، وقرأها بصوت عالٍ مُسائلاً حول فقراتها.

«لماذا، قال لي، لا تذهبين للاعتراف؟

– لأنهن يمنعنني من ذلك.

– لماذا لا تقتربين لتناول القرابين؟

– لأنهن يمنعنني من ذلك.

لماذا لا تحضرين القداس ولا الصلوات الربانية؟

– لأنهن يمنعنني من ذلك.

أرادت رئيسة الدير الكلام، لكنه قال لها بحدة:

«سيدتي، الزمي الصمت... لماذا تخرجين ليلاً من حجرتك؟

– لأنهن حرمنني من الماء ومن وعاء الماء وكل الأوعية الضرورية لقضاء الحاجات الطبيعية.

– لماذا يُسمع ضجيج في مخدع نومك وفي حجرتك أثناء الليل؟

– هذا لأنهن يجتهدن في حرماني من الراحة».

أرادت رئيسة الدير أيضاً الكلام، فقال لها للمرة الثانية:

«سيدتي، لقد طلبت منك التزام الصمت. ستجيبين عندما أسألك... ماذا عن الراهبة التي انتُزعت من بين يديك، والتي عُثر عليها مطروحةً أرضاً في الممر؟

– هذا نتيجة الرعب الذي بُثّ في قلبها مني.

– هل هي صديقتك؟

– لا، يا سيدي.

– ألم تدخلي حجرتها أبداً؟

– أبداً.

– ألم تقومي أبداً بأي فعل فاحش، لها أو لغيرها؟

– أبداً.

– لماذا تم تقييدك؟

– لا أدري.

– لماذا لا يُقفل باب حجرتك؟

– لأنني حطمتُ القفل.

– ولماذا حطمته؟

– لكي أفتح الباب وأحضر صلاة يوم الصعود.

– كنتِ إذن في الكنيسة يومذاك؟

– نعم يا سيدي..».

قالت الرئيسة:

«سيدي، هذا غير صحيح. كل الراهبات...

قاطعتُها.

«سيؤكّدن بأن باب الخورس كان مغلقاً، وأنهن وجدْنني ساجدةً عند ذلك الباب، وأنكِ أمرتِهنّ بالسير فوقي، وبعضهن فعلْن. لكنني أسامحهن وأسامحك أنت يا سيدتي على توجيه ذلك الأمر. لم آتِ لكي أتّهِم، بل لأدافع عن نفسي.

– لماذا لا تملكين سُبحة ولا صليباً؟

– لأنهن أخذنها مني.

– أين كتاب صلواتك؟

– أخذنه مني.

– كيف تصلّين إذن؟

أتلو صلاتي من قلبي ومن فكري، رغم أني مُنعتُ من الصلاة.

– من الذي وجّه لك هذا المنع؟

– إنها سيدتي..».

همّت رئيسة الدير بالكلام أيضاً.

«سيدتي، قال لها، هل هذا صحيح أم غير صحيح أنك منعتِها من الصلاة؟ قولي نعم أم لا.

– ظننتُ، وكنتُ محقةً في الظن...

– لسنا في هذا الصدد. هل منعتِها من الصلاة، نعم، أم لا؟

– منعتُها، ولكن..». كانت ستكمل.

«ولكن، استأنف المفوّض الكنسي، ولكن... أخت سوزان، لماذا أنت حافية القدمين؟

– لأنهن لايزوِّدنني بجوارب ولا حذاء.

– لماذا بياضاتك وملابسك قديمة ووسخة بهذا الشكل؟

– لأنهن منذ ثلاثة شهور يرفضن إعطائي بياضات، فأضطر للنوم بملابسي.

– لماذا تنامين بملابسك؟

– لأنه ليس لدي ستائر ولا فراش ولا أغطية، ولا شراشف وملاءات ليلية.

– ولماذا ليس لديك؟

– لأنهن أخذنها مني.

– هل يطعمنك؟

– أطلب ذلك.

– لا يفعلن إذن؟

– صمتُ. وأضاف:

«شيء لا يصدق أن تعامَلي بهذه القسوة، دون أن تقترفي خطيئة تستحق ذلك.

– خطيئتي هي أنني لا أملك الاستعداد للرهبنة، وأنني رجعتُ عن نذوري التي نطقت بها مرغمةً.

– هذه مسألة يعود القرار فيها للقوانين. وأياً كان القرار الناجم عنها، فإن عليك بانتظار ذلك أداء كل واجبات الرهبنة.

– لا أحد، يا سيدي، أكثر دقة مني في أدائها.

– يجب أن تحصلي على ما تحصل عليه زميلاتُك.

– هذا كل ما أطلبه.

– ألا تريدين أن تشتكي من أحد؟

– لا يا سيدي، قلت لك ذلك؛ أنا لم آت لأتّهِم، بل لأدافع عن نفسي.

– اذهبي.

– سيدي، إلى أين أذهب؟

– إلى حجرتك».

خطوت بضع خطوات ثم رجعتُ وجثوتُ عند أقدام الرئيسة والمفوض الكنسي.

«حسناً، قال لي، ماذا هناك؟»

قلتُ له وأنا أريه رأسي الذي انتشرت الرضوض في عدة أماكن منه وقدميّ المدَماتين وذراعيّ المزرقّتين والشديدتي النحول وثوبي الوسخ والممزق: «هل ترى؟»

سيدي المركيز، كأنني بك أنت، ومعظم الذين سيقرأون هذه اليوميات، كأني بكم تقولون: «فظاعات بهذه الكثرة وهذا التنوع وهذا الاستمرار! سلسلة من الشناعات المدروسة بكل هذه العناية ترتكبها أرواحٌ نُذرت للرهبنة! هذا أمر لا يُصدّق» وأوافق على هذا الكلام، لكنني أُشهِد الله بأن ذلك صحيح، ولتحكم عليّ السماءُ بالجحيم الأبدي إذا سمحتُ لأدنى ظلٍّ من الافتراء أن يغشى سطراً من سطوري! ورغم أنني اختبرتُ طويلاً إلى أي حدّ يكون حقدُ رئيسةِ ديرٍ مولِّداً عنيفاً لنزعة الأذى الطبيعية، خصوصاً عندما تستطيع هذه النزعة أن تتباهى مغتبطةً بشرورها، لن يمنعني الشعور بالمرارة من أن أكون مُنْصِفةً. كلما فكرتُ بذلك أكثر، زاد اقتناعي بأن الأشياء التي تحدث لي لم تحدث بعد، وربما لن تحدث. لقد شاءت العناية الإلهية التي نجهل مسالكها، أن تؤلّب مرةً (جعَلَها الله الأولى والأخيرة!) على إنسانة منكودةٍ بمفردها، كتلةَ المصائب التي قسَمها الربُّ

في قوانينِه المستغلقة، على الجيش الذي لا ينتهي من المنكودات اللواتي سبقْنها واللواتي سيَعْقبْنها في الرهبنة. لقد عانيتُ، عانيت كثيراً. لكن مصيرَ جلاّداتي يبدو لي، وبدا لي دوماً، أدعى للشفقة من مصيري. إنني أفضّل الموت على التخلي عن دوري شريطةَ أخذِ دورِهنّ. آلامي ستنتهي بمساعيك الطيبة كما آمُل. أما ذكرى الجريمة وعارها وتبكيت الضمير الناجم عنها فستبقى لهنّ حتى الساعة الأخيرة. إنهن يشعرن بالذنب منذ الآن، ثِقْ بذلك؛ سيشعرن بالذنب طوال حياتهن؛ وسينزل الرعب معهن إلى القبر. يبقى يا سيدي المركيز أن وضعي الحالي يدعو للرثاء، والحياة عبء عليّ. أنا امرأة ضعيفة الفكر مثل بنات جنسي، وربما يتخلى الرب عني، ولا أشعر في نفسي لا بالقوة ولا بالشجاعة على تحمُّل ما تحمّلتُه طويلاً أيضاً. سيدي المركيز، حذارِ من عودةِ لحظةٍ تكون القاضية؛ فلن يُخرجني بكاؤك على مصيري، وتأنيبُ ضميرك، من الهاوية التي ربما أكون قد سقطتُ فيها، والتي قد تنغلق إلى الأبد على إنسانة يائسة.

«هيا»، قال لي رئيس الشمامسة.

مَدّ لي أحدُ مساعدَيه يده لأنهض. أضاف رئيس الشمامسة:

«استجوبتُكِ وسوف أستجوب رئيستك. لن أخرج من هنا إلاّ بعد عودة الأمور إلى نصابها».

انسحبتُ، ووجدتُ بقية الدير في حالة استنفار. كانت جميع الراهبات على أعتاب حجراتهن، يكلّم بعضهن بعضاً من طرف الممر إلى طرفه الآخر. انسحبن فور ظهوري، وصدر ضجيج مديد لأبوابٍ يُغلق بعضها بعنف إثر الآخر. دخلتُ حجرتي؛ جثوتُ مقابل الجدار ودعوتُ الله أن يراعي الاعتدال الذي تحدثتُ به إلى رئيس الشمامسة، فيجعله يدرك براءتي ويعرف الحقيقة.

كنتُ أصلي عندما ظهر في حجرتي رئيس الشمامسة ومرافقاه ورئيسة الدير. سبق أن قلتُ لك بأنه لا يوجد في حجرتي بساط ولا كرسي ولا مِركع ولا ستائر ولا فرش ولا أغطية ولا شراشف ولا أي وعاء ولا باب ممكن إغلاقه، وتقريباً لا زجاج كامل فوق نوافذي. نهضتُ واقفة، وتوقف رئيس الشمامسة بلا زيادة، وقال لرئيسة الدير وهو ينظر

إليها نظرة استنكار:

«حسناً يا سيدتي؟» فأجابت:

«كنت أجهل ذلك.

– تجهلين؟ إنك تكذبين! هل مضى يوم لم تدخلي فيه إلى هنا، وحين أتيتِ إليّ، ألم تنزلي من هنا ؟ تكلمي يا أخت سوزان، ألم تدخل إلى هنا اليوم؟

لم أجب بشيء، وهو لم يلحّ. لكن الراهبين الشابين كشفا بما يكفي من الوضوح عن ألمهما ومفاجأتهما عندما ارتخى ذراعاهما وأطرقا برأسيهما ناظرين إلى الأرض. خرج الجميع وسمعتُ رئيس الشمامسة يقول لرئيسة الدير في الممر:

«أنت غير جديرة بوظيفتك. إنك تستحقين الإقالة. سأشتكي إلى سيدنا. فليتم إصلاح كل هذه الفوضى قبل خروجي من هنا».

وأضاف وهو يتابع السير هازاً رأسه:

«هذا فظيع. مسيحيات! راهبات! كائنات بشرية! هذا فظيع».

منذ تلك اللحظة لم يحدث شيء؛ لكنني حصلتُ على بياضات، على ملابس أخرى، على ستائر وشراشف وأغطية وأوعية وكتاب صلواتي ومجموعة كتبي الدينية وسُبحتي وصليبي وزجاج نوافذي. أي كل ما يعيدني إلى الحالة المشتركة بين الراهبات. أُعيدت لي أيضاً حرية استقبال الزوار، ولكن لمتابعة شؤوني فقط..

لم تكن شؤوني تسير على يرام. نشر السيد مانوري مذكرةً أولى لم تترك أثراً عميقاً. لقد احتوت على أكثر مما يجب من الفكر وأقلّ مما يجب من المشاعر، وافتقرتْ تقريباً للأدلة. لا يجب تحميل المسؤولية كاملةً على المحامي الماهر. فأنا لم أشأ قطعاً أن يتعرّض لسمعة أهلي، وأردتُه أن يداري أوضاع الأديرة وخاصةً الدير الذي أنا فيه. لم أشأ أن يصوِّر صِهريّ وشقيقتيّ بأكثر مما يجب من الشناعة. ولا يوجد في صالحي سوى اعتراض أول أعلنتُه صراحةً وبشكل رسمي، ولكنْ في ديرٍ آخر، ولم أجدده منذ ذلك الوقت. عندما تضع لدفاعاتك حدوداً بهذا الضيق، وأنت تتعامل مع أطراف لا تضع أية حدودٍ في هجومها، أطراف تطأ الحق والباطل، فتَمثُل وتُنكِر بالصفاقة نفسها، ولا تخجل من

توجيه الاتهامات الباطلة أو الشبهات أو الاغتياب أو الافتراء، فمن الصعب عليك أن تنتصر، خصوصاً في محاكم لا يَسمَح فيها المللُ من الدعاوى والاعتيادُ عليها، بالتمَعُّن الدقيق في القضايا المهمة، ويُنظر فيها إلى القضايا التي من نوع قضيتي، نظرة مُعادية دوماً من قِبل رجل السياسة الذي يخشى أن يقوم عددٌ لا ينتهي من الراهبات بالخطوة نفسها، اعتماداً على نجاحِ راهبةٍ في الرجوع عن نذورها. ثَمةَ شعور خفي بأنهم إذا قبلوا بأن تتحطّم أبواب هذه السجون لصالح فتاة شقية، فسوف تندفع الحشود وتحاول اقتحامها. إنهم يجتهدون في تثبيط عزائمنا، وجعْلنا نسلّم بمصيرنا من خلال يأسنا من تغييره.

«ولكن يبدو لي أن الأمور يجب أن تكون معاكسة في دولة ذات قيادة جيدة؛ أن يكون دخول الرهبنة هو الصعبُ، والخروج منها سهلاً. لماذا لا تُضاف هذه الحالة إلى حالات أخرى كثيرة يؤدي فيها أيُّ نقص في الإجراءات إلى انهيار الدعوى ولو كانت عادلة؟ هل تُعتَبر الأديرةُ أساسيةً إلى هذا الحد لكيان الدولة ؟ هل كوّن يسوعُ المسيح رهباناً وراهبات؟ ألا تستطيع الكنيسة قطعاً الاستغناء عنهم؟ ما حاجة يسوع المسيح إلى هذا القدر من العذراوات المجنونات؟ وما حاجة الجنس البشري إلى كل هؤلاء الضحايا؟ ألا نشعر أبداً بضرورةِ تضييق فتحةِ هذه الهاوية التي ستَهلك فيها الأجيال القادمة؟ هل تساوي كلُّ الصلوات الروتينية التي تقام هنا أوبولاً[1] واحداً نعطيه لفقير بدافع الرحمة؟ هل يقبل الله بحبس الإنسان وقد خلقه كائناً اجتماعياً؟ هل يأذن الله بقبول نذور نطقها إنسان بلا تفكير، وهو الذي خلَقَهُ متقلّباً وهشّاً إلى هذا الحد؟ هل هناك مَن يتقيّد بهذه النذور التي تتنافر مع الميل العامّ للطبيعة، غيرُ بعض الأشخاص المشوهين من الداخل، ممّن ذَوَتْ فيهم بذرةُ المشاعر، وممّن يُصنّفون بحقٍّ، إذا استطعنا معرفة بُنْيةِ الإنسان الداخلية بالسهولة والإجادة اللتين نعرف بهما مظهرُهُ الخارجي، يُصنّفون بحقٍّ بين الوحوش؟ وهل تؤدي كلُّ هذه الطقوس التي تجلب الغمّ والمرتبطة بارتداء الثوب والنطق بالنذور عند تكريس رجل أو امرأة لحياةِ الرهبنة وللتعاسة، هل تؤدي إلى إيقاف النزوع الحيواني؟ على العكس، ألا يستيقظ خفيةً في ظل القسر والعطالة مصحوباً بعنفٍ لا يعرفه الناسُ خارج الأديرة،

1- الأوبول وحدة لعملة قديمة.

لأنهم لاهُون عنه بحشد من الأشياء؟ أين نرى رؤوساً تتلبّسها أرواح شريرة تُلاحقها، وتبث فيها الاضطراب؟ أين نرى ذاك الملل العميق وذاك الشحوب، وذاك النحول وكل أعراض السقم والوهن؟ أين تتنغص الليالي بالأنين، وتخضلُّ الأيام بدموع تُذرف بلا سبب وتسبقها كآبةٌ لا نعرف إلى أي شيء نعزوها؟ أين تثور ثائرة الإنسان الذي أُكرِه على شيء لم يُخلَق له، فيحطّم العوائق التي توضع أمامه، ويوقِع النظام الحيواني في فوضى لا علاج لها؟ أين يدمِّر الحزن والكآبة كل المزايا الاجتماعية؟ أين لا يوجد لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت ولا قريب ولا صديق؟ أين يتعامل الإنسانُ مع ألطف العلاقات في هذا العالم، تَعامُلَ المسافرِ مع الأشياء التي يصادفها، كَوْنَه لا يَعتبر نفسه إلاّ كائنَ اللحظة العابر؟ أين نجد الحقد والقرف وانحراف المزاج؟ أين نجد الاستعباد والطغيان؟ أين نجد الضغائن التي لا تنطفئ؟ أين نجد الأهواء الكامنة في صمت؟ أين نجد القسوة والفضول؟ إننا لا نعرف تاريخ مشافي المجانين هذه، قال السيد مانوري في مرافعته، لا نعرف. وأضاف في موضع آخر: «إنّ نَذْرَ الفقر هو التزامٌ بقَسم بأن يكون الإنسان كسولاً ولصاً؛ ونَذْر العفة هو معاهدة الله على الخرق المستمر لأكثر قوانينه حكمةً وأهمية؛ ونَذْر الطاعة هو تنازُل الإنسان عن حقه الذي لا يجوز التصرف فيه بالحرية. إن الالتزام بالنذور إجرام، وعدُم الالتزامَ بها حنثٌ باليمين. إن حياة الرهبنة هي إما حياةُ تزمُّت أو نفاق».

طلبتْ فتاةٌ من أبويها السماح لها بأن تكون راهبةً بيننا. قال لها أبوها بأنه موافق ولكنه يعطيها ثلاث سنين للتفكير بالأمر.

بدا هذا للشابة المليئة بالتقوى قاسياً ومع ذلك امتثلت للأمر. ولمّا لم تُكَذّب نزْعتُها، عادت إلى أبيها وقالت له بأن السنوات الثلاث انقضت. «حسناً يا طفلتي، أجابها، لقد منحتُك ثلاث سنين لأختبرك، أتمنى أن تمنحيني الوقت نفسه لكي أصل إلى قرار». بدا هذا أشد قسوة بكثير، وبكَتْ. لكن الأب كان رجلاً صارماً ثبتَ على موقفه. وفي نهاية تلك الأعوام الستة، دخلَت الدير، ونذرت نفسَها للرهبنة. كانت راهبةً صالحة بسيطة ورعة ودقيقةً في أداء واجباتها. لكن الذي حدث هو أن المرشدين استغلوا صراحتها لكي يتوصلوا أمام كرسي الاعتراف، إلى معرفة ما جرى في البيت. ارتابت رئيساتُنا

بما قالته فحبسْنها، وحرمْنها من ممارسة شعائر الدين. فطار صوابها. وكيف يبقى في رأسك صواب أمام اضطهاد خمسين شخصاً يكرسون وقتهم من أول النهار حتى آخره لتعذيبك؟ وقبل ذلك كان قد نُصِبَ لوالدتِها فخٌ يدلُّ حقاً على بُخلِ الأديرة. فقد أوحِيَ لوالدةِ هذه الراهبة بالرغبةِ بزيارة الدير ورؤيةِ حجرة ابنتها. خاطبَتْ كبارَ نواب الأسقف الذين منحوها التصريح الذي تطلبه. دخلت إلى الدير، وهرعت إلى حجرة ابنتها، وما كان أعظم دهشتها عندما لم ترَ فيها غير الجدران الأربعة عارية تماماً! لقد نزعت الراهباتُ عنها كل شيء. كنّ متأكدات من أن تلك الأم الرقيقة والحساسة لن تترك ابنتَها على تلك الحال. وبالفعل أعادت تأثيث حجرتها، وزوّدتْها بالثياب والبياضات، واحتجّت لدى الراهبات بأن هذا الفضول الذي تملّكها لمعرفة ما يجري، كان مُكلفاً إلى درجةٍ أصعب من أن يتملّكها مرة أخرى، وأن ثلاث أو أربع زيارات مثل هذه في السنة ستؤدي إلى إفلاس أشقائها وشقيقاتها... هذا هو المكان الذي يدفع فيه الجشعُ والرغدُ بالعائلات للتضحية بأفرادٍ منها من أجل توفير ظروف مؤاتية أكثر للأفراد الباقين؛ إنه البؤرة التي يُلقى فيها بحثالةِ المجتمع. كم أمّ مثل أمي كفّرت عن خطيئةٍ سرّية باقتراف خطيئة أخرى!

نشر السيد مانوري مذكرةً ثانية كان أثرُها أكبر قليلاً، واشتدّت التأويلات. عَرضتُ على شقيقتيّ مجدداً أن أدَعَهما تحصلان بهدوء على ملكيةِ ميراث أبويّ بكامله. مر وقتٌ أخذتْ فيه قضيتي المنحى الأكثر ملاءمةً لي، وراودني أملٌ بالحرية. لكن خديعتي كانت أشد قسوة. طُرحتْ قضيتي في جلسة محكمة وخسرتْ. وصل الخبر إلى الراهبات، وهو ما كنت أجهله. حصل هياجٌ وصخبٌ وفرحٌ ومحادثاتٌ سرية قصيرة ورُواحٌ ومجيء إلى حجرة الرئيسة، وزياراتٌ متبادلة بين بعض الراهبات. كنت أرتجف بكاملي، لا أستطيع البقاء في حجرتي ولا أستطيع مغادرتها، ولا صديقة لديّ يمكنني الذهاب إليها للارتماء في حضنها. آه لذلك الصباح الأليم، صباح الحُكم في قضيةٍ كبرى! أردت الصلاة فلم أستطع؛ جثوتُ وحاولت التركيز وبدأتُ بدعاء، لكن ذهني سرعان ما ابتعد رغماً عني فوجدتُني بين قُضاتي. رحتُ أتصورهم وأسمع المحامين وأتوجه إليهم بالكلام وأقاطع محاميّ وأجد الدفاعَ عن قضيتي سيئاً. لم أكن أعرف أياً من القضاة، لكنني صنعتُ لهم

صوراً من كل نوع: بعضهم إيجابيون وبعضهم سلبيّون وآخرون لا مُبالون: كنتُ في حالٍ يصعب تصورها من اضطراب الأفكار. حل صمت عميق محل الصخب، ولم تعد الراهبات يكلم بعضُهن بعضاً. بدا لي أن صوتهن في الخورس كان أكثر إشراقاً من المعتاد، على الأقل أولئك اللواتي ينشدن؛ فالبقية لا ينشدن. وعند خروجهن من الصلاة، انسحبن بصمت. رحت أُقنع نفسي بأن الانتظار يقلقهن بقدر ما يقلقني. لكن الصخب والحركة عادا من كل صوب بعد الظهر. سمعت أبواباً تنفتح وتنغلق، وراهباتٍ يرحن ويجئن، ووشوشاتٍ لأشخاص يكلم بعضهم الآخر. وضعت أذني فوق قفل بابي، وبدا لي أنهن يصمتن عند المرور أمام بابي، ويسِرن على أطراف الأصابع. أحسست بأني خسرتُ قضيتي. لم أشكّ لحظةً بذلك. أخذت أدور في حجرتي دون كلام، كنت أختنق، ولا أستطيع الشكوى، أشبك ذراعي فوق رأسي، وأسند جبيني تارةً إلى جدار وتارةً إلى جدار آخر. أردتُ أن أريح نفسي فوق سريري، لكن خفقاً في قلبي منَعني. من الأكيد أنني كنت أسمع خفقانَ قلبي، وأن الخفقان كان يَرفَع ثوبي. كنت في تلك الحال عندما حضرن ليقلن لي بأنني مطلوبة. نزلتُ، ولم أجرؤ أن أتقدم. كانت الراهبة التي أعلمتني فرِحةً إلى درجة فكرتُ معها بأن الخبر الذي يُحمل إليّ لا يمكن أن يكون إلاّ حزيناً للغاية. لكني مضيت، وعند وصولي إلى باب ردهة الاستقبال، توقفتُ دون زيادة، وألقيت بنفسي في ركنٍ بين جدارين، لم أكن قادرة على التماسك. دخلتُ ولم يكن هنالك أحد، وانتظرت. كنّ قد منعن الشخص الذي طلب زيارتي من الظهور قبلي؛ شككن بأنه مبعوث من محاميّ، وأردن معرفةَ ما سيجري بيننا، فتجمّعن لكي يسمعن. وعندما ظهرَ، كنت جالسة ورأسي مائل فوق ذراعي ويستند إلى شبك الحاجز.

– قال لي: أنا من طرف السيد مانوري.

– أجبتُه: لكي تخبرني بأني خسرت قضيتي.

– لا أدري يا سيدتي، لكنه أعطاني هذه الرسالة، وكان حزين الهيئة عندما كلفني بتوصيلها، وجئت مسرعاً مثلما أوصاني.

– هاتِ..».

مد لي يده بالرسالة وأخذتُها دون أن أنتقل من مكاني أو أنظر إليه. وضعتُها فوق ركبتي وبقيت كما كنت. لكن ذلك الرجل سألني: «أليس هناك جواب؟

– لا، قلت له، اذهب».

ذهب وبقيتُ في المكان نفسه غير قادرة على تحريك جسدي ولا على اتخاذ قرار بالخروج.

كتابة الرسائل واستلامها أمر غير مسموح به في الدير دون إذن من رئيسة الدير؛ وإليها تَصِلُ الرسائل التي نستلمها وتلك التي نرسلها. كان يجب إذن أن أحمل إليها رسالتي. مضيت في طريقي لهذا الغرض، وخيل إلي بأني لن أصل أبداً: المتّهمُ الذي يخرج من زنزانته، ويمضي لسماع حكم إدانتهِ، لا يسير بخطى أبطأ ولا أشدّ إحباطاً. وصلتُ إلى بابها. كانت الراهبات يتفحصنني عن بعد: لم يشأن إضاعةَ شيءٍ من مشهدِ ألمي وذلي. طَرقتُ ففُتح لي. كانت رئيسة الدير برفقة بضع راهبات أخريات. أدركتُ ذلك من نهاياتِ أثوابهن لأنني لم أجرؤ على رفع بصري. قدمتُ لها رسالتي بيد مترجرجة. أخذتْها وقرأتها وأعادتها لي. عدتُ إلى حجرتي وألقيت بنفسي في سريري وبجانبي رسالتي. بقيتُ فيه دون قراءتها ودون النهوض للذهاب للعشاء، ودون القيام بأية حركة حتى موعد صلاة العصر. في الثالثة والنصف أنذرَني الجرسُ بالنزول. كانت بضع راهبات قد وصلن إلى هناك، وكانت رئيسة الدير عند مدخل الخورس. أوقفتني وأمرتني بالركوع في الخارج. دخلتْ بقيةُ الراهبات وانغلق الباب. بعد الصلاة خرجن جميعاً وأفسحتُ لهن الطريق للمرور ثم نهضتُ لأتبعهن في المؤخرة. بدأتُ منذ تلك اللحظة أَمتنعُ عمّا يُرِدْنَ: كنّ قد منعْنَني للتو من دخول الكنيسة، وامتنعتُ بنفسي عن التوجه إلى المطعم وإلى فسحة الاستراحة. تأملتُ في حالي من كافة الوجوه ولم أجد سنداً إلا في الحاجة إلى مواهبي وفي خضوعي. كان بوسعي الاكتفاء بذلك النوع من النسيان الذي تُركتُ فيه أياماً عديدة، فتلقيت بضع طلبات لزيارتي، لكن الشخص الوحيد الذي سُمح لي باستقباله هو السيد مانوري. عندما دخلت إلى ردهة الاستقبال، وجدتُهُ بالضبط بالوضعية التي كنتُ عليها عندما استقبلتُ مبعوثَه، مُسنِداً رأسه إلى ذراعه، وذراعه إلى شبك الحاجز. عرفتُه ولم أقل

له شيئاً، كما لم يجرؤ هو أن ينظر إلي أو يكلمني.

«سيدتي، قال لي دون حرج، لقد كتبتُ لك، هل قرأت رسالتي؟

– استلمتُها لكنني لم أقرأها.

– تجهلين إذن...

– لا يا سيدي، لا أجهل شيئاً. لقد حزرتُ مصيري واستسلمتُ له.

– كيف يعاملنك؟

– لم يفكرن بي بعد؛ لكن الماضي ينبئني بما يُعدّه لي المستقبل. ليس لي سوى عزاء واحد، هو أنه بعد حرماني من الرجاء الذي كان يقويني، من المستحيل أن أعاني بقدر ما عانيتُ من قبل. سوف أموت، والخطيئة التي ارتكبتُها ليست من النوع الذي يغفر له في الدين. لا أطلب من الله تليين قلوب مَن شاء أن يجعلني تابعةً لهنّ، بل أطلب منه أن يمنحني القدرة على الألم، وأن ينقذني من اليأس، وأن يأخذني إليه بلا إبطاء.

– سيدتي، قال لي باكياً، كان يمكن أن تكوني أختي التي لم أستطع..». هذا الرجل لديه قلب رقيق.

«سيدتي، أضاف، إذا استطعتُ أن أكون مفيداً لك بشيء، استخدميني. سأذهب إلى قاضي المحكمة الأول، إنه يَجلّني، سأقابل كبار نواب الأساقفة والمطران.

– سيدي، لا تذهب إلى أحد. لقد انتهى كل شيء.

– ولكن، ماذا لو استطعنا أن نغيّر لكِ الدير؟

– هناك الكثير جداً من العقبات.

– ولكن ما هي هذه العقبات؟

– التصريح الذي يصعب الحصول عليه، جهاز جديد، أو الجهاز القديم الذي يجب أخذه من هذا الدير. ثم ما الذي سأجده في دير آخر؟ قلبي غير القابل للتطويع، ورئيسات عديمات شفقة، وراهباتٍ لن يكنّ أفضل مما هن عليه هنا، والواجبات نفسها والآلام نفسها. من الأفضل أن أنهي أيامي هنا حيث ستكون أقصر.

– لكنك يا سيدتي أثرتِ اهتمام أناس شرفاء كثيرين، ومعظمهم أثرياء. لن يُعِقن

خروجَك من هنا إذا لم تحملي معك شيئاً.

– أظن ذلك.

– فخروج راهبةٍ أو موتُها يزيد من سهولةِ عيشِ الباقيات.

– ولكنْ لم يعد أولئك الشرفاء، وأولئك الناس الأثرياء يفكرون بي، وستجدهم غير متحمسين عندما يتعلق الأمر بتجهيزي على حسابهم. لماذا تريد أن يكون إخراجُ راهبةٍ لا تميل للرهبنة بالنسبة للمدنيّين، أسهلَ مِن إبقاءِ راهبةٍ تميل للرهبنة، بالنسبة للمتديّنين؟ هل تُجهّز هؤلاء الأخيرات بسهولة؟ لقد انسحب الجميع يا سيدي منذ أن خسرتُ دعواي. ما عدتُ أرى أحداً.

– سيدتي، كلِّفيني فقط بهذه القضية، وسأسعَد بها أكثر.

– لا أطلب شيئاً، ولا أرجو شيئاً ولا أعترض على شيء. لقد تحطّمَ الحافز الوحيد الذي بقي لي. لو أستطيع فقط أن آمُل بأن يغيّرني الله فيُحِلّ حبّ الرهبنة في روحي محلّ الرجاء الذي فقدتُه... لكن هذا غير ممكن؛ لقد التصق هذا الثوب بجلدي، بعظامي، وبات أشد إزعاجاً. آه لهذا المصير! راهبة إلى الأبد، وشعوري بأنني لن أكون قط إلا راهبة سيئة! أن أمضي حياتي كلها وأنا أضرب رأسي بقضبان سجني..».

عند هذا الحد رحتُ أطلق صرخات أردتُ خنْقَها ولم أستطع.

قال لي السيد مانوري وقد فاجأتْه حركتي:

«هل أجرؤ أن أطرح عليك سؤالاً ؟

– تفضل يا سيدي.

– ألا يوجد سبب خفي وراء كل هذا الألم؟

– لا يا سيدي، أكره حياة العزلة. أشعر هاهُنا بأنني أكرهها، وبأنني سأكرهها دوماً. لن أستطيع تطويع نفسي لكل الإزعاجات التي تملأ يومَ الراهبة؛ يومُها سلسلةُ تفاهاتٍ أحتقرها. لو استطعتُ الاعتياد عليها لَقَبِلْتُها. حاولت مئات المرات الإيحاء لنفسي بذلك، حاولتُ كسْرَ نفسي، فلم أنجح. تمنيتُ وسألت الله أن يمنحني الغباوةَ السعيدة التي تتمتع بها زميلاتي فلم أحصل عليها قط، لن يمنحني الله إياها. فأفعل كل شيء بشكل غير ملائم،

وأقول كل شيء بشكل غير ملائم. انعدامُ القابلية يَبرز في كل أفعالي. إنه مرئيّ. وإنني، كلّ لحظة، أُشَكِّل إهانةً لحياة الرهبنة. والراهباتُ يسمِّين عدمَ قابليتي تَكبُّراً، فينْهَمِكْن في إذلالي، وتتكاثر الأخطاء والعقوبات إلى ما لا نهاية، وأمضي أيامي وأنا أقيس بعينيّ علوّ الجدران.

– سيدتي، لن أتمكن من تحطيمها، لكن بمقدوري فعل شيء آخر.

– سيدي، لا تجرّب شيئاً.

– يجب الانتقال إلى دير آخر. سأهتم بذلك، وسأعود لرؤيتك وأرجو بأنهن لن يُخْفينكِ. سوف تصلك مني أخبار في القريب العاجل، وثقي بأنني سأخرجكِ من هنا إذا وافقتِ. وأخبريني إذا عاملنك بقسوة.

كان الوقت قد تأخر عندما انصرف السيد مانوري. عدت إلى حجرتي، ولم يطل الوقت حتى أُعلن عن صلاة المساء. كنتُ بين الواصلات الأوائل. أفسحتُ للراهبات لكي يدخلن واعتبرتُ أنّ بقائي عند الباب أمرٌ متفق عليه. وبالفعل، فقد أغلقته رئيسةُ الدير دوني. وفي وقت العشاء مساءً، أشارت إليّ وهي تدخل بالجلوس أرضاً وسط المطعم. أطعتُ ولم يقدم لي سوى الخبز والماء. أكلت منه القليل الذي سقيتُه ببضعِ دمعات. في اليوم التالي عقد مجلس تأديب ودُعيتْ جميع الراهبات لمحاكمتي. حكم عليّ بالحرمان مدة شهر من فترة الاستراحة، وبسماع الصلاة عند باب الخورس، وبتناول الطعام على الأرض وسط المطعم، وبتقديم إقرارٍ علنيّ بالذنب ثلاثة أيام متتالية، وبتجديد مراسم ارتدائي للثوب ونطقي بالنذور، وارتداء المسح[1] الخشن، وصوم يوم من اثنين، وإماتة جسدي بالعقاب كل يوم جمعة بعد صلاة المساء. عند النطق بهذا الحكم كنتُ جاثيةً ووشاحي يغطي وجهي.

منذ اليوم التالي أتت رئيسة الدير إلى حجرتي وبرفقتها راهبة تحمل على ذراعها مسحاً وذلك الثوب الخشن الذي ألبسنني إياه حين سقنني إلى الزنزانة. فهمتُ المقصود، فخلعتُ

1– المسح نسيج خشن من شعر الماعز يربط عند الخصر يتم إلباسه للراهبة في عقوبة إماتة الجسد، ملامساً للجسد مباشرةً وفوقه ثوب خشن آخر.

ثيابي، أو بالأحرى نُزع عني وشاحي وثيابي بالقوة، ولبست ذلك الثوب. كنت حاسرة الرأس حافية القدمين ينسدل شعري الطويل فوق كتفيّ، وتقتصر ملابسي كلها على ذلك المسح الذي أعطينني إياه، وقميصٍ خشن جداً وثوب طويل يمسكني من رقبتي حتى قدمي. بقيت بهذه الملابس أثناء النهار وتقدّمتُ بها عند ممارسة جميع الشعائر.

في المساء عندما انسحبتُ إلى حجرتي، سمعت أصوات راهبات يقتربن وهن يرتّلن. كان الدير كله هناك مصطَفّاً في صفين. دخلن، ومثلتُ أمامهن. وُضع حبلٌ حول رقبتي ومشعلٌ موقَد في إحدى يديّ ومِجلَدةٌ في يدي الأخرى. أمسكتْ راهبةٌ بالحبل من أحد طرفيه وجرتني بين الصفين. سار الموكب باتجاه مصلىً داخليّ صغير مكرّس للقديسة ماري. عندما جئن كن يرتلن بصوت منخفض. وفي العودة لزمن الصمت. عند وصولي إلى ذلك المصلى الصغير المضاء بمشعلين، أُمرت بالاستغفار من الرب ومن مجمع الراهبات على الفضيحة التي أثرتها. كانت الراهبة التي تقودني تقول لي بصوت منخفض جداً ما يجب أن أردّده، فأردّده كلمةً كلمة. بعد ذلك نزعن عني الحبل وعرّينني حتى الخصر، جمعن شعري المبعثر فوق كتفيّ ووضعنه في جانبٍ من رقبتي، ونقَلْن السوط الذي كنت أحمله في يدي اليسرى، إلى يدي اليمنى، وأخذن يرتلن نشيد الاسترحام. فهمتُ ما يُنتظر مني، ونفذته. بنهاية النشيد ألقت علي رئيسة الدير عظةً مقتضبة، ثم أُطفئت الأضواء، وانسحبت الراهبات فأعدتُ ارتداء ملابسي. حين عدتُ إلى حجرتي شعرت بآلام حادة في قدميّ؛ نظرت إليهما فوجدتهما مدمّاتين تماماً بسبب جروح بقطعٍ زجاجٍ نثرنها بخبثٍ على طريقي. وفي اليومين التاليين قدمتُ إقراراً بالذنب بالطريقة العلنية نفسها، مع فارق أنه أُضيفت في اليوم الأخير ترتيلة أخرى إلى نشيد الاسترحام.

في اليوم الرابع أعيد لي ثوب الرهبنة، بالمراسم الاحتفالية نفسها تقريباً التي يجري ارتداؤه بها.

في اليوم الخامس جدّدتُ النطق بنذوري، وخلال شهر أكملتُ بقية العقوبة المفروضة علي، ثم عدتُ بعدها للانخراط تقريباً في النظام العام للرهبنة: استعدت مكاني في الجوقة وفي المطعم، وبدوري تفرّغتُ لأداء مختلف وظائف الدير. ولكن كم كانت مفاجأتي

عظيمة عندما وقعت عيناي على تلك الصديقة الشابة التي اهتمت بمصيري! بدت لي كأنها تغيرت بقدر ما تغيرتُ؛ كانت ناحلةً بشكل مخيف، وكان وجهها شاحباً شحوب الموت، وشفتاها بيضاوين وعيناها شبه مطفأتين.

«أخت أورسولا، قلت لها بصوت منخفض جداً، ماذا بك؟

– ماذا بي! أجابتني؛ إنني أحبكِ وتسألين! كدتُ أموت إلى أن حان وقتُ انتهاء عقوبتك».

إنها هي التي عُنيت بكنسِ الممرات خلسةً وإبعاد قطع الزجاج إلى اليمين واليسار، وبهذه الطريقة لم تُجرح قدماي في اليومين الأولين لإقراري بالذنب. وفي الأيام التي حكم عليّ فيها بالصوم على الخبز والماء، كانت تحرم نفسها من جزء من نصيبها وتغلّفه بملاءة بيضاء وتلقي به إليّ في حجرتي. وعندما جرى اقتراع على الراهبة التي ستقودني بالحبل، وقع الخيار عليها. كانت حازمةً في رفضها إلى درجة أنها ذهبت إلى رئيسة الدير للاحتجاج بأنها تفضّل الموت على القيام بهذه المهمة الشائنة والوحشية. ولحسن حظ هذه الشابة أنّها من عائلة مرموقة، ولها مُخَصّص كبير توظفه وفق مشيئة رئيسة الدير؛ لذلك فإنها، مقابلَ بضع ليبرات من السكر والقهوة، وَجدتْ راهبةً لتحل محلها. لا أجرؤ على التفكير بأن غضب الله قد نزل على هذه الراهبة السافلة. لقد أصيبت بالجنون وتمّ عزْلُها. لكن رئيسة الدير ما تزال حية ترزق، وتُدير الأمور، وتعذّب الآخرين، وتتمتع بصحة جيدة.

كان مستحيلاً أن تصمد صحتي أمام محنٍ مديدة وقاسية بهذا الشكل، فمرضتُ. في هذا الظرف أظهرت الأخت أورسولا كل مشاعر الصداقة التي تكنُّها لي. إنني أدين لها بحياتي. لم يكن الأمر مجرد إحسان حفظَتْه لي، وكانت تقول لي ذلك بنفسها أحياناً. لا توجد خدمةٌ لم تقدمها لي في الأيام التي استلمتْ فيها مهمة التمريض. وفي بقية الأيام لم أُهْمَل بفضلِ الاهتمام الذي أولتني إياه، وبفضلِ جوائزَ صغيرةٍ وزّعَتْها على الراهبات اللواتي سهِرْن عليّ، تتناسب مع درجةِ إرضائي. طَلَبتْ أن تتولى حراستي ليلاً، ورَفضتْ رئيسةُ الدير طلبها بحجة أنها أكثر هشاشة من أن تتحمل هذه المشقة. كان ذلك مصدر حزن حقيقي لها. لم تَحُلْ كلُّ عنايتها بي دون تَطوُّرِ الألم، فشارفتُ تماماً على

الموت، وتلقيتُ الأسرار الأخيرة. وكنتُ قبل بضع لحظات من ذلك قد طلبت حضور جميع الراهبات، فلبّين لي طلبي. أحاطت الراهبات بسريري ووقفتْ رئيسة الدير في وسطهن. كانت صديقتي بقربي تمسك يدي وتبللها بدموعها. افترضن أن لدي شيئاً أقوله، فأنهضنني، وسندن رأسي بوسادتين. عندها خاطبتُ الرئيسة راجيةً منها أن تمنحني بركتها، وتنسى الخطايا التي اقترفتُها، وطلبتُ من جميع رفيقاتي أن يسامحنني على الفضيحة التي سببتها لهن. رجوتُ الرئيسةَ السماح لي بالتصرف بعدد كبير من الآنية قليلة القيمة التي كنتُ قد جلبتُها لتزيين حجرتي أو لاستعمالي الخاص، فوافقَتْ، ووهبتُها للراهبتَيْن اللتين واكبتاها عندما أُلقي بي في الزنزانة. طلبتُ من الراهبة التي قادتني بالحبل يوم إقراري بالذنب،الاقتراب مني، وقلت لها وأنا أعانقها وأعطيها سبحتي ومسيحي: «أختي العزيزة، اذكريني في صلواتك، وثقي بأني لن أنساك أمام الله..». لماذا لم يأخذني الله في تلك اللحظة؟ كنتُ ذاهبة إليه دون قلق. إنها لَسعادةٌ عظيمة! ومن ذا الذي يمكنه أن يأمل بذلك مرتين؟ ومن يدري ما سأكون عليه في الأخيرة؟ فهي آتية حتماً. ليت الله يجدّد آلامي ويمنحني لحظةً أخيرة بذلك القدر نفسه من الطمأنينة! كنت أرى السماوات مفتوحةً، وكانت مفتوحةً دون شك؛ لأن شعور الإنسان في تلك اللحظة لا يخونه، وكان شعوري يَعِدُني بسعادة أبدية.

بعد مَنحي الأسرارَ الأخيرة استسلمتُ لنوع من النُّوام. وطوال تلك الليلة قطعن الأمل مني. كن يأتين من وقت لآخر لجس نبضي. كنت أشعر بأصابع تجول فوق وجهي، وأسمع، كأنما في البعيد، أصواتاً مختلفة تقول: «إنها تُسلم الروح... أنفها بارد... لن تصمد حتى الغد... ستبقى لكِ السبحةُ والمسيح..». وصوتاً آخر مغتاظاً يقول: «ابتعدن؛ اتركنها تموت بسلام؛ ألم تعذّبنها كفاية؟» عندما خرجتُ من الأزمة وفتحتُ عيني، كانت لحظةً لذيذة حقاً عندما وجدتُ نفسي بين أحضان صديقتي. إنها لم تفارقني أبداً، وأمضت الليل في نجدتي وترتيل صلوات المحتضرين، وتقريب تمثال المسيح من شفتيّ لأقبّله، ثم حمْلِهِ إلى شفتيها. وعندما رأتني أفتح عيني على وسعهما، وأُطلِق تنهيدة عميقة، ظنتْ أنها تنهيدتي الأخيرة، فأخذت تصرخ، وتناديني بصديقتها وتقول: «يا رب ارحمها وارحمني! يا رب

اقْبَل روحَها! تذكّري الأخت أورسولا عندما تمثلين بين يدي الرب يا صديقتي العزيزة..».
رحت أنظر إليها بابتسامة حزينة وقد سالت من عيني دمعة، ويدي تشدّ على يدها.

في تلك اللحظة وصل السيد بوفار طبيبُ الدير. يقال بأن هذا الرجل حاذق، لكنه مستبد ومتعجرف وقاس. فأبعدَ صديقتي بعنف، وجس نبضي، وعاين جلدي. كانت برفقته رئيسة الدير وراهباتها الأثيرات. طرح بعض الأسئلة المكونة من كلمة واحدة حول ما حدث؛ أجاب وهو ينظر إلى الرئيسة: «سوف تنجو». فلم يسرّها ذلك: «نعم يا سيدتي، سوف تنجو؛ جلدها في حال جيدة والحمى تراجعت وبدأت الحياة تبزغ في العينين.

مع كل كلمة من تلك الكلمات كان الفرح ينتشر على وجه صديقتي؛ فيما ينتشر على وجه الرئيسة ومرافقاتها نوع من الغمّ فشلن في إخفائه.

«سيدي، قلت له، لا أطلب الحياة.

– لا يهم»، أجابني؛ ثم وجّه أمراً ما وخرج. قيل بأنني أثناء نومي كررتُ عدة مرات: «أيتها الأم العزيزة، إني ذاهبة لملاقاتك! وسأخبرك بكل شيء». يبدو أنني كنت أخاطب الأم رئيسة الدير السابقة، إني متأكدة من ذلك. لم أعط صورتها لأحد، وأردتُ حملها معي إلى القبر.

صدق تشخيص السيد بوفار، فقد أدت غزارة التعرُّق في النهاية إلى انحسار الحمى، وتأكّد شفائي. شفيت بالفعل لكنني أمضيتُ نقاهةً طويلة جداً. كان مقرراً أن أكابد في هذا الدير كل الآلام التي يمكن مكابدتها. كان هناك قدر من الأذى في مرضي، والأخت أورسولا لم تفارقني أبداً. فحين بدأتُ أستعيد قواي تلاشتْ قواها هي واضطرب هضمُها وبدأت تصيبها نوبات إغماء تدوم ربع ساعة أحياناً، تكون فيها كالميتة، فتنطفئ عيناها، وتغطي جبينها قطراتُ عرق بارد تسيل على طول خديها، وتتدلى ذراعاها بلا حراك إلى جانبيها. كان التخفيف عنها يتم فقط بحل أربطتها. وأوّل ما كان يخطر ببالها عندما تفيق من إغمائها، هو البحث عني بجوارها. وكانت تجدني دوماً؛ بل كانت أحياناً، عندما يبقى لها بعض الإدراك، تُجيلُ يدَها من حولها دون فتح عينيها. كان تأويلُ هذه الحركة قليلَ اللبْسِ إلى درجةِ أنّ بعض الراهبات كُنّ يَقلن لي، بعد أن يعترِضْن هذه اليدَ التي لا

تكفُّ باحثةً عن شيء ما، ثم تَسقط بلا حراك حين لا تتعرف عليهن: «أخت سوزان، إنها تبحث عنك أنت، اقتربي..». فأرتمي عند ركبتيها وأجتذب يدها لتحطّ فوق جبيني حتى ينتهي إغماؤها. وعندما ينتهي تقول لي: «أنا من ستمضي يا أخت سوزان، وأنت ستبقين، أنا التي سأراها أولاً، وأكلمها عنك، ولن تسمعني دون أن تبكي. وإذا كانت هناك دموع مُرّة فهناك أيضاً دموع حلوة، وإذا كان هناك في الأعالي بشَرٌ يحبّون، فلمَ لا يكون هناك بشرٌ يبكون؟ عندئذ تميل برأسها فوق رقبتي وتذرف دمعاً غزيراً وتضيف: «وداعاً أخت سوزان، وداعاً يا صديقتي؛ من سيقاسمك آلامك حين أموت؟ مَن ...؟ آه يا صديقتي العزيزة كم أشفق عليك! إنني أموت، أشعر بذلك، أموت. كم كنتُ سأشعر بالأسف لموتي لو أنكِ كنتِ سعيدةً!».

أصابتني حالتُها بالرعب فكلمتُ رئيسة الدير. أردتُ أخْذها إلى قسم التمريض، وإعفاءها من ممارسة الصلوات وشعائر الدير الشاقة الأخرى، واستدعاء طبيبٍ لمعاينتها. لكن الرد كان دوماً بأن ليس بها شيء خطير، وأن هذه الإغماءات ستزول من تلقاء نفسها. لم تكن الأخت العزيزة أورسولا تطلب شيئاً أكثر من القيام بواجباتها والبقاء في مستوى الحياة المشتركة. وذات يوم بعد صلوات السحر التي شهدتْها، لم تظهر. فكرتُ بأنها أصيبت بإغماء، فطرتُ إليها فور انتهاء صلاة الصبح. وجدتها مستلقية فوق سريرها بكامل ثيابها. قالت لي:

«هذه أنت يا صديقتي العزيزة؟ كنت متأكدة بأنك لن تتأخري في المجيء، وكنت بانتظارك. اسمعيني. كم كنت متشوقة لحضورك! كان إغمائي شديداً وطويلاً حتى ظننتُ بأنني لن أخرج منه، ولن أراك ثانيةً أبداً. خذي، هذا مفتاح مَصْلاي. افتحي خزانته، وانزعي لوحاً صغيراً يقسم الجارور السفلي إلى نصفين. وراء هذا اللوح تجدين رزمة أوراق لم أستطع التخلي عنها رغم المجازفة التي عرّضتُ نفسي لها نتيجة الاحتفاظ بها، والألم الذي سببته لي قراءتُها. للأسف إنها انمحت تقريباً من دموعي. أَحْرِقيها عندما أموت..».

كانت من الضعف وضيق الصدر بحيث لم تستطع النطق بكلمتين متتاليتين من ذلك

الحديث، فكانت تتوقف تقريباً عند كل مقطعٍ من كلمة. ثم إنها كانت تتكلم بصوت منخفض إلى درجة أنني كنت أسمعها بصعوبةٍ رغم أنني كنت أكاد ألصق أذني بفمها. تناولتُ المفتاح وأشرت بإصبعي إلى المَصلى، فأومأت لي بالإيجاب. بعد ذلك انتابني إحساس بأني أفقدها، وبما أنني كنت مقتنعة بأن مرضها هو إما نتيجة لمَرَضي، أو للألم الذي تكبدَتْه، أو لأشكال العناية التي قدمَتْها لي، رحتُ أبكي وأعبّر بكل قواي عن أسفي. رحتُ أقبّل جبينها وعينيها ووجهها ويديها، وأسألها المغفرة، لكنها بدت شاردة الذهن كأنها لا تسمعني. ثم ارتاحت إحدى يديها فوق وجهي وراحت تمسح عليه. أعتقد بأنها ما عادت تراني، بل أنها ظنت بأني خرجتُ لأنها نادتني «أخت سوزان؟»

قلت لها: «ها أنذا.

– كم الساعة؟

إنها الحادية عشرة والنصف.

– الحادية عشرة والنصف! اذهبي للعشاء؛ اذهبي ثم عودي حالاً..».

قرع جرس العشاء، وكان عليّ أن أتركها. عند الباب نادتني مجدداً فعُدتُ. بذلتْ مجهوداً لتقديم خدّيها لي فقبّلْتهما. أخذتْ يدي، وشدت عليها. بدا أنها لم تشأ، ولم تستطع مفارقتي: «مع أنني يجب أن أفارقك، قالت لي وهي تطلق يدي، الرب يريد ذلك؛ وداعاً أخت سوزان، أعطني مسيحي..». وضعْتُه بين يديها وانصرفتُ.

كُنّ على وشك مغادرة طاولة العشاء. توجهتُ إلى رئيسة الدير لأكلّمها بحضور جميع الراهبات عن الخطر المحدِق بالأخت أورسولا، وأحثّها على الحكم بنفسها. «حسناً! قالت، يجب رؤيتها».

صعدتْ إليها برفقة بضع راهبات أخريات. لحقتُ بهن. دخلن حجرتها؛ كانت المسكينة قد ماتت. كانت ممددة فوق سريرها بكامل ثيابها، رأسها مائل فوق وسادتها، وفمها نصف مفتوح وعيناها مغمضتان، والصليب بين يديها. نظرت الرئيسة إليها ببرود وقالت: «إنها ميتة. من كان يظن بأنها بهذا القُرب من نهايتها؟ كانت فتاة ممتازة: فلتُقرع الأجراس من أجلها وتُكفّن».

بقيتُ بمفردي بجانبها. لن يسعني أن أصف لك ألمي. غير أنني كنت أحسدها على مصيرها. اقتربتُ منها وبكيتُها، قبّلتها عدة مرات، وسحبت الغطاء فوق وجهها الذي بدأت ملامحه تتشوه، وفكرت بعدها بتنفيذ ما أوصتني به. ولكي لا أُقاطَع أثناء قيامي بذلك، انتظرت أن يكون الجميع في الصلاة. فتحتُ المَصلى وانتزعت اللوح فوجدت لفافة ورق كبيرة إلى حد ما وأحرقتُها فور هبوط المساء. كانت تلك الفتاة كئيبة دوماً ولا أذكر أنني رأيتها تبتسم باستثناء مرة واحدة في مرَضها. أصبحتُ إذن وحيدة في هذا الدير وفي العالم، لأنني لم أكن أعرف كائناً يهتم بي. لم أعد أسمع كلمة من طرف المحامي مانوري. افترضتُ أن الصعوبات ثبطت همته، أو أن مَلاهٍ ومشاغل أنْسَتْه الخدمة التي عرضها عليّ، ولست مستاءة منه جداً على ذلك: لأن طبعي يميل إلى التسامح، وأستطيع أن أغفر للبشر كل شيء إلاّ الظلم والنكران وانعدام الإنسانية. كنتُ أجِد الأعذار للمحامي مانوري ولكل أولئك الناس المرموقين الذين نشطوا أثناء سيرِ دعواي، وبعدها لم أعد موجودة بالنسبة إليهم، ولكَ أنت نفسَك سيدي المركيز، عندما قام رؤساؤنا الكَنَسيون بزيارة إلى الدير.

دخلوا، واستطلعوا الحجرات، واستجوبوا الراهبات للتحقق من سير الإدارة الزمنية والروحية، وتبعاً للبعد الروحي الذي يسبغونه على وظائفهم، فإنهم يصلحون الفوضى، أو يزيدونها. هكذا رأيتُ مجدداً السيد النزيه والقاسي هيبير مع مساعديه الشابين المتعاطفين. لقد تذكّرا، كما يبدو، الحالة المؤسفة التي مثلتُ بها أمامهما في السابق. ترقرقت عيناهما بالدمع ولاحظت على وجهيهما حناناً وفرحاً. جلس السيد هيبير وجعلني أجلس مقابله؛ لبث مرافقاه واقفين خلف كرسيّه. تعلقت عيونهما بي وقال لي السيد هيبير: «حسناً يا أخت سوزان! كيف يعاملنك؟»

أجبته: «إنهن يَنسينني يا سيدي.

– هذا أفضل.

– وهو كل ما أتمناه أيضاً؛ لكنّ لدي طلباً مهماً أرجو أن تنعم به علي وتستدعي الأم رئيسة الدير إلى هنا.

– ولماذا؟

– لأنه إذا حدث واشتكى لك أحد عنها، فلن تتوانى عن توجيه الاتهام لي.
– أرى؛ ولكن قولي لي ما الذي تعرفينه عن ذلك.
– سيدي، أتوسل إليك أن تستدعيَها فتسمع بنفسها أسئلتك وأجوبتي.
– قولي مع ذلك.
– سيدي، ستتسبب في هلاكي.
– لا، لا تخشي شيئاً، فاعتباراً من هذا اليوم لم تعودي خاضعة لسلطتها، وقبل نهاية الأسبوع ستُنقلين إلى سانت أوتروب قرب أرباجون.
لديكِ صديق مخلص.
– صديق مخلص يا سيدي! لا أعرف لي صديقاً مخلصاً.
– إنه محاميك.
– السيد مانوري؟
– هو ذاته.
– ظننت بأنه نسيني.
– لقد قابل شقيقتيك وقابل المطران والقاضي الأول وجميع الأشخاص المعروفين بورعهم. لقد أمّن لك جهاز راهبة في الدير الذي أسميتُه لك للتو؛ ولم يعد أمامك سوى وقت قصير تمضينه هنا. فإذا كان لديك علم بأي خلل بإمكانك إخباري دون مخاطرة، وآمرك بذلك باسمِ قسَم الطاعة المقدس.
لا علم لي بشيء.
– ماذا؟ هل أبقَيْن على إجراءات معينة بحقك، منذ خسارة قضيتك؟
– اعتقدنّ بأنني اقترفت خطيئةً بالرجوع عن نذوري؛ فجعلنني أستغفر الله عليها.
– لكن ظروف هذا الاستغفار هي ما أريد معرفته..».
كان وهو يقول هذه الكلمات، يهز رأسه ويقطب حاجبيه. وأدركت بأن تحميلَ رئيسةِ الدير جانباً من العقوبات التي أنزَلتْها بي، أمرٌ راجِعٌ إليّ. ولكنْ لم تكن تلك هي نيتي.
رأى المبعوث الكنسي جيداً بأنه لن يعرف شيئاً من خلالي، فخرج وهو يوصيني بالتكتم على ما أسرّ لي به حول نقلي إلى سانت أوتروب قرب أرباجون.

ولمّا كان السيد هيبير يسير بمفرده في الممر، عاد مرافِقاه وسلّما علي بهيئة شديدة العطف والحنان. لا أعرف من يكونان لكنني أدعو الله أن يحفظ لهما طبعهما الحنون والعطوف النادر جداً في حالتهما، والشديد الملاءمة للمؤتمَنين على رحمة الرب. ظننتُ بأن السيد هيبير منشغل بمؤاساة راهبات أخريات أو استجوابهن أو تأنيبهن، عندما دخل إلى حجرتي وقال لي:

– من أين تعرفين السيد مانوري؟

– من خلال دعواي.

– من أعطاك اسمه؟

– السيدة القاضية.

– لا بد أنك تشاورت معه كثيراً أثناء سير دعواك؟

– لا يا سيدي، قلّما رأيته.

– كيف كنت توصلين إليه المعلومات؟

– بمذكرات أكتبها بيدي.

– هل لديك نسخ من تلك المذكرات؟

– لا يا سيدي.

– من كان يسلمه تلك المذكرات؟

– السيدة القاضية.

– ومن أين تعرفينها؟

– من خلال الأخت أورسولا صديقتي وقريبتها.

– هل قابلت السيد مانوري منذ خسارة دعواك؟

– مرة واحدة.

– هذا قليل حقاً. ألم يكتب لك قط؟

– لا يا سيدي.

– ألم تكتبي له أنت؟

– لا يا سيدي.

– سيخبرك دون شك بما فعله لأجلك. آمركِ بعدم لقائه ثانيةً في بهو الاستقبال؛ وإذا كتب لك، سواء مباشرةً أو عن طريق آخر، آمرك بأن ترسلي مكتوبه إلي دون فتحه، هل تسمعين، دون فتحه.

– نعم يا سيدي، وسأطيع كلامك..».

سواء كنتُ أنا المعنيّة بحذرِ السيد هيبير أو الشخص الذي يحميني، فقد جرحني ذلك.

جاء السيد مانوري إلى لونشان في المساء نفسه: وفيت بوعدي لرئيس الشمامسة ورفضت الكلام إليه. في اليوم التالي كتب إليّ عبر مبعوثه، فتلقيت مكتوبه وأرسلته دون فتحه إلى السيد هيبير. كان ذلك يوم الثلاثاء بقدر ما أذكر. كنت أنتظر بصبرٍ نافد أثر الوعد الذي قطعتُه لرئيس الشمامسة والفعل الذي سيصدر عن السيد مانوري. انقضى الأربعاء والخميس والجمعة دون أن أسمع عن شيء. كم بدت لي تلك الأيام طويلة! كنت أرتجف خوفاً من وقوع طارئ يُغَيّرُ كل شيء. لم أَسْتَعْد حريتي، بل انتقلتُ إلى سجن آخر، وهذا إنجاز. إنّ وقوع حدثٍ سعيد أول يزرع فينا الرجاء بوقوع غيره. وربما يكمن هنا أصل المَثَل القائل بأن الأحداث السعيدة لا تأتي فرادى أبداً.

كنت أعرف الراهبات اللواتي أغادرهن، ولا أجد مشقةً في الافتراض بأنني ربما أكسب شيئاً من العيش مع سجينات أخريات. فأياً كنّ، لن يكُنّ أشدّ أذىً ولا أسوأ طويّة. صباح السبت، نحو الساعة التاسعة، دبّت في الدير حركةٌ كبيرة. يكفي أمر تافه لإدارة رؤوس الراهبات. كان هناك رواح ومجيء، وكنّ يتبادلن الكلام بصوت منخفض، وكانت أبوابُ عنابر النوم تنفتح وتنغلق. وما هذا، كما رأيتَ حتى الآن، إلاّ إشارة إلى ثورات رهبانية. كنت وحدي في حجرتي وقلبي يخفق بقوة، أصغي قرب الباب وأنظر من خلال نافذتي. كنتُ أتخبط من شدة الهياج دون أن أدري ماذا أفعل، وأقول في سري وأنا أهتز من الفرح: «سيأتون في طلبي، لن أكون هنا بعد قليل..». ولم أكن مخطئة.

قدِم إليّ وجهان مجهولان، راهبة، وراهبة أخرى تعمل بوّابة في دير أرباجون: وبكلمة واحدة أعلمتاني بغرض زيارتهما.

تناولتُ الأشياء القليلة التي تخصني، وألقيت بها بلا نظام في مقدمة البوابة التي حزمتْها في رزم. لم أطلب رؤية الرئيسة؛ وبما أن الأخت أورسولا لم تعد موجودة، لم أكن أُفارِقُ أحداً. فنزلتُ وفُتحت لي الأبواب بعد تفتيش دقيق لما أحمله، فصعدت في عربة، ومضيت في طريقي.

عندما أُعلِمَ رئيس الشمامسة ومساعداه الشابّان، والسيدة القاضية، والسيد مانوري، بخروجي، كانوا مجتمعين عند الرئيسة. في الطريق أخذت الراهبةُ تحدثني عن الدير، وتضيف البوّابة إلى كل جملةِ مديحٍ لي من راهباته، لازمةً: «إنها الحقيقة الخالصة». كانت تعبّر عن اغتباطها باختيارها لاصطحابي، وتريد أن تكون صديقتي. أسرّت لي بالنتيجة ببعض الأسرار وأسدت إلي ببعض النصائح السلوكية. والظاهر أنّ هذه النصائح كانت مناسبة لها، ولا يمكن أن تناسبني. لا أدري إن كنتَ قد شاهدتَ دير أرباغون؛ إنه مبنىً مربع تطل إحدى جهاته على الطريق الرئيسية، والجهة الأخرى على الريف والحدائق. في كل نافذة من الواجهة الأولى، كانت تقف راهبة أو اثنتان أو ثلاث راهبات. هذا وحدُهُ أنبأني عن النظام السائد في الدير أكثر من كل ما قالتْهُ لي الراهبةُ ورفيقتها. يبدو أن العربة التي كنا فيها معروفة، لأن جميع الرؤوس المحجّبة اختفت في لمح البصر ووصلتُ إلى باب سجني الجديد. أقبلت رئيسة الدير عليّ فاتحةً ذراعيها. قبّلتني، وأخذتني من يدي إلى البهو العام الذي سبقتني إليه بضعُ راهبات، ثم هرعتْ إليه أخريات.

رئيسة الدير تلك تدعى السيدة×××، لا أستطيع منع نفسي من وصفها لك قبل المضي أبعد. إنها امرأة قصيرة القامة مدوّرة الجسم تماماً، لكنها سريعة الحركة وحيوية، ولا يهدأ رأسُها قط فوق كتفيها. ثَمة خلل في ثوبها دوماً؛ يميل وجهها إلى الوسامة. إحدى عينيها المتّقدتين والزائغتين، اليُمنى، أعلى وأوسع من الثانية. عندما تسير تلقي بذراعيها نحو الأمام والوراء. وإذا أرادت الكلام باشرت به قبل ترتيب أفكارها، لذلك فإنها تتلعثم قليلاً. وإذا جلستْ لا تكف عن الحركة في مقعدها ناسيةً كل لياقة كما لو أن شيئاً ما يزعجها. ترفع إسكيمها لمسحِ بشرتها وتُصالب رجليها، وتستجوبك، فتجيبها، ولا تستمع إليك؛ تكلمك، ويتشتت ذهنها فتتوقف، ولا تعود تدري أين وصلتْ، فتغضب،

وإذا لم ترشدها إلى النقطة التي وقفتْ عندها، تنعَتُك بالدابة الضخمة وبالغباء والحمق. تتصرف كشخص أليف إلى درجة التباسط في مخاطبتك تارةً، وتارةً أخرى كشخص متصلّف ومتكبر إلى درجة الاستخفاف بك؛ اللحظات التي تتصرف فيها بوقار قصيرة تتناوب بين التعاطف والقسوة؛ وجهها المتشنج يشير إلى التفكك الذي تعاني منه روحُها، وإلى التفاوت في شخصيتها. هكذا كان النظام والفوضى يتعاقبان في الدير. هناك أيام كان يختلط فيها كل شيء، تختلط المؤقّتات بالمستجِدّات، والمستجِدّات بالراهبات، فيهرع بعضهن إلى حجرات البعض الآخر، ويتناولن معاً الشاي والقهوة والشوكولا وأنواع الليكور، وتُقام الصلوات بخفة غير لائقة إلى أبعد حد. وفي منتصف هذه البلبلة يتغير وجه الرئيسة بغتةً، فيقرع الجرس، وتنسحب الراهبات، ويغلقن على أنفسهن الأبواب. وبعد الضجيج والصراخ والصخب يعمّ صمت عميق وكأن كل شيء قد مات فجأةً. عندئذ إذا ارتكبتْ راهبةٌ أدنى خرق، استدعتْها الرئيسة إلى حجرتها، وعاملتْها بقسوة، وأمرتْها بخلع ثيابها وجلد نفسها عشرين جلدة. فتمتثل الراهبة وتخلع ثيابها وتبدأ بجَلد نفسها. ولكن ما إن توجّه إلى نفسها بضع جلدات حتى تبدأ الرئيسة بالتعاطف، فتنتزع من يدها أداة التعذيب وتبدأ بالبكاء وتقول بأنها تعيسة حقاً بسبب اضطرارها للمعاقبة! تُقَبّلها من جبينها وعينيها وفمها وكتفيها، وتمسح بيدها عليها مطرِيةً: «أيةُ بشرةٍ بيضاء ناعمة! وأيُّ امتلاءٍ جميل! وأية رقبة جميلة! وأي شينيون[1] جميل!... أخت سانت أوغستين، جنونٌ أن تشعري بالخجل؛ دعي هذا اللباس يسقط عنك، أنا امرأة، ورئيستك. آه ما أجمل هذا الصدر! كم هو متماسك! وكنت سأسمح بأن تمزقه ألسنة السوط! لا، لا، لن يحدث شيء من ذلك..». تقبّلها مرة أخرى، وتُنهضها، وتُلبِسها ثيابها بنفسها، وتقول لها ألطف الأشياء، وتعفيها من الصلوات وترسلها إلى حجرتها. لا يرتاح الإنسان أبداً مع هؤلاء النساء؛ لا تعرف أبداً ما الذي يسرّهن وما الذي يزعجهن، ما الذي يجب تجنبه، وما الذي يجب فعله؛ لا شيء مضبوط، فإما أن يقدّم لك ما يفوق حاجتك، أو تموت جوعاً. فيختل اقتصادُ الدير، وتُستخدَم وسائل التعنيف بإفراطٍ أو يتم إهمالها. ومع رئيسةِ ديرٍ بهذه

1– تسريحة يجمع فيها الشعر ويرفع خلف أو أعلى الرأس.

المواصفات إما أن تكون قريباً جداً منها، أو بعيداً جداً عنها؛ فلا مسافةَ حقيقية ولا قياس؛ تنتقل بين كونك مقرّباً أو مغضوباً عليك، دون أن تعرف لماذا. هل تريدني أن أعطيك مثالاً عاماً عن إدارتها من خلال شيء صغير؟ كانت تهرع، مرتين في السنة،من حجرة إلى حجرة لتأمر بالتخلّص من جميع زجاجات الليكور التي تجدها، عبر النوافذ، وبعد أربعة أيام، تقوم هي نفسها بإرسال بعض من هذه المشروبات إلى معظم راهبات ديرها. تلك هي من قدّمتُ لها نذور طاعتي الرسمي. فنحن نحمل نذورنا من دير إلى دير.

دخلتُ معها. كانت تقودني حاضنةً إياي من وسطي. قُدّمتْ وجبة خفيفة من الفاكهة وحلوى اللوز والمربّيات. بدأ رئيس الشمامسة الرصين يمتدحني، فقاطعتْه قائلةً: «لقد أخطأن بحقها، أخطأن بحقها، أعرف ذلك..». أراد رئيس الشمامسة الرصين الاستمرار فقاطعته الرئيسة مجدداً بقولها: «كيف تخلّين عنها؟ إنها التواضعُ والرقة عينُهُما؛ ويقال بأنها مليئة بالمواهب..». أراد رئيس الشمامسة الرصين استئناف كلماته الأخيرة فقاطعته الرئيسة أيضاً وهي تهمس في أذني بصوت خفيض: «أحبكِ حتى الجنون، وعندما ينصرف هؤلاء المتحذلقون، سأستدعي أخواتنا، وستغنين لنا أغنية صغيرةً، أليس كذلك؟» أخذتْني رغبةٌ بالضحك، وانتاب السيدَ الرصين هيبير بعضُ ارتباك. راح مساعداه الشابان يتبسمان لارتباكه وارتباكي. لكن السيد هيبير عاد إلى أسلوبه المعتاد، فأمرها فجأةً بالجلوس وألزمها بالصمت. جلستْ لكنها لم تكن مرتاحةً، وكانت تتململ في مكانها، تحك رأسها، تسوّي ثيابها حيث لا تحتاج إلى تسوية، وتتثاءب. ومع ذلك خطب رئيس الشمامسة بإطناب عن الدير الذي غادرْتُه وعن المضايقاتِ التي تعرضتُ لها وعن الدير الذي أدخل إليه والالتزامات المترتبة عليّ إزاء الأشخاص الذين قدموا لي خدماتهم. في تلك اللحظة نظرتُ إلى السيد مانوري، فغضّ نظره نحو الأسفل. أصبح الحديث عندئذ أكثر عمومية، وانتهى الحظرُ الشاقّ المفروض على رئيسة الدير. اقتربتُ من السيد مانوري، وشكرتُه على الخدمات التي أسداها لي. كنت أرتجف، وأتلعثم لا أدري بأيّ ردّ جميلٍ أعاهدُه. وقد نطقَت حالتي كلُّها، باضطرابي وتشوشي وتأثري، فقد كنت متأثرة حقاً في مزيج بين الدموع والفرح، على نحو أفضل بكثير من الكلام الذي كنت سأقوله. لم يكن ردُّه أشدّ

ترتيباً من قولي، فقد كان مضطرباً بقدر ما كنت، ولم أعرف ما الذي قاله، لكنني فهمتُ بأنه يكون قد كوفئ بأكثر مما يستحق إذا استطاع التخفيف من قسوة مصيري، وبأنه سوف يَذكر ما فعله بسعادة أكبر من سعادتي، وبأنه حزين حقاً لأن مشاغله التي تربطه بقصر العدل في باريس ستَمنعه من التردد إلى دير أرباجون، ولكنه يأمل بأن يأذن له السيد رئيس الشمامسة ورئيسة الدير بالاستعلام عن صحتي وعن وضعي.

لم يسمع رئيس الشمامسة هذا الكلام لكن رئيسة الدير أجابت: «سيدي، لك ذلك متى شئت. إنها ستفعل كل ما يروق لها؛ وسنحاول هنا محو الأحزان التي سُبِّبت لها..». ثم توجهتْ إليّ بصوت خفيض جداً: «عانيتِ إذن حقاً يا طفلتي؟ ولكن كيف وجدتْ تلك المخلوقاتُ في لونشان الشجاعة لإساءة معاملتك؟ لقد عرفتُ رئيستكِ، كنا نزيلتي الدير نفسه في بور رويّال، وكانت الأخريات يجدنها فظيعة. سيكون لدينا متّسع للقاء، فتَروين لي كل ذلك..». وأثناء نطقها بتلك الكلمات، أمسكت بيدي، وراحت تربت عليها بضربات خفيفة. أسمعَني القسيسان الشابان أيضاً كلاماً مادحاً. كان الوقت قد تأخر فاستأذن السيد مانوري بالانصراف، ومضى رئيس الشمامسة ومعاوناه إلى حيث دُعُوا عند السيد××× سيدِ أرباجون، وبقيتُ وحدي بصحبة رئيسة الدير؛ ولكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد هرعتْ نحونا، بلا نظام، جميعُ الراهبات والمستجدات والنزيلات. وخلال لحظة وجدتُ نفسي محاطةً بنحو مئة شخص ولا أعرف على مَن أردّ. كانت هناك وجوه من كل صنف وكلام من كل لون، ولاحظتُ بأنهن لم يكنّ مستاءات من أجوبتي ولا من شخصي.

بعدما دامت هذه الندوة المزعجة بعض الوقت، وأُشبِع الفضول الأول، قلّ عدد المحتشدات، وأبعَدت الرئيسةُ من تبقّى، وجاءت بنفسها لكي تساعدني على تجهيز حجرتي للإقامة. قامت بهذا الفعل التكريمي على طريقتها. أشارت إلى المصلى وقالت: «هنا سوف تصلي صديقتي الصغيرة إلى الله. أريد وضع وسادة فوق هذه المرقاة كيلا تُجرح ركبتاها الصغيرتان. لا يوجد ماء في هذا الجرن. الأخت دوروتي هذه تنسى دوماً شيئاً ما. جربي هذه الكنبة وانظري إذا كانت مريحة لك..». أجلستني وهي تقول ذلك،

وأمالت لي رأسي فوق المسند وطبعَتْ قبلة فوق جبيني. اتجهتْ إلى النافذة لتتأكد من سهولة فتحها وإغلاقها، ثم إلى سريري، وسحبتْ ستائره لتتأكد من إمكانية إغلاقها جيداً. عاينَت الأغطية «إنها جيدة». تناولت المخدة وضغطتْ عليها وقالت: «سيرتاح هذا الرأس العزيز جداً فوق هذه المخدة. هذه الملاءات ليست ناعمة لكنها ملاءات الدير؛ هذه الفرُش جيدة.». جاءت بعد ذلك إليّ فقبّلتني، وانصرفتْ. أثناء ذلك المشهد كنت أقول في سري: «يا للمخلوقة المجنونة!» وتوقعتُ أياماً جيدة وأياماً رديئة.

رتبتُ أموري في حجرتي. حضرت صلاة المساء ووجبة العشاء والاستراحة التي تلته. واقتربتْ مني بعض الراهبات، وابتعدت أخريات. اعتمدتْ أولئك على حمايةِ الرئيسة لي، وتخوفتْ هؤلاء من التمييز الذي آثرَتْني به. مرت تلك اللحظات الأولى بمدائح متبادلة، وأسئلة عن الدير الذي غادرتُه، واختبارات تمتحن طباعي وأهوائي وميولي وذكائي: يتم امتحانك من كل ناحية. إنها سلسلةُ فِخاخ صغيرة ينصبْنها لك، وتُستخلص منها أكثر الاستنتاجات صِحةً. مثلاً، يلقين أمامكَ بكلِمة اغتياب، وينظرن إليك. يبدأن بسرد قصة وينتظرن منك طلبَ إكمالها أو ترْكِها. تقولُ كلاماً عادياً، فيجدنه ساحراً، وهن يعلمن جيداً بأنه ليس كذلك. يمدحنك، أو يؤنّبنك عن عَمْد؛ يحاولن كشف أشد أفكارك سريةً؛ يسائلنك عن قراءاتك، يقدمن لك كتباً مقدسة وكتباً مدنسة، ويسجلن خيارك؛ يدعينك إلى خروقٍ خفيفة للقواعد، يبُحن لك بأسرار، يلقين إليك بكلمات عن انحرافات رئيسة الدير. يتم جمع كل شيء، والطعن في كل شيء. يغادرنك ثم يَعُدن إليك، لسبُرْنَ مشاعرك إزاء الأعراف والتقوى والعالم والدين والرهبنة، وكل شيء. ومن هذه الاختبارات المكررة تُستخلص صفةٌ تُميِّزُك ليُلحِقنها باسمك كلقبٍ. هكذا سُميتُ باسم سانت سوزان المتحفّظة.

في المساء الأول زارتني رئيسة الدير وقت خلعِ ملابسي؛ فكانت هي التي نزعت عني غطاء رأسي وإسكيمي، وألبستني قبعة النوم. وهي التي نزعت عني ثوبي، ثم أسمعتني مئات الكلمات الناعمة، ولاطفتني بأرقّ المداعبات التي لا أدري لماذا أحرجَتْني قليلاً، لأنني لم أفهم منها شيئاً، ولا هي فعَلَتْ. والآن بالذات وأنا أفكر فيها، أتساءل كيف عسانا

كنا سنؤوّلها؟ كلّمتُ مرشدي في الأمر، وتَعامَل مع هذا التباسُط الذي بدا ومازال يبدو لي بريئاً، بجدية بالغة ومنعني بصرامة من التمادي فيه. قبّلتْ عنقي وكتفيّ وذراعيّ، مدحَت امتلائي ونحافةَ خصري، وأرقدتْني في السرير. رفعتْ أغطيتي فوقي من الجانبين، قبّلت عينيّ، أغلقت ستائري وانصرفت. نسيت أن أقول لك بأنها افترضت بأني متعبة، وأذِنت لي بالبقاء في السرير بقدر ما أشاء.

أفدتُ من إذنها. كانت تلك الليلة، على ما أظن، هي الليلة الوحيدة الهانئة التي أمضيها في الدير، ولكنني لم أُفلت منها تقريباً أبداً. في صباح اليوم التالي، حوالى الساعة التاسعة، سمعتُ طرقاً خفيفاً على بابي. كنت ما أزال راقدةً، أجبتُ فدخل الطارق. كانت راهبةً قالت لي بقدر من التبرُّم بأن الوقت تأخر، وأن الأم الرئيسة تطلبني. نهضتُ، ولبست ثيابي على عجل، ومضيت.

«صباح الخير يا طفلتي، قالت لي. هل أمضيت ليلة طيبة؟ هذه قهوة بانتظارك منذ ساعة، أظنها لذيذة؛ أسرعي بتناولها وبعدها نتحدث..». وفيما كانت تقول ذلك، فرشت منديلاً فوق الطاولة وآخر فوق حضني، صبت القهوة وحلّتْها بالسكر. كانت الراهبات الأخريات يفعلن الشيء نفسه في حجراتِ بعضهنّ الآخر. وأثناء فطوري حدثتني عن رفيقاتي، واصفةً إياهن حسب نفورها منهن أو ميلها لهن. قدّمتْ لي ألفَ عربون عن الودّ، وسألتني ألف سؤال عن الدير الذي تركتُه، عن أهلي وعن المضايقات التي وقعت لي. أشادت، واستنكرت على هواها، ولم تَسمع إجابتي حتى الآخر أبداً. لم أعترض قط على ما تقول. كانت سعيدة بنباهتي ومحاكمتي وتكتُّمي. في هذه الأثناء جاءت راهبة ثم تبعتْها أخرى ثم ثالثة فرابعة فخامسة. تكلمن عن طيور الراهبة الأم فلانة، عن جنون الراهبة فلانة، عن جميع الأشياء الصغيرة المضحكة للراهبات الغائبات. وساد جو من البهجة. لكن ذلك الحديث لم يسلّيني كثيراً نظراً لكَوني جديدةً في الدير، ولا أعرف أولئك اللواتي يتمازحن عليهن، وما كان لِيُسلّيني أكثر لو أنني عرفتُهن، لذا، وعلى سبيل التسلية، مررتُ بأصابعي فوق بيانو صغير كان في زاوية الحجرة. يحتاج المزاح الجيد للكثير جداً من النباهة، ثم مَن ذا الذي ليس لديه ما يُضحِك؟ رحت أعزف أنغاماً فيما

كن يتضاحكن؛ وبدأتُ شيئاً فشيئاً أجذب الانتباه. جاءت الرئيسة إليّ وناولتني ضربة خفيفة على كتفي: «هيا، سانت سوزان، سَلّينا قليلاً؛ اعزفي أولاً، وبعد ذلك غنّي. فعلتُ ما طلبته مني، فعزفتُ مقطوعات أُجيدها تماماً، وابتدعتُ تقسيماتٍ ثم غنيتُ بعضاً من أناشيد موندونفيل الدينية .

«رائع للغاية، قالت لي الرئيسة، لكن لدينا في الكنيسة بقدر ما نحب من المؤلفات الدينية؛ نحن بمفردنا، وهؤلاء صديقاتي، وسيكنّ صديقاتكِ أيضاً؛ غنّي لنا شيئاً أكثر مرحاً».

قالت بعض الراهبات: «ربما لا تعرف سوى ما عزَفَتْهُ. إنها تعبة من سفرها، ويجب ألاّ نرهقها. يكفيها هذه المرة.

– لا، لا، قالت الرئيسة، إنها تعزف وتغني على نحو رائع، ولديها أجمل صوت في العالم (والحقيقة أن صوتي ليس قبيحاً، ويمتاز بالأداء الصحيح والنعومة والطراوة أكثر مما يمتاز بالقوة والاتساع)، ولن أعفيها إلا إذا غنت لنا شيئاً آخر». شعرت بشيء من الإهانة من كلام الراهبات، فأجبتُ الرئيسةَ بأن هذا لم يعد يُسعِد الأخوات.

«لكنه ما زال يسعدني أنا».

توقّعتُ هذا الجواب. غنيت أغنية خفيفة لطيفة فصفقن جميعاً، أطرينني، ولاطفنني، وطلبن أغنية أخرى. إنها حركاتُ بشاشةٍ مصطَنعة أملاها جوابُ الرئيسة. لم يكن هنالك واحدة منهن لا تتمنى، لو استطاعت، انتزاعَ صوتي مني وكسر أصابعي. وأولئك اللواتي ربما لم يسمعن موسيقى في حياتهن، سمحن لأنفسهن أن يقلن عن غنائي كلماتٍ سخيفة بقدر ماهي مزعجة، لم تنخدع بها الرئيسة.

«اصمتن، قالت لهن، إنها تعزف وتغني مثل ملاك، وأريدها أن تأتي إلى هنا كل يوم. تعلمتُ في الماضي قليلاً على آلة الكلافسان، وأريدها أن تساعدني على استعادة ما تعلمتُه.

– سيدتي، قلت لها، الإنسان لا ينسى تماماً شيئاً تعلّمه...

– حسن جداً، أعطِني مكانك...

راحت تعزف، للتمهيد، أشياء جنونيةً عجيبةً مفكّكةً مثل أفكارها. لكنني رأيتُ من خلال كل عيوب أدائها، بأن يديها أكثر خفةً بكثير من يدي. وقلته لها، لأنني أحب الإطراء، ونادراً ما فَوّتُّ فرصة القيام به بصدق؛ إنه أمر في غاية الحلاوة! توارت الأخوات بعضهن إثر الأخرى، وبقيت تقريباً بمفردي مع الرئيسة، نتبادل الحديث عن الموسيقى. كانت جالسةً وكنتُ واقفة. أمسكتْ بيديّ وقالت لي وهي تشد عليهما: «وفوق إجادتها للعزف، لها أجملُ أصابع في الدنيا؛ انظري إذن يا أخت تيريز..». كانت الأخت تيريز تغض بصرها ويحمرُّ لونها وتتلعثم. ولكنْ، سواء كانت لي أصابع جميلة أم لا، وسواء كانت الرئيسة مخطئة أم مصيبة في ملاحظة ذلك، فما شأن تلك الأخت بذلك؟ راحت الرئيسة تقبّلني من منتصف جسدي، وتجد أن لي أجمل خصر. كانت قد سحبتني إليها وأجلستني فوق ركبتيها؛ رفعتْ لي رأسي بيديها ودعتني للنظر إليها؛ راحت تمتدح عينيّ وفمي وخدّيّ وبشرتي؛ لم أجب بشيء، كنت أغض نظري وأستسلم لكل تلك الملاطفات مثل حمقاء. كانت الأخت تيريز شاردةً قلقة، تتمشى يميناً ويساراً، تلمس كل شيء دون حاجة، لا تدري ماذا تفعل بنفسها، تنظر من النافذة، وتظن أنها سمعت طرقاً على الباب؛ تقول لها الرئيسة: سانت تيريز، يمكنك الانصراف إذا كنت تشعرين بالضجر.

– سيدتي، أنا لا أشعر بالضجر.

– الأمر هو أن لدي ألف سؤال أسأله لهذه الفتاة.

– أظن ذلك.

– أريد معرفة كل قصتها. كيف لي أن أداوي الآلام التي سُببت لها إذا كنت أجهلها؟ أريدها أن ترويها لي دون إهمال شيء. أنا متأكدة من أن هذا سيمزق قلبي ويبكيني، ولكن، ما همّ: سانت سوزان، متى سأعرف كل شيء؟

– عندما تأمرين بذلك سيدتي.

– سأرجوك أن تفعلي بعد قليلٍ إذا كان لدينا وقت. كم الساعة؟... أجابت الأخت تيريز: «إنها الخامسة يا سيدتي، سيقرع جرس صلاة العصر بعد قليل.

– فلتبدأ كالمعتاد.

– ولكنك يا سيدتي وعدتِني بلحظة من المؤاساة قبل الصلاة. لدي أفكار تقلقني وأريد حقاً أن أفتح قلبي لأمي. وإذا ذهبتُ إلى الصلاة دون ذلك، فلن أستطيع أن أصلي، سأكون شاردة الذهن.

– لا، لا، قالت الرئيسة، إنك مجنونة مع أفكارك. أراهن بأنني أعرف ماهي. سنتكلم في الأمر غداً.

– آه يا أمي العزيزة، قالت الأخت تيريز وهي ترتمي عند قدمي الرئيسة، ذارفةً دموعاً غزيرة، ليكن ذلك بعد قليل.

– سيدتي، قلتُ للرئيسة وأنا أنهض عن ركبتيها، امنحي أختي ما تطلبه؛ لا تجعلي ألمها يدوم؛ أنا سأنسحب، وسوف أجد دوماً الوقت لإرضاء اهتمامكِ بي، وعندما تُصغين إلى الأخت تيريز ستتوقف معاناتُها..». تحركتُ خطوة باتجاه الباب لكي أخرج، فاستوقفتني الرئيسة بإحدى يديها؛ وكانت الأخت تيريز، الجاثية على ركبتيها، قد تشبثت بالأخرى وراحت تقبلها وتبكي، والرئيسة تقول لها: «في الحقيقة، سانت تيريز، إنك تُثقلين علي بمخاوفك. سبق أن قلت لك أن هذا لا يروق لي، هذا يزعجني، ولا أريد أن أنزعج.

– أعرف، ولكنني لا أستطيع التحكم بعواطفي. أود ذلك لكنني لا أستطيع أن..».

انسحبتُ في تلك الأثناء وتركتُ الراهبة الشابة مع الرئيسة. لم أستطع منع نفسي من النظر إليها في الكنيسة. بقيتْ عليها آثار إحباط وحزن. التقت عيونُنا عدة مرات وبدا لي أنها كان يشقّ عليها تَحمُّل نظرتي. أما الرئيسة فقد غفت في مقعدها.

أُنهيت الصلاة في غمضة عين. بدا لي أن خورس الكنيسة ليس المكان المفضّل للراهبات في الدير. لقد خرجن منه مسرعات وهنّ يزقزقن مثل سربِ عصافيرٍ تَفرّ من مطيرتها، وانتشرت بعضهن عند البعض الآخر، وهن يتراكضن ويتضاحكن ويتكلمن. دخلت الرئيسة حجرتها وأغلقت على نفسها، وتريّثَت الأخت تيريز عند بابها وهي تراقبني كما لو أن بها فضولاً لمعرفة ما الذي سأفعله. دخلتُ حجرتي، ولم ينغلق باب الأخت تيريز إلا بعد حين، وتم إغلاقه برفق. خطرت لي فكرة أن هذه الشابة تشعر بالغيرة مني، وتخشى أن أخطف منها مكانها بين المقرّبات من الرئيسة وأثيراتها. راقبتُها عدة أيام

متتالية، وحين ظننت بأنني على يقينٍ كافٍ من شكي من خلال فورات غضبها الصغيرة، وعلامات جَزَعها الصبيانية، ومثابرتها على اقتفاء أثري وتفحُّصي بالنظر، والتواجد بيني وبين الرئيسة، وقطْع أحاديثنا، والحط من مزاياي وإبراز عيوبي، وأكثر من هذا من خلال شحوبها وألمها ونوبات بكائها واعتلال صحتها، وحتى اعتلال ذهنها، ذهبتُ إليها، وقلت لها: «ما بك يا صديقتي العزيزة؟» فلم تجبني. لقد باغتَتْها زيارتي وأحرجَتْها، فلم تعرف ماذا تقول ولا ماذا تفعل.

«أنت لست منصفةً معي، قولي لي بصدق، أنت تخشين أن أُسيء استغلال الميل الذي تظهره أمّنا إليّ، فأُنَحّيكِ من قلبها. اطمئني، هذا ليس من طبعي. وإذا منحني الله سعادةَ أن يكون لي تأثيرٌ ما في نفسها...

– سيكون لك ذلك بقدر ما تريدين، فهي تحبك، وتفعل لأجلك اليوم بالضبط ما فعلَتْه لأجلي في البدايات.

– حسناً، تأكدي إذن من أنني لن أستخدم ثقتها بي إلاّ لكي أجعلكِ أغلى على قلبها.

– وهل بمقدورك ذلك؟

– ولِمَ لا ؟»

وبدلاً من أن تجيبني، ألقت بنفسها عليّ وتعلقت برقبتي قائلةً لي وهي تتنهد: «الذنب ليس ذنبك، أعرف ذلك جيداً، أقوله لنفسي كل لحظة؛ ولكن عِديني...

– بماذا تريدينني أن أعدك؟

– بأن...

– أكملي، سأفعل كل ما أستطيع».

ترددتْ، غطت عينيها بيديها وقالت لي بصوتٍ منخفض إلى درجة أنني ما كدت أسمعها «بأنك سوف تقللين لقاءاتك معها بقدر ما تستطيعين..».

بدا لي ذلك الطلب من الغرابة بحيث لم أستطع منع نفسي من أن أجيبها: «وماذا يهمك إذا التقيتُ برئيستنا كثيراً أو قليلاً؟ أنا لا يغضبني أن تلتقي بها باستمرار، ويجب ألاّ يغضبك أن أفعل الشيء نفسه. ألا يكفي تأكيدي لك بأنني لن أؤذيك عندها، لا أنت ولا أحد غيرك؟

لم تجبني إلاّ بهذه الكلمات التي نطقت بها بألم شديد وهي تنفصل عني وتلقي بنفسها فوق سريرها: «لقد هلكْتُ!

– هلكتِ! ولماذا؟ لا بد أنك تظنين بأنني أسوأ مخلوق في العالم!»

كنا عند هذا الحد عندما دخلت رئيسة الدير. كانت قد مرّت بحجرتي ولم تجدني فيها، فجالت الدير كله تقريباً، دون جدوى. لم يخطر ببالها بأنني عند سانت تيريز، وحين علمتْ بذلك من خلال مَن أرسلَتْهن للبحث عني، أَقبَلت مسرعةً. كان في نظرتها وعلى وجهها بعض الاضطراب؛ لكنها كشخص، نادراً جداً ما تكون على ما يرام! كانت سانت تيريز الصامتة جالسةً فوق سريرها، وأنا واقفة. قلتُ لها: «أمي العزيزة، أطلب عفوك لمجيئي إلى هنا من دون إذنك.

– صحيح أنه، أجابتني، كان من الأفضل أن تستأذني.

– لكن هذه الأخت العزيزة أثارت تعاطفي. رأيتُ أنها متألمة.

– وممّ؟

– هل أقول لك؟ ولَم لا ؟ إنها عاطفة رقيقة تزدان بها روحها، وتدل بقوة على تعلقها بكِ. لقد أثار حسنُ معاملتك لي فزعَها، فخافت أن تُؤْثِريني بمحبتك عليها. شعور الغيرة هذا، الذي هو أساساً صادقٌ جداً وطبيعي جداً ومُطْرٍ جداً لك أيتها الأم العزيزة، قد أصبح، على ما بدا لي، مؤلماً بالنسبة لأختي، وكنتُ أطمئنها».

بعد أن استمعت الرئيسة لي، اتخذت هيئةً قاسية وصارمة وقالت لها:

«أخت تيريز، لقد أحببتك، وما زلت أحبك. ليس هناك ما أشكوه منك، ولن يكون هناك ما تشتكينه مني، لكنني لا أطيق هذه المطامح الاستئثارية. كفّي عنها إذا كنت تخشين من إطفاء ما بقي لي من عاطفة نحوك، وإذا كنت تتذكرين مصير الأخت أغاثا..». ثم قالت لي وهي تستدير نحوي: «إنها تلك السمراء الطويلة التي ترينها أمامي في الخورس. (لم أكن أعرف جميع أسماء رفيقاتي نظراً لقلة اختلاطي بالراهبات، ومضيّ وقتٍ قصير على وجودي في الدير.) أضافت: «كنت أحبها عندما دخلت الأخت تيريز إلى هنا وبدأتُ أتعلق بها. عانت أغاثا من المخاوف ذاتها وأظهرَت الجنونَ نفسه: نَبّهتُها لكنها لم تُراجع

سلوكها، فاضطررتُ للجوء إلى وسائل صارمة ومناقضة لطبعي، دامت أطول مما يجب. سوف يقلن لك جميعاً بأنني طيبة ولا أُعاقِب أبداً إلا كارهةً..». ثم أضافت مخاطبةً سانت تيريز «سبق أن قلت لك يا ابنتي، لا أريد التعرُّض للإزعاج. أنت تعرفينني، فلا تُخرجيني عن طوري..». ثم قالت لي مسندةً يدها على كتفي: «تعالي سانت سوزان، رافقيني»

خرجنا، وأرادت الأخت تيريز اللحاق بنا، لكن الرئيسة أدارت رأسها بلا اكتراث من فوق كتفي وقالت لها بنبرة مستبدة: «عودي إلى حجرتك، ولا تخرجي منها دون إذني..». أطاعت، وأغلقت بابها بعنف، وفرّ منها كلام جعل الرئيسة ترتعد دون أن أعرف لماذا، كوْنُه كان بلا معنى. رأيتُ غضبها وقلتُ لها: «أمي العزيزة، كرامة لي، سامحي الأخت تيريز، لقد فقدتْ صوابها فلا هي تعرف ما تقول، ولا ما تفعل.

– أسامحها! أود ذلك حقاً، ولكن ماذا ستعطينني؟

– آهٍ يا أمي العزيزة، كم سأكون سعيدةً إذا كان لديّ ما يروق لك ويهدئ غضبك؟»

غضت بصرها، واحمر وجهها وتنهدَتْ؛ كانت في الحقيقة مثل العاشق.

قالت لي بعد ذلك وهي ترتمي عليّ مجدداً بِتَراخ كَمَنْ أغمي عليه: «قرِّبي جبينك لأقبله... انحنيت، وقبّلتْ لي جبيني. منذ ذلك الوقت، أصبحتُ، حالما تخطئ راهبةٌ، أتدخّل لصالحها، واثقةً من حصولي على العفو عنها بملاطفةٍ بريئة كانت دوماً قبلة على الجبين أو العنق أو العينين أو الخدين أو الفم أو اليدين أو الصدر أو الذراعين، ولكن في أغلب الأحيان على الفم. كانت تجد أن لي أنفاساً صافية وأسناناً بيضاء وشفتين نديّتين وقرمزيتين. وسأكون في الحقيقة جميلةً حقاً إذا كنت أستحق جزءاً صغيراً من إطراءاتها لي: فإذا تعلق الأمر بجبيني كانت تقول لي إنه أبيض صقيل جذاب الشكل، وبعينيّ إنهما براقتان، وبخدّيّ إنهما قرمزيان وناعمان، وبيديّ إنهما صغيرتان وممتلئتان، وبصدري إنه صلب كالحجر و باهر التكوين، وبذراعيّ فمن المستحيل أن تكونا أحسن سبكاً وأفضل استدارة، وبرقبتي، فليس لأي من الأخوات رقبة أحسن تكويناً ولها هذا الجمال الأكثر رهافة وندرة، ولا أدري كل ما كانت تقوله لي! كان هناك شيء حقيقي في مدائحها، وكنت أقلل من قيمة الكثير منها ولكن ليس كلها. كانت أحياناً تقول لي وهي تنظر إلي

برضىً لم أره على أية امرأة أخرى: «لا، إن دعوة الله لك لاعتزالِ العالم هي أعظمُ سعادة؛ لأنك، بهذا الوجه، ستحكمين بالعذاب على كل من تلتقيهم من رجال في العالَم، وعلى نفسِك معهم. إن الله يُتقن ما يصنعه».

كنا في تلك الأثناء نتقدم نحو حجرتها، وكنتُ أستعدّ لتركِها، لكنها أمسكتني من يدي وقالت لي: «الوقت متأخر جداً لتروي لي قصتك في سانت ماري ولونشان، لكن ادخلي، وأعطني درساً على الكلافسان». فتبعتُها. ونتيجة حيويّتها، قامت، خلال لحظة، برفع غطاء الكلافسان، وتجهيز كتاب، وتقريب كرسيّ. فجلستُ. ظنتْ ربما بأنني بردانة، فأخذتْ من فوق المقاعد وسادةً وضعتْها أمامي، ثم انحنت لتمسك بقدميّ وتضعهما فوق الوسادة، ثم قعدت خلف الكرسي واتكأت إلى مسندها. بدأتُ ببضع نغمات، ثم عزفت مقطوعات لـِ كوبران و رامو و سكارلاتي. كانت في تلك الأثناء قد رفعت ثوبي عند الرقبة ووضعت يدها فوق كتفي العاري، ملامِسةً جيدي برؤوس أصابعها. كانت تتنهد وكأنّ ضيقاً يطبق على صدرها؛ ثم راحت أنفاسها تضطرب. كانت اليد التي وضعتْها فوق كتفي تضغط عليه بقوة في البداية ثم كفّت، كأنها باتت بلا قوة ولا حياة، ومال رأسها ليسقط فوق رأسي. في الحقيقة، كان لتلك المخبولة حساسية لا تُصدّق، وحبٌّ شديد للموسيقى. لم أر مثل هذا التأثير الفريد للموسيقى على أحد قط.

كنا نستمتع بهذه الطريقة البسيطة والرقيقة، عندما انفتح الباب بعنف. خِفتُ كما خافت الرئيسةُ أيضاً؛ كانت تلك هي سانت تيريز، الراهبة غريبة الطبع؛ كان ثوبها في حالة فوضى وعيناها مضطربتين. راحت تنقِّل نظرها بيننا بانفعالٍ لا يُصدّق. كانت شفتاها ترتجفان ولا تستطيع الكلام، لكنها تمالكت نفسها، وارتمت عند قدمي الرئيسة متوسّلةً العفو. انضممتُ إليها في توسلها وحصلتُ لها أيضاً على العفو؛ لكن الرئيسة أكدت لها بأشد الطرق حزماً بأنه سيكون الأخير، على الأقل من أجل خطيئات من هذا النوع، وخرجنا كلتانا معاً. قلت لها ونحن عائدتان إلى حجرتينا: «خذي حذرك يا أختي العزيزة، إنك تكدّرين أمّنا؛ لن أتخلى عنك، ولكنك ستؤثرين على مصداقيتي عندها، وسأصاب بالقنوط إذا لم أعد قادرة على فعل شيء لأجلك، أو لأجل أي راهبة غيرك.

ولكن ما الأفكار التي تراودك؟ لا جواب.

«ما الذي تخشينه من جانبي؟» لا جواب.

«ألا تستطيع أمُنا أن تحبنا أنتِ وأنا بالتساوي؟

– لا، لا، أجابتني بعنف. هذا غير ممكن؛ وعما قريب سوف تنفر مني وسأموت من الألم. آه، لماذا أتيتِ إلى هنا؟ لن تبقي سعيدة وقتاً طويلاً، أنا متأكدة من ذلك، وسأكون أنا تعيسة إلى الأبد.

– أعرف، قلتُ لها، ما يعنيه لراهبة فقدانُ الحظوة عند رئيسة ديرها، من تعاسة كبيرة، ولكنني أعرف تعاسةً أكبر، هي تعاسةُ حصولِها على هذه الحظوة: ليس هناك ما تلومين نفسك عليه.

– آ! حمداً لله!

– إذا كنت تتّهمين نفسك بخطأ ما، فعليك تصحيحه، وأضمن وسيلة هي أن تتحملي عقوبته بصبر.

– لا أدري، لا أدري؛ ثم هل يعود إليها أمر معاقبتي على ذلك!

– إليها، أخت تيريز، نعم إليها! هل نتكلم هكذا عن رئيسة الدير؟ هذا لا يليق؛ إنك تنسين نفسك، وأنا متأكدة من أن هذه الخطيئة أكبر من أيٍّ من الأخطاء التي تتّهمين نفسك بها.

– آ! حمداً لله! قالت لي مرة أخرى، حمداً لله!..». وافترقنا. ذهبت هي إلى حجرتها لكي تتأسف، وأنا إلى حجرتي لكي أتأمل في عجائب عقول النساء.

ذاك هو أثر الاعتزال. يولد الإنسان لكي يعيش في المجتمع، وإذا فُصل عنه، إذا عُزل، تفككت أفكاره، وانحرفت طباعه، ونشأ في قلبه ألفُ انفعالٍ سخيف، وولدت في نفسه أفكار شاذة، مثل الأشواك في أرض بور. ضع الإنسان في غابة، يصبح ضارياً. والوضع أسوأ في الأديرة حيث تقترن فكرةُ الضرورة بفكرة العبودية. فأنت تخرج من الغابة، لكنك لا تخرج من الدير؛ أنت حر في الغابة وعبد في الدير. ربما يحتاج الإنسان إلى قوة الروح من أجل مقاومة العزلة، أكثر مما يحتاجه من أجل مقاومة الفقر. الفقر يذِلّ والعزلة

تُفسد العقل. هل الأفضل أن تعيش ذليلاً أم مجنوناً؟ هذا هو ما لا أجرؤ أن أقرره. ولكن يجب تجنب هذا وذاك. كنت أرى العاطفة التي تكنها لي الرئيسة، تنمو يوماً بعد يوم. كنا على الدوام إمّا أنا في حجرتها أو هي في حجرتي. وعند أقل وعكة تلم بي كانت تأمرني بالذهاب إلى العيادة، وتعفيني من الصلوات وترسلني لأنام باكراً، أو تمنعني من صلاة الصبح. وفي الخورس أو المطعم أو الاستراحة، كانت تجد السبيل لتظهر لي إشارات الود. في الخورس، إذا وردت آية فيها عاطفة محبة وحنان، كانت ترتّلها موجّهةً إلي، أو تنظر إليّ إذا رتّلتْها راهبةٌ غيرُها. وفي المطعم، كانت ترسل لي دوماً شيئاً من الطيبات التي تقدم إليها. وفي الاستراحة، تقبّلني من وسط جسمي وتقول لي أعذب الكلمات وألطفها. ما كان يُهدى إليها شيء إلاّ وتقتسمه معي: شوكولا، قهوة، ليكور، تبغ، بياضات، مناديل، أي شيء. نزعَتْ من حجرتها أدواتِ رشم ومواعين وقطع أثاث وعدداً لا يحصى من الأشياء اللطيفة أو المريحة لكي تزين بها حجرتي. لم أكن أتغيب عن حجرتي لحظة تقريباً إلا وجدتُ عند عودتي إليها بأنه قد أُضيف إليها شيء ما. كنتُ أذهب لشكرها في حجرتها، فتشعر بفرح لا يوصف، فتقبّلني وتُجلسني فوق ركبتيها، وتحدّثني عن أشد أمور الدير سريّةً، وتُمنّي نفسَها بحياة أسعد ألف مرة من حياةٍ كان يُحتَمَل أن تعيشها خارج الدير، إذا أحببتُها. بعدها تتوقف وتنظر إلي بعينين مترفِّقتين وتقول لي: «أخت سوزان، هل تحبينني؟

– وكيف لي ألاّ أحبك؟ سأكون جاحدةً قاسية إن لم أفعل.

– هذا صحيح.

– تملكين الكثير من الطيبة.

– بل قولي من الحب لك..».

وعند نطقها بهذه الكلمات أرْختْ بصرها، وشدّتني أكثر باليد التي تلفّني، وضغطت أكثر باليد التي وضعتْها فوق ركبتي؛ ثم جذبتني نحوها فالتصق وجهي بوجهها، وتنهدت ومالت على مقعدها إلى الوراء، وارتجفت وكأن لديها شيئاً تسرِّ به إلي ولا تجرؤ، وذرفت الدمع ثم قالت لي: «آهٍ يا أخت سوزان، أنت لا تحبينني!

– أنا لا أحبك أيتها الأم العزيزة؟

– لا.

– قولي لي ما الذي يجب أن أفعله لكي أثبت لك ذلك؟

– يجب أن تحزري.

– أحاول أن أحزر ولا أصل إلى شيء».

كانت في تلك الأثناء قد كشفت عن رقبتها ووضعت إحدى يديّ فوق صدرها وصمتتْ. صمتُّ أنا أيضاً. بدت كمَنْ يستمتع أعظم الاستمتاع. دعتني لتقبيلها من جبينها وخدّيها وعينيها وفمها، وأطعتُ، ولم أظن بأن في ذلك سوءاً. كانت متعتها تزداد. وبما أني لم أَنشُد شيئاً سوى إسعادها أكثر على نحوٍ بريءٍ كل هذه البراءة، فقد قبّلت جبينها وخديها وعينيها وفمها مرة أخرى. راحت اليدُ التي وضعَتْها فوق ركبتي تجول فوق ثيابي بدءاً من أطراف قدمي وحتى حزامي، ضاغطةً عليّ مرةً هنا ومرة هناك. وبصوت مشوّه وخفيض كانت تحضّني على مضاعفة ملاطفاتي لها، فأضاعِفُها. أخيراً جاءت لحظة، لا أدري إن كانت لحظة متعة أم ألم، امتقع فيها لونها، وانغلقت عيناها، وتوتر جسدها كله بعنف، وانغلقت شفتاها وبلّلهما شيءٌ يشبه الزبد الخفيف. ثم انفتح فمها قليلاً، وبدت لي كأنها تموت وهي تطلق تنهيدة عميقة. نهضتُ فجأةً، وظننتُ بأنها ليست على ما يرام. أردتُ أن أخرج وأنادي. فتحتْ عينيها بضعف وقالت لي بصوت مطفأ: أيتها البريئة! ليس بي شيء. ماذا تفعلين؟ توقّفي..». رحت أنظر إليها بعينين مفتوحتين على وسعهما من الدهشة، غير متأكدة إن كان عليّ البقاء أو الخروج. فتحتْ عينيها ثانيةً، ولم تعد تستطيع الكلام. أشارت لي أن أقترب وأعود للجلوس فوق ركبتيها. لا أدري ما الذي كان يجري بداخلي. كنت أشعر بالخشية والشك. كنت أرتجف وقلبي يدق، وأجد مشقة في التنفس. كنت أشعر بأنني مشوشةٌ مخنوقةٌ ومضطربة. كنت خائفة، وبدا لي بأن قواي تهجرني وسوف يغمى علي. إلا أنني لا يمكنني القول بأن ما شعرتُ به هو الألم. اقتربت منها. أشارت لي بيدها أيضاً أن أجلس فوق ركبتيها. جلستُ. كانت أشبه بالميتة وكنت كمن يوشك على الموت. بقينا، أنا وهي، على هذه الحال الفريدة وقتاً ليس بالقصير. ولو

حضرت إحدى الراهبات بغتةً، لشعرتْ بالخوف حقاً. كان سيخيل إليها بأننا قد أغمي علينا أو بأننا نائمتان. لكن تلك الرئيسة الطيبة، لأنه من المستحيل أن يكون الإنسان بهذه الحساسية ولا يكون طيباً، بدأت تتمالك نفسها. كانت ما تزال تُسْنِدُ رأسها إلى الخلف على مسند المقعد مغمضة العينين، لكن وجهها كان قد عاد وتلوّن بأجمل الألوان. تناولَتْ إحدى يديّ وقبّلتْها. قلت لها: «آه أيتها الأم العزيزة، لقد أخفتني حقاً». ابتسمتْ قليلاً دون أن تفتح عينيها. «ولكن، ألم تتألّمي؟

- لا.

- ظننت ذلك.

- أيتها البريئة! آهٍ للبريئة الغالية! كم تعجبني!»

نهضتْ وهي تقول هذه الكلمات وعادت للجلوس على مقعدها، طوقتني بذراعيها وقبلتني بقوة فوق خدّيّ، ثم قالت لي:

«كم عمرك؟

- لم أبلغ التاسعة عشرة بعد.

- هذا غير ممكن.

- إنها الحقيقة أيتها الأم العزيزة.

- أريد معرفة كل شيء عن حياتك. هل ستحكيها لي؟

- نعم، أيتها الأم العزيزة.

- كلها؟

- كلها.

- ربما يأتي أحد. هيا نجلس إلى الكلافسان لتعطيني درساً».

ذهبنا. لكنني لا أعرف ما الذي حدث؛ كانت يداي ترتجفان، ولا أرى على الورق سوى ركام مختلط من العلامات الموسيقية. لم أستطع العزف أبداً. قلت لها ذلك فراحت تضحك. أخذتْ مكاني، لكن حالها كان أسوأ، فما كانت قادرة على رفع ذراعيها.

«بنيّتي، قالت لي، أرى أنك لست في حال تمكّنِكِ من شرح شيء، ولا أنا في حال

تمكّنني من التعلُم. أنا تعبة قليلاً، ويجب أن أرتاح. وداعاً. غداً، دون مزيد من التأخير، أريد معرفة كل ما جرى داخل هذه النفس الصغيرة العزيزة. وداعاً..».

في المرات الأخرى، كانت ترافقني حتى بابها عندما أخرج، وتتابعني بعينيها على طول الممر حتى بابي. ترمي لي قبلةً بيديها، ولا تدخل حجرتها إلاّ عندما أدخل حجرتي. هذه المرة، ما كادت تنهض. وكل ما استطاعت فعله هو الانتقال إلى المقعد المجاور لسريرها. جلستْ ومالت برأسها فوق وسادتها وألقت إليّ بالقبلة بيديها ثم أغمضت عينيها، فانصرفتُ.

تقع حجرتي مقابل حجرة سانت تيريز تقريباً. كان بابها مفتوحاً، وكانت بانتظاري. أوقفَتْني وقالت:

«آ، سانت سوزان، أنت قادمة من عند أمّنا؟

– نعم، قلتُ لها.

– بقيت هناك طويلاً.

– بقيتُ بقدر ما أرادت مني البقاء.

– ليس هذا ما وعدتِني به.

– لم أعدك بشيء.

– هل تجروئين أن تقولي لي ما الذي فعلته هناك؟

ورغم أن ضميري كان مرتاحاً، فإنني أعترف لك، سيدي المركيز، بأن سؤالها أربكني. لاحظتْ ذلك، وأصرّت. فأجبتُها: «أيتها الأخت العزيزة، ربما لن تصدقيني. ولكنك ربما تصدقين أمنا العزيزة، وأنا سوف أرجوها أن تخبرك بذلك.

– عزيزتي سانت سوزان، قالت لي بحيوية، لا تفعلي ذلك. أنت لا تريدين أن تجعليني تعيسة. إنها لن تغفر لي أبداً. أنت لا تعرفينها. إنها تستطيع التحول من الحساسية الشديدة إلى الضراوة. لا أعرف ماذا سيحل بي. عِديني بألا- تقولي لها شيئاً.

– تريدين أن أعدك؟

– أطلب منك ذلك راكعةً. إنني يائسة. وأرى جيداً بأن عليّ أن أحل مشكلتي مع نفسي، وسأحلها. عِديني بألاّ تقولي لها شيئاً..».

أنهضتُها وأعطيتها كلمتي، فوثقتْ بها، ولم تُخطئ في هذه الثقة. ثم أغلقتْ كلٌّ منا بابها على نفسها في حجرتها.

وجدتُ نفسي حالمة حين عدت إلى حجرتي. أردت الصلاة فلم أقدر. حاولتُ شَغل نفسي؛ بدأتُ بقراءة مؤلِّف، وتركته لأبدأ بآخر تركته أيضاً لأبدأ بآخر غيره أيضاً. كانت يداي تتوقفان تلقائياً، وكنت كالحمقاء. لم أختبر مثل هذه الحالة قط. عيناي أغمضتا تلقائياً، وغفوتُ قليلاً رغم أنني لا أنام أثناء النهار. وعندما أفقتُ سألتُ نفسي عما جرى بين الرئيسة وبيني. تفحّصتُ ملياً قرارةَ نفسي. وعندما أعدتُ الكَرّة خُيِّل لي بأني توصلتُ إلى شيء ما على نحو غامض... لكنها كانت أفكاراً غائمة وجنونية وسخيفة أزحتُها بعيداً عني. كانت نتيجةُ أفكاري هي أن ذلك ربما كان مرضاً أصابها. ثم أتتني فكرة أخرى هي أن ذلك المرض ربما كان معدياً، وأن سانت تيريز قد أصيبت به، وأنني سأصاب به أنا أيضاً.

في اليوم التالي، بعد صلاة الصبح، قالت لي رئيستنا: «سانت سوزان، اليوم أتمنى معرفة كل ما جرى معك. تعالي.

ذهبتُ. أجلستْني على مقعدها المجاور لسريرها، وجلست هي على كرسي أخفض قليلاً. كنت أطل عليها قليلاً لأنني أطول ولأن مكاني أعلى. كنت قريبةً منها إلى درجةِ تَشابُكِ ركبتيّ بركبتيها، وهي تستند بمرفقها إلى سريرها. بعد لحظة صمت صغيرة قلت لها:

«لقد قاسيت الكثير رغم صغر سني. وقريباً سيكون قد مضى على وجودي في العالم عشرون عاماً، وعشرون عاماً وأنا أعاني. لا أدري إذا كنت سأقدر على قول كل شيء، وإذا كان قلبك سيقوى على سماعه. معاناة عند والديّ، ومعاناة في سانت ماري، ومعاناة في لونشان، في كل مكان معاناة. أيتها الأم العزيزة، من أيٍّ منها تريدينني أن أبدأ؟

– من الأولى.

– ولكن، قلت لها، سيستغرق ذلك وقتاً طويلاً حقاً، وسيكون حزيناً، ولا أريدك حزينة كل هذا الوقت.

– لا تخشي شيئاً، أحب البكاء. ذرفُ الدمع حالةٌ لذيذة بالنسبة لروحٍ حنونة. لا بد أنك تحبين البكاء أنت أيضاً. ستمسحين أنت دموعي، وأنا سأمسح دموعكِ، وربما سنشعر بالسعادة وسط قصة آلامك. من يدري إلى أين يمكن أن يقودنا التأثُّر؟..». وأثناء نطقها بهذه الكلمات الأخيرة، نظرت إلي من أسفل إلى أعلى بعينين نديّتين؛ أمسكتْ بيديّ الاثنتين؛ اقتربتْ مني أكثر بحيث تلمسني وألمسها.

«احكِ يا طفلتي، قالت، إنني أنتظر، وأشعر بأنني أتوق لكي تتحرك مشاعر العطف في نفسي. لا أظن أنه قد مر عليّ في حياتي يومٌ كنت فيه أشد تعاطفاً وحناناً».

بدأت إذن بقصتي، مثلما كتبتُها لك تقريباً. لا يسعني أن أصف لك الأثر الذي فعلَتْه فيها، التنهيدات التي أطلقتْها، الدموع التي ذرفتها، علامات الاستنكار التي أبدتها ضد أبويّ القاسيين، ضد فتيات سانت ماري الشنيعات، وضد فتيات لونشان؛ سيحزنني حقاً أن يقع لهن أصغرُ جزءٍ من الشرور التي تمنّتْها لهنّ. لا أتمنى نزع شعرةٍ واحدة من رأس ألدّ أعدائي. كانت توقفني من وقت لآخر، تنهض وتتمشى ثم تعود للجلوس في مكانها. في مرات أخرى كانت ترفع يديها وعينيها نحو السماء، ثم تخفي رأسها بين ركبتي. عندما حدّثتُها عن مشهد الزنزانة، ومشهد تطهيري من الأرواح الشريرة، ومشهد اعترافي العلني بالخطأ، صرختْ تقريباً. وعندما انتهيت، صمتُّ ولبثتْ هي بعض الوقت مائلة فوق سريرها، وشاحها يحجب وجهها، وذراعاها ممدودتان فوق رأسها؛ وأنا أقول لها: «أيتها الأم العزيزة، أسألك العفو عن الألم الذي سببته لك، لقد حذرتك، لكنك أنت من أراد ذلك». ولم تجبني إلاّ بهذه الكلمات:

«المخلوقات الشريرة! المخلوقات المخيفة! لا مكان تنعدم فيه الإنسانيةُ إلى هذا الحد، سوى الأديرة. عندما يتّحد الحقد بالمزاج النكِد المعتاد، لا نعود ندري إلى أين ستجري الأمور. لحسن الحظ أنني عطوفة؛ أحب جميع راهباتي. بعضهن أخذن الكثير من طبعي، والبعض الآخر أخذ منه هذا القدر أو ذاك، وهن متحابات فيما بينهن. ولكن كيف صمدَت هذه الصحة الضعيفة أمام هذا القدر من العذاب؟ كيف لم تتهشم هذه الأطراف الصغيرة؟ كيف لم ينهَدّ هذا الجسد الضعيف؟ كيف لم تطفئ الدموع ألَقَ هاتين

العينين؟ يا لهن من متحجرات القلب! يقيّدن هاتين الذراعين بالحبال!... وأمسكت بذراعيّ وقبّلتهما. «يغرقن هاتين العينين بالدموع» وقبّلتهما. «ينتزعن الشكوى والأنين من هذا الفم!... وقبّلتْه. «يَحكُمن على هذا الوجه الجذاب الهادئ بأن تغطيه بلا انقطاع غيومُ الحزن!..». وقبّلتْه. «يجعلن ورد هاتين الوجنتين يذبل!..». وداعبَتْهما وقبّلتْهما. يشوهن جمال هذا الرأس! يقتلعن هذا الشعر! يكبّلنّ هذا الجبين بالهموم!..». وقبلتْ رأسي وجبيني وشعري... «يتجرأن على تطويق هذا العنق بحبل وتمزيق هذين الكتفين بروؤس حادة!..». وكشفت عن عنقي ورأسي، وفتحتْ ثوبي من الأعلى نصف فتحة؛ انسدل شعري مبعثراً فوق كتفي العاريين؛ وكان صدري نصف عار، وراحت قبلاتها تنتشر فوق عنقي وكتفيّ المكشوفين وفوق صدري نصف العاري. عندها تبين لي من ارتجافها وتشوش حديثها وزوغان نظرها ويديها، ومن ركبتيها اللتين تضغطان فوق ركبتي والحميّة التي تضمني بها والعنف الذي تطوقني به ذراعاها، بأن مرضَها لن يلبث أن يعاودها. لا أدري ما الذي جرى لي، لكن الخوف والارتعاش وانحطاط القوى الذي أصابني، أكّد لي شكِّي بأن مرضَها مُعْدٍ. قلت لها: «انظري في أي اضطرابٍ وضعْتِني! إذا جاء أحد...

– ابقي، ابقي، قالت لي بصوتٍ لاهث، لن يأتي أحد...

كنت في تلك الأثناء أبذل جهداً للنهوض وانتزاع نفسي منها. قلت لها: «أيتها الأم العزيزة، احذري، مرَضُك سيعاودك. اسمحي لي بالابتعاد..».

أردتُ الابتعاد، أردتُه، هذا أكيد، لكنني لم أستطع. لم أكن أحس بأية قوة في جسدي، ولم تكن ركبتاي قادرتين على حملي. كانتْ جالسةً وكنتُ واقفة. راحت تشدني وخفت من السقوط فوقها وإلحاق الأذى بها؛ جلستُ على حافة سريرها وقلت لها: «أيتها الأم العزيزة، لا أدري ما بي، لستُ على ما يرام.

– وأنا أيضاً، قالت لي؛ ارتاحي قليلاً سينقضي الأمر...

وبالفعل استعادت رئيستي هدوءها، وأنا أيضاً. كنا كلانا مهدودتين؛ أنا أميل برأسي فوق وسادتها؛ وهي تضع رأسها فوق إحدى ركبتيّ، وجبينها فوق إحدى يديّ. بقينا

لحظاتٍ على هذه الحال؛ لا أعرف بأي شيء كانت تفكر. من جهتي، لم أكن أفكر بشيء، لم يكن بمقدوري ذلك. كان بي وهنٌ يستولي عليّ بكاملي. لزمنا الصمت، وكانت الرئيسة أول من خرقه. قالت لي: «سوزان، بدا لي من خلال ما قلتِه لي عن رئيستك الأولى بأنها كانت عزيزة جداً عليك.

– جداً.

– لم تكن تحبك أكثر مما أفعل، لكنك تحبينها أكثر مني...إنك لا تحبيين؟

– كنت تعيسة وكانت تخفف عني آلامي.

– ولكن، من أين جاء نفورك من الرهبنة؟ سوزان، أنت لم تقولي لي كل شيء.

– سامحيني يا سيدتي.

– ماذا! غير ممكن وأنت بهذا اللطف، لأنك يا ابنتي في غاية اللطف، ولا تعرفين كم أنت لطيفة، كأن أحداً لم يقل لك ذلك.

– لقد قيل لي.

– و هل كنت تنفرين من الشخص الذي قاله لك ؟

– لا.

– هل أحببتِه؟

– إطلاقاً.

– ماذا؟ ألم يشعر قلبك بشيء أبداً؟

– لا شيء.

– ماذا؟ أليس سبب نفورك من الدير حُبٌّ دفنتِهِ في أعماقك أو عارَضَهُ أبواك؟ صارحيني بذلك، أنا متسامحة.

– ليس هناك ما أصارحك به في هذا أيتها الأم العزيزة.

– ولكن، مرة أخرى، ما مصدر نفورك من حياة الرهبنة؟

– أنفر من حياة الرهبنة نفسها. أكرَهُ واجباتها ومشاغلها، وأكره العزلة والقسر. يبدو لي أنني خلقتُ لشيء آخر.

– وبناءً على أي شيء يبدو لك ذلك؟

– بناءً على الضجر الذي يكبلني؛ إنني أشعر بالضجر.

– هنا بالذات؟

– نعم أيتها الأم العزيزة، هنا بالذات رغم كل طيبتك معي.

– ولكن، هل تشعرين بشيء يتحرك فيك، برغبات؟

– لا شيء.

– أصدقك؛ تبدين لي هادئة الطبع.

– بما فيه الكفاية.

– بل باردة.

– لا أدري.

– أنت لم تختبري الحياة خارج الدير.

– قليلاً.

– ما الذي يجتذبك فيها إذن؟

– هذا ما لا أفهمه. ولكن لا بد أن لها جاذبيتها.

– هل الحرية هي ما تأسفين عليه؟

– هو ذاك، وربما أشياء كثيرة أخرى.

– وهذه الأشياء الأخرى، ما هي؟ افتحي لي قلبك يا صديقتي. هل تتمنين الزواج؟

– أفضّله على ما أنا فيه، هذا أكيد.

– ولِمَ هذا التفضيل؟

– أجهل ذلك.

– تجهلين ذلك؟ قولي لي ما الذي يتركه فيك حضورُ رجل؟

– لا شيء. أستمع إليه بسعادة إذا كان نبيهاً حسن الحديث، وألحظه إذا كان حسن الصورة.

– ولم يضطرب قلبك؟

– لقد بقي حتى الآن دون انفعال.

– ماذا! عندما تعلّقتْ نظراتُهم المضطربة بك، ألم تشعري بـ....

– بالارتباك أحياناً. جعلوني أغض نظري.

– دون أي اضطراب؟

– لا.

– وحواسك لم تكن تقول لك شيئاً؟

– لا أعرف لغة الحواس.

– مع أن لها لغة.

– ممكن.

– ولا تعرفينها.

– إطلاقاً.

– ماذا؟ أنت... إنها لغة حلوة حقاً؛ هل تودين معرفتها ؟

– لا، أيتها الأم العزيزة؛ بماذا سيفيدني ذلك؟

– في تبديد ضجرك.

– ربما زيادته. ثم ما معنى لغة الحواس هذه بلا موضوع؟

– عندما نتكلم لغةً، فإننا نتكلم مع أحد دوماً؛ وهذا أفضل حتماً من كلام الإنسان مع نفسه، رغم أن هذا ليس بلا متعة تماماً.

– لا أفهم شيئاً من ذلك.

– إذا شئتِ يا طفلتي العزيزة، أوضحتُ لك أكثر.

– لا، أيتها الأم العزيزة، لا. أنا لا أعرف شيئاً، وأفضّل عدمَ معرفةِ شيء، على اكتسابِ معارفَ ربما تجعلني أشد إثارةً للرثاء مما أنا عليه. ليست لدي شهوات، ولا أريد البحث عن شهواتٍ لا أستطيع إرضاءها.

– ولِمَ لا تستطيعين؟

– وكيف أستطيع؟

– مثلي.

– مثلك! ولكن، لا يوجد أحد في هذا الدير.

– يوجد أنا، يا صديقتي العزيزة، ويوجد أنت.

– وما أنا بالنسبة لك؟ وما أنت بالنسبة لي؟

– يا لها من بريئة!

– صحيح، أيتها الأم العزيزة، إنني بريئة جداً، وأفضّل الموت على الكفِّ عن ذلك».

لا أدري ما الذي أزعجها في تلك الكلمات، لكنها أدّتْ إلى تغيير ملامح وجهها فجأةً؛ أصبحت جدّيةً ومرتبكة؛ يدُها التي كانت تضعها فوق إحدى ركبتي، كفّت في البداية عن الضغط، ثم انسحبتْ؛ وظلتْ عيناها تنظران إلى الأسفل.

قلت لها: «أمي العزيزة، ما الذي جرى لي؟ هل بدَر مني ما أساءك؟ سامحيني، إنني أغالي في الإفادة من الحرية التي منحتِني إياها، فلا أتمعّن في الكلام الذي أقوله لك؛ لكنني ربما ما كنتُ لأقوله بطريقة أخرى لو تمعّنتُ فيه، بل ربما كنت سأقوله بطريقة أسوأ. الأشياء التي نتحدث عنها غريبة عني جداً! سامحيني..».

ومع كلماتي الأخيرة هذه، ألقيتُ بذراعيّ حول عنقها ووضعتُ رأسي فوق كتفها. أحاطتني بذراعيها وضمتني بحنان شديد. بقينا بضع لحظات هكذا، قالت لي بعدها مستعيدةً حنانها وهدوءها: «سوزان، هل تنامين نوماً هانئاً؟

– جداً، قلتُ لها، وخاصةً منذ بعض الوقت.

– هل تَغْفين على الفور؟

– إلى حد ما عموماً.

– ولكن، عندما لا تغفين في الحال، بماذا تفكرين؟

– بحياتي السابقة؛ وبالحياة المتبقية لي. أصلّي للرب أو أبكي. ما أدراني؟

– وفي الصباح عندما تستيقظين باكراً؟

– أنهض.

– في الحال؟

– في الحال.
– أنت لا تحبين أن تحلمي إذن؟
– لا.
– أن ترتاحي فوق وسادتك؟
– لا.
– أن تستمتعي بدفء السرير اللذيذ؟
– لا.
– ألم يخطر لك أبداً ..».

عند هذا توقفتْ، وحسناً فعلتْ. فالشيء الذي أرادت سؤالي عنه كان سيئاً، وربما الأسوأ هو أن أقوله. لكنني قررتُ عدم إخفاء شيء. «ألم يخطر لك أبداً أن تنظري إلى جسدك لتري كم أنت جميلة؟

– لا يا أمي العزيزة. لا أدري إذا كنتُ بالجمال الذي تتحدثين عنه، ثم إنني إذا كنت كذلك، فالإنسان يكون جميلاً من أجل الآخرين لا من أجل نفسه.

– ألم تفكري أبداً بالمرور بيديك فوق هذا الصدر وهذين الفخذين وهذا البطن، فوق هذا اللحم الشديد التماسك والنعومة والبياض؟

– في هذا لا، ففيه خطيئة، ولو حدث لما عرفتُ كيف سيتسنّى لي قولَهُ في الاعتراف..».

لا أدري ما الذي قلناه أيضاً عندما جاء من يخبرها بأنها مطلوبة إلى ردهة الاستقبال. بدا لي أن هذه الزيارة أغاظتها، وأنها كانت تفضل الاستمرار في الحديث معي، رغم أن ما كنّا نقوله لا يؤسف عليه. لكننا افترقنا.

لم تعرف الراهباتُ سعادةً أكبر من تلك التي عرفْنها منذ دخولي إلى الدير. بدت الرئيسة كأنها تخلّصتْ من تَقَلُّبِ طبعها. قيل بأنني ثَبّتُّهُ لها. حتى إنها إكراماً لي منحت الراهباتِ عدة أيام للراحة ولما يسمى بالحفلات. في تلك الأيام يقدّم لنا طعام أفضل قليلاً من المعتاد، وتكون الصلوات أقصر، والأوقات الفاصلة بينها حُرّة. لكن ذلك الزمن السعيد سوف يوَلّي بالنسبة إلى الأخريات وبالنسبة إليّ.

تلا المشهدَ الذي وصفتُه للتو عددٌ كبير من المشاهد المماثلة والتي أغفلْتُها. وإليك تتمة المشهد السابق.

كان القلق قد بدأ يستولي على الرئيسة؛ وراحت تفقد مرحها وامتلاءها وطمأنينتَها. وفي الليلة التالية، عندما كان الجميع نياماً والصمت يخيم على الدير، نهضَتْ، وبعد أن هامت على وجهها بعض الوقت في الممرات، اقتربت من حجرتي. ونظراً لنومي الخفيف، ظننتُ بأنني عرفتُها. توقفتْ. والظاهر أنها استندت بجبينها إلى بابي، وأثارتْ قدراً كافياً من الضجيج لكي توقظني إذا كنتُ نائمة. لزمتُ الصمت فبدا لي أنني أسمع صوتاً يشكو ويتنهد. اعترتني في البداية رعشة خفيفة؛ ثم قررتُ أن أقول Ave[1]. وبدلاً من أن أسمع جواباً، ابتعد الشخص الواقف ببابي بخطى خفيفة، ثم عاد بعد حين وبدأتْ الشكوى والتنهدات من جديد. قلت أيضاً Ave، وابتعد الشخص مرة أخرى. اطمأننت وغفوتُ. وأثناء نومي دخلت راهبةٌ ما وجلست قرب سريري. كانت ستائري مفتوحة قليلاً، وكانت الراهبة تحمل شمعة كان نورُها يضيء وجهي، وحامِلتُها تنظر إليّ وأنا نائمة. ذلك على الأقل هو ما استنتجتُه من جِلْسَتِها عندما فتحتُ عيني. تلك الراهبة كانت رئيسة الدير. نهضتُ بغتةً. رأتْ هلعي، وقالت لي: «اطمئني سوزان، هذه أنا». وضعتُ رأسي من جديد فوق وسادتي وقلت لها: «أمي العزيزة، ماذا تفعلين هنا في هذه الساعة؟ ما الذي جاء بك؟ لماذا لست نائمة؟

– لا أستطيع النوم، أجابتني. سأظل وقتاً طويلاً دون أن أستطيع النوم. تؤرقني أحلام يقظة مزعجة. ما أكاد أغمض عينيّ حتى ترتسم في مخيلتي العذاباتُ التي كابدْتِها. أراكِ بين أيدي أولئك المتوحشات، أرى شعرك مبعثراً فوق وجهك، أراك مدماة القدمين تمسكين بالمشعل، والحبل يطوق رقبتك. يخيل إلي بأنهن جئن لكي يُنهين حياتك. فيقشعر بدني وأرتجف وينتشر عرق بارد على كامل جسدي. أريد الذهاب لنجدتك وأصرخ. أفيق وعبثاً أنتظر عودة النوم. هذا ما جرى لي هذه الليلة. خشيت أن تنذرني السماء بمصيبة حلت بصديقتي، فنهضتُ واقتربت من بابك. أصختُ السمع وبدا لي بأنك لست نائمة؛

1- Ave Maria هي ترتيلة السلام عليك يا مريم. وتستخدم الكلمة الأولى منها ave في الدير على سبيل التحية.

تكلمتِ فانسحبتُ. عدتُ، تكلمتِ أيضاً، وابتعدتُ أيضاً. عدتُ مرة ثالثة، وعندما ظننتُ بأنك نائمة دخلتُ. منذ حينٍ وأنا بجانبك وأخشى إيقاظك. ترددتُ أولاً في إغلاق ستائرك. أردتُ الانصراف خوفاً من إقلاق راحتك. لكنني لم أستطع مقاومة رغبتي في رؤية ما إذا كانت سوزانتي العزيزة على ما يرام. نظرتُ إليك؛ ما أجملك للنظر حتى وأنت نائمة!

– ما أشد طيبتك يا أمي العزيزة!

– لقد أصبتُ بالبرد، لكنني أعرف أنه ليس هناك ما أخشاه على ابنتي من منغّصات، وأظن بأنني سأنام. أعطني يدك..». أعطيتُها يدي.

«كم نبضُها مرتاح! كم هو منتظم! لا شيء يعكرها.

– نَوْمي هادئ بما فيه الكفاية.

– يا لسعادتك!

– أيتها الأم العزيزة، ستزداد إصابتك بالبرد.

– معك حق. وداعاً يا صديقتي الجميلة؛ وداعاً؛ إني ذاهبة».

لكنها لم تذهب، وبقيت تنظر إلي. سالت من عينيها دمعتان. «أمي العزيزة، قلتُ لها، ما بكِ؟ إنك تبكين؛ كَم أحزنني أنني كلّمتُك عن آلامي!..». في الحال، أغلقتْ بابي، أطفأتْ شمعتها وألقت بنفسها عليّ وحضَنَتْني. استلقتْ بجانبي فوق الغطاء، ووجهها ملتصق بوجهي ودموعها تُبلل خدّيّ. كانت تتنهد وتقول لي بصوتٍ شاكٍ ومتقطّع: «صديقتي العزيزة، رأفةً بي!

– أيتها الأم العزيزة، قلت لها، ما بك؟ هل تشعرين بضعف؟ ماذا عليّ أن أفعل؟

– إني أرتجف، قالت لي، أرتعد؛ لقد انتشر في جسدي بردٌ مميت.

– هل تريدينني أن أنهض وأدع لك سريري؟

– لا، ليس ضرورياً أن تنهضي؛ فقط أزيحي الغطاء قليلاً كي أقترب منك، فأتدفأ وأتعافى.

– أيتها الأم العزيزة، قلت لها، لكن هذا ممنوع. ماذا سيُقال إذا عُرف الأمر؟ رأيتُ

راهبات يُعاقَبن على أشياء أقل بكثير. في دير سانت ماري ذهبتْ راهبة في الليل إلى حجرة راهبة أخرى كانت صديقتَها المقرّبة. ولا أستطيع أن أخبرك بكل الظنون السيئة التي فُسّرِ بها ذلك. سألني مرشِدي مرةً إن كانت أية راهبة قد عَرضت عليّ أن تنام بقربي؛ ونصحني بجديةٍ بعدم القبول. حتى إنني حدثتهُ عن ملاطفاتك لي. أنا أجدها بريئة للغاية، أما هو فلا يظن ذلك أبداً. لا أدري كيف نسيتُ هذه النصائح. كنتُ أنوي الحديث معك في الأمر.

– صديقتي العزيزة، قالت لي، كل شيء حولنا نائم، ولن يعرف أحد بشيء. أنا من يكافئ أو يقاصص. ومهما قال المرشد، فأنا لا أرى أي سوءٍ في أن تستقبل صديقةٌ في سريرها صديقةً استولى عليها القلق فاستيقظتْ وجاءت أثناء الليل رغم قسوة البرد، لكي ترى ما إذا كان هناك خطر يتهدد صديقتها المحبوبة. سوزان، ألم تشاركي إحدى شقيقتيك سريراً واحداً في بيت أبويك أبداً؟

– لا، أبداً.

– لو أتيحت الفرصة لذلك، فجاءت أختك وهي في غاية القلق، وترتجف من البرد، لتطلب النوم بجانبك، أما كنتِ ستفعلين دون تردد؟ هل كنت سترفضين طلبها؟

– لا، أظن أنني لن أرفض.

– ألستُ أنا أمك العزيزة؟

– نعم، لكن هذا ممنوع.

– صديقتي العزيزة، أنا من تمنع الأخريات من ذلك، وتسمح لك به، وتطلبه منك. لعلي أتدفأ قليلاً ثم أمضي. أعطني يدك». أعطيتها يدي. «هاك، قالت لي، المسي بيدكِ، انظري، إنني أرتجف، أرتعش، إنني أشبه بحجر رخام»؛ وكان هذا صحيحاً. «آه، يا للأم العزيزة، قلت لها، سوف تمرضين. ولكن انتظري، سأبتعد حتى طرف السرير وتأخذين المكان الدافئ». تنحيتُ جانباً، رفعتُ الغطاء فأخذتْ مكاني. آه كم كانت حالتها سيئة! كانت تعتريها رجفة عامة في كل أعضائها. أرادت أن تكلمني، أن تقترب مني، فلا تستطيع التلفُّظ بالكلمات، ولا تستطيع الحركة. كانت تقول لي بصوت خفيض: «سوزان، صديقتي، اقتربي قليلاً». مدّت ذراعيها فأدرتُ لها ظهري؛ أمسكتْ بي بلطف

وشدّتني إليها. مرّرتْ ذراعَها اليمنى تحت جسدي، والأخرى فوقه، وقالت لي: «أنا متجمدة وبردانة إلى درجة أني أخاف أن ألمسك خشية إيلامك.

– أيتها الأم العزيزة، لا تخشي شيئاً».

في الحال وضعتْ إحدى يديها فوق صدري والأخرى حول خصري. كانت قدماها تحت قدميّ ورحتُ أضغط عليهما لكي أدفئهما... والأم العزيزة تقول لي: «آه يا صديقتي العزيزة، أرأيتِ كيف سرى الدفء بسرعة في قدميّ لأنه لا يفصلهما شيءٌ عن قدميك.

– ولكن، قلت لها، ما الذي يمنع من أن تتدفئي كلّك بالطريقة نفسها؟

– لا شيء، إذا أردتِ».

استدرتُ نحوها؛ كانت قد أزاحت ثوبها، وكنت أريد إزاحة ثوبي عندما طرق الباب بعنف مرتين. في الحال، ألقيتُ بنفسي مذعورةً خارج السرير من جهة، والرئيسة من الجهة الأخرى. أصغينا فسمعنا أحداً يعود على رؤوس أصابعه إلى الحجرة المجاورة. «آه، إنها الأخت سانت تيريز. لا بد أنها رأتكِ تعبرين الممر وتدخلين حجرتي؛ لا بد أنها استمعت إلينا والتقطت حديثنا. ما الذي ستقوله؟..». كنت أقرب إلى الموت مني إلى الحياة. «نعم، إنها هي، قالت لي الرئيسة بنبرة مغتاظة. إنها هي، لا أشك بذلك. لكنني آمُل بأنها ستتذكر تهوُّرَها طويلاً.

– آه أيتها الأم العزيزة، لا تؤذيها.

– سوزان، قالت لي، وداعاً، طاب مساؤك. عودي إلى السرير. نامي جيداً. أعفيك من صلاة السحر. أنا ذاهبة إلى تلك الطائشة. أعطني يدك..».

مددتُ يدي إليها من طرف السرير إلى طرفه الآخر؛ رفعَت الكمّ الذي يغطي ذراعي، وراحت تقبلها على طولها من أطراف الأصابع حتى الكتف، وهي تتنهد. خرجت وهي تؤكد بأنها ستجعل المتهوِّرة التي تجرأت على إزعاجها، تتذكر فعْلتَها. تقدمتُ في الحال إلى حافة سريري الأخرى من جهة الباب، ورحت أصغي. دخلتْ إلى حجرة الأخت تيريز. كان بداخلي دافعٌ يُسوِّل لي النهوض والتدخل بين الأخت سانت تيريز والرئيسة في حال بات المشهد عنيفاً؛ إلاّ أنني كنت على درجة من الاضطراب والشعور بالضيق

فضّلتُ معها البقاء في سريري. لكنني لم أنم. فكرتُ بأنني سأصبح سِيْرةً لراهباتِ الدير، وبأن هذه المغامرة التي لا تحمل بذاتها سوى ما هو بريء حقاً، سوف تُروى بأشد قدر من العدائية. فكرتُ بأن الوضع هنا سيكون أسوأ منه في لونشان حيث وجِّهتْ إليّ ما لا أدري من التهم؛ وبأن خطيئتنا ستصل إلى علِم الرؤساء؛ فتُقال رئيسة ديرنا من منصبها، وبأننا، أنا وهي، سنعاقب عقاباً شديداً. في أثناء ذلك كانت أذني تترصد، وأنا أنتظر بصبر نافد خروج أمّنا من حجرة سانت تيريز. الظاهر أن تسوية هذه المسألة كانت صعبة، لأنها أمضت الليل كله هناك. كم أشفق عليها! كانت عارية في قميصها الداخلي، وترتعد من الغضب والبرد.

صباحاً، كانت لدي حقاً رغبة في الاستفادة من الإعفاء الذي منحَتْني إياه، والبقاء في الفراش. لكن خاطراً أوحى لي بألاّ أفعل. ارتديت ثيابي بسرعة، ووجدتُ نفسي أول الواصلات إلى الخورس حيث لم تظهر الرئيسة ولا سانت تيريز، الأمر الذي سرّني جداً. أولاً لأنني لن أستطيع تحمُّل حضور تلك الأخت بلا حرج؛ ثانياً، بما أنه سُمح لها بالتغيب عن الصلاة، فالظاهر أنها حصلت على عفوٍ ما كانت لِتحصل عليه دون شروطٍ يُفترض أنها مطمْئنة لي. لقد حزرتُ. فما كادت الصلاة تنتهي حتى أرسلت الرئيسةُ في طلبي. ذهبتُ إليها. كانت في فراشها، وكانت تبدو منهكة القوى. قالت لي: «لقد تألمتُ، لم أنم قط. سانت تيريز مجنونة. إذا حدث لها ذلك مرة أخرى، سأحبسها.

– آه أيتها الأم العزيزة، لا تحبسيها.

– هذا راجعٌ لسلوكها. لقد وعدَتْني بأن تتحسّن، وأعتمد على ذلك. وأنت يا عزيزتي سوزان، كيف حالك؟

– بخير، أيتها الأم العزيزة.

– هل ارتحت قليلاً؟

– قليلاً جداً.

– قيل لي بأنك كنت في الخورس، لماذا لم تبقي في سريرك؟

– كنت سأشعر بالضيق لو بقيت؛ ثم فكرت بأن من الأفضل...

– لا، لا غضاضة في ذلك. لكنني أشعر برغبة في النوم. أنصحك بالذهاب إلى حجرتك أنت أيضاً للنوم، إلاّ إذا فضّلتِ قبول مكان بجانبي...

– أيتها الأم العزيزة، امتناني لك ليس له حد. أنا معتادة على النوم بمفردي، ولا أستطيع النوم مع شخص آخر.

– اذهبي إذن، لن أنزل إلى المطعم للعشاء. سيقدّم لي هنا. وربما لن أنهض بقية النهار. ستأتين مع أخريات أعلَمْتُهن بذلك.

– وهل ستكون الأخت سانت تيريز منهن؟ سألْتُها.

– لا، أجابتني.

– لن يزعجني ذلك.

– ولماذا؟

– لا أعرف؛ يبدو لي أنني أخشى لقاءها.

– اطمئني يا طفلتي. أُجيبك بأنها تخشاك أكثر مما تخشينها».

غادرْتُها وذهبت لأرتاح. اتجهتُ بعد الظهر إلى حجرة الرئيسة حيث وجدتُ جمعاً كبيراً إلى حد ما من الراهبات الأصغر سناً والأكثر جمالاً في الدير؛ كانت الأخريات قد قمن بالزيارة وانسحبن. أؤكد لك يا سيدي المركيز، وأنت الخبير بفن الرسم، أنها كانت لوحة لطيفة للنظر. تخيل مرسَماً فيه عشر فتيات أو اثنتا عشرة، أصغرهن يمكن أن تكون في الخامسة عشرة من عمرها، وأكبرهن لم تبلغ الثالثة والعشرين. ورئيسة دير تناهز الأربعين، تستلقي نصف استلقاءة فوق سريرها، وجهها أبيض نديّ مليء بالعافية، ولها ذقنان تحملهما بطيبة خاطر، وذراعان سمينتان وقصيرتان كأنهما ملفوفتان، وأصابع مثل المغازل تنتشر فيها حُفرٌ صغيرة، وعينان سوداوان كبيرتان برّاقتان وحانيتان، تكادان لا تنفتحان تماماً أبداً، بل تظلان نصف مغمضتين، كأن صاحبتهما تجد عناءً في فتحهما، وشفتان قرمزيتان مثل الورد، وأسنان بيضاء مثل الحليب، وأجمل خدّين، ورأس لطيفة للغاية غارقة في وسادة عميقة وطرية؛ تمد ذراعيها برخاوة إلى جانبيها مع وسائد صغيرة تحت المرفقين لسنْدهما. كنت أجلس على طرف سريرها ولا أفعل شيئاً؛ وتجلس راهبة

أخرى في مقعد وعلى ركبتيها نول صغير للتطريز، وأخريات يصنعن المخرّمات قرب النافذة؛ وتجلس بضع راهبات أرضاً فوق وسائد انتُزعت من فوق المقاعد، يحِكْن ويطَرّزن، ويمزجن الخيوط أو يغزلنها ويفتلنها فوق البكرة الصغيرة. كانت بعضهن شقراوات، وبعضهن الآخر سمراوات، ولا تشبه أي منهن الأخرى مع أنهن جميعاً جميلات. كانت طباعهن متنوعةً تنوُّعَ هيئاتهن. فهؤلاء هادئات، وأولئك مرحات، وأخريات جدّيات كئيبات أو حزينات. كن جميعاً يقمن بعملٍ ما باستثنائي أنا كما قلتُ لك. لم يكن صعباً تمييز الصديقات عن اللامباليات وعن العدوّات. فقد جلست الصديقات إحداهن بجانب الأخرى أو مقابلها، ورحن يتحدثن وهن يعملن. إحداهن تنصح الأخرى، ويتبادلن النظرات خلسةً، وتشدّ إحداهن فوق أصابع الأخرى بحجة إعطائها دبوس أو إبرة أو مقص. كانت الرئيسة تجوب بينهن بنظراتها؛ تلوم هذه على انكبابها، وتلك على تبطُّلها، هذه على عدم اكتراثها، وتلك على حزنها. تطلب إحضار العمل المنجز إليها، فتُثني أو توبّخ، وتُصلح لهذه وضعية غطاء رأسها. «هذا الوشاح يقترب إلى الأمام أكثر مما يجب... وهذه الملاءة تأخذ أكثر مما يجب من الوجه، ولا نرى خدّيكِ على نحو كافٍ... وهذه ثَنْيات تؤذي البشرة..». كانت توزع على الجميع انتقادات صغيرة أو ملاطفاتٍ صغيرة.

بينما كانت الراهبات منشغلات، سمعتُ طرقاً خفيفاً على الباب. ذهبتُ لأفتحه. قالت لي الرئيسة: «سانت سوزان، هل ستعودين؟

– نعم، أيتها الأم العزيزة.

– عودي حتماً، لأن لدي شيئاً هاماً أخبرك به.

– سأعود..».

كان الطارق هو تلك المسكينة سانت تيريز. لبثْتُ هنيهةً دون كلام، وأنا كذلك. قلتُ لها: «أختي العزيزة، هل تقصدينني أنا؟

– نعم.

– كيف يمكن أن أخدمك؟

– سأقول لك. لقد استحققت زوال حظوتي عند أمنا العزيزة؛ اعتقدتُ بأنها غفرتْ

لي، وكان عندي أسباب لهذا الاعتقاد. غير أنكن جميعاً مجتمعات عندها، وأنا لست بينكن، ولديّ أمرٌ بالبقاء في حجرتي.

– هل تريدين الدخول؟

– نعم.

– هل تتمنين أن ألتمس لك الإذن؟

– نعم.

– انتظري، يا صديقتي العزيزة، أنا ذاهبة إليها.

– هل أنت صادقة، هل ستكلمينها لأجلي؟

– بلا شك، أعِدك بذلك؟ ولِمَ لا أفعل وقد وعدتك؟

– آه، قالت لي وهي تنظر إلي بحنان، إنني أغفر لها، أغفر لها تعلُّقَها بك. فأنت تملكين كل الأشياء الجذابة، تملكين أجمل روح وأجمل جسد..».

كنتُ مفتونةً بتقديم تلك الخدمة الصغيرة إليها. كانت راهبةٌ أخرى، أثناء غيابي، قد أخذت مكاني على طرف سرير الرئيسة، وكانت تنحني باتجاهها مسندةً مرفقها بين فخذيها، لتُريها العمل الذي أنجزَتْه، والرئيسة تقول لها نعم أو لا، بعينين شبه مغمضتين دون النظر إليها تقريباً. كنتُ أقف بقربها دون أن تنتبه إليّ. لكنها سرعان ما أفاقت من شرودها الخفيف. فقامت تلك التي أخذت مكاني وأعادتْه لي. جلسْتُ، ثم مِلْتُ بوجهي قليلاً باتجاه الرئيسة التي نهضت قليلاً فوق وسائدها، وصمَتُّ، لكن نظرتي إليها كانت نظرةَ استعطاف. حسناً، قالت لي، ماذا هناك؟ تكلمي. ماذا تريدين؟ هل أستطيع أن أرفض لك طلباً؟

– الأخت سانت تيريز...

– فهمْتُ. إني شديدة الاستياء منها، لكن سانت سوزان تتدخل لأجلها، وأنا أسامحها. اذهبي وقولي لها إن بإمكانها الدخول..».

انطلقتُ راكضةً. كانت الأخت الصغيرة المسكينة تنتظر عند الباب. قلتُ لها أن تتقدم. تقدمتْ راجفةً. كانت تمسك بقطعة قماش طويلة من الموسلين عُلِّقت إلى بترون خِياطة،

فسقطَتْ منها عند أول خطوة. التقطتُها. أمسكتُ بها من ذراع وقدتُها إلى الرئيسة. جثتْ والتقطتْ إحدى يديها وقبّلتْها وتنهّدت بضع تنهيدات وذرفت دمعة. ثم التقطت إحدى يديّ وضمّتْها إلى يد الرئيسة، وقبّلت الاثنتين. أشارت لها الرئيسة بالنهوض والجلوس حيث تشاء. أطاعت. قُدمت وجبة طعام خفيفة. نهضتْ الرئيسة ولم تجلس معنا، بل راحت تتمشى حول الطاولة، تضع يدها فوق رأس إحدانا، تحنيه لها إلى الخلف قليلاً وتقبّل جبينها؛ ترفع الملاءة الداخلية عن رقبة راهبة أخرى، وتضع يدها تحتها وتلبث هكذا متكئةً على مسند مقعدها؛ تنتقل إلى راهبة ثالثة مارّةً بإحدى يديها فوقها أو على فمها؛ تتذوق بطرف شفتيها الأطعمة المقدّمة، وتوزعها على هذه وتلك. بعد أن جالت هكذا حيناً، توقفتْ مقابلي وراحت تنظر إلي نظرةً في غاية الحب والحنان؛ أما الأخريات، وخصوصاً الأخت سانت تيريز، فقد غضضن أبصارهن كما لو أنهن خشين من كبْح تلك النظرة أو صَرْفها عن هدفها. جلستُ بعد الوجبة إلى الكلافسان وعزفتُ مرافقةً راهبتين غنّتا بذوق رفيع وصوت مضبوط وجميل دون قواعد منهجية. غنيتُ أنا أيضاً مرافقةً عزفي. كانت الرئيسة تجلس أرضاً قرب الكلافسان، وتبدو في غاية الاستمتاع لسماعي ورؤيتي؛ كانت الأخريات إما يستمعن واقفات دون أن يعملن شيئاً، أو يستأنفن أشغالهن. كانت أمسية لذيذة.

بعد ذلك، انسحب الجميع. كنت ذاهبة مع الأخريات لكن الرئيسة أوقفتني وقالت لي: «كم الساعة؟.

– تقترب من السادسة.

– ستأتي بعضُ مساعداتنا بعد قليل. لقد فكرتُ بما قلتِه لي عن خروجك من لونشان، ونقلتُ لهن أفكاري فأيّدْنها، ولدينا اقتراح نعرضه عليكِ. لا يمكن ألاّ ننجح، وإذا نجحنا فإن ذلك سيعود على الدير بفائدة صغيرة ويجلب لك بعض الرفاهية».

في السادسة دخلت المساعِدات؛ والمساعِدات في الأديرة هن دوماً من العجائز الفانيات حقاً. وقفتُ لهنّ. جلسن وقالت لي الرئيسة: «أخت سانت سوزان، ألم تخبريني بأنك عندما جئتِ إلى هنا، حصلتِ على جهازٍ بفضل السيد مانوري؟

– نعم، أيتها الأم العزيزة.

– كنتُ محقةً إذن، وراهباتُ لونشان احتفظن بالجهاز الذي دفعته إليهن عند دخولك إلى ديرهن؟

– نعم، أيتها الأم العزيزة.

– هل يُجرين عليك نفقةً منه؟

– لا، أيتها الأم العزيزة.

– هذا ليس عدلاً. وهو ما نقلتُه لمساعداتنا، وهنّ متفقات معي بأن من حقك مطالبتهن إما بإعادة ذلك الجهاز إليك لصالح ديرنا، أو بإجراء ريعه عليك. فالجهاز الذي حصلتِ عليه نتيجة اهتمام السيد مانوري بمصيرك، لا علاقة له بدَينٍ لراهبات لونشان عليك. إنه لم يؤمِّن جهازك وفاءً لدَينٍ لهنّ عليك.

– لا أظن ذلك، ولكنْ أقصر طريق لكي نتأكد، هو أن نكتب له.

– بلا شك. ولكن في حال كان جوابه كما نرغب، فإليك اقتراحاتنا. سنرفع دعوى باسمك ضد دير لونشان، وسيتكفّل ديرُنا بالمصاريف التي لن تكون كبيرة، لأن هناك احتمالاً كبيراً بألاّ يرفض السيد مانوري التكفُّل بهذه القضية؛ وإذا نجحنا، سيتقاسم الديرُ المالَ أو ريعَه معك، مناصفةً. ما رأيك أيتها الأخت العزيزة؟ لا تجيبين... إنك تحلمين.

– أتخيّل بأن راهبات لونشان أولئك قد آذينني كثيراً، وأنهن يتصورن بأنني أنتقم من شدة يأسي.

– ليس الأمر انتقاماً، بل مطالبة بما هو لك.

– وأعرِّض نفسي من جديد للنظر...

– هذا هو الجانب المزعج الصغير. لن يتعلق الأمر بك تقريباً. ثم إن رهبانيّتنا فقيرة، ورهبانية لونشان غنية. وستكونين وليّةَ نعمتنا طوال حياتك على الأقل. لا نحتاج إلى هذا السبب لكي نُحافظ عليك، فنحن جميعاً نحبك..». ردّت المساعِدات بصوت واحد: «ومن لا يحبها؟ إنها كاملة.

– قد أموت في أية لحظة. وربما لن تكنّ لك رئيسةُ ديرٍ أخرى العواطف التي أكنُّها أنا لك. لا، بالتأكيد، لن تفعل. ربما تتعرضين لوعكات صغيرةٍ، أو ربما تكون لك احتياجات

صغيرة؛ إنه لأمرٌ في غاية اللطف أن يملك المرؤ قدراً صغيراً من المال يستطيع التصرف به لتلبية احتياجاته بنفسه، أو إرغام الآخرين على ذلك.

– أيتها الأمهات العزيزات، قلتُ لهن، هذه الاعتبارات لا يمكن إهمالها، بما أنكن تكرّمتنّ بالإشارة إليها؛ لكن هناك اعتبارات غيرها تمسّني أكثر؛ غير أنه لا يوجد شيء منفِّرٌ لستُ مستعدةً للتضحية والقيام به لأجلكن. الشيء الوحيد الذي أطلبه منك، أيتها الأم العزيزة، هو عدم البدء بشيء دون التباحث بشأنه بحضوري مع السيد مانوري.

– هذا ملائم للغاية. هل تريدين الكتابة له بنفسك؟

– كما تشائين أيتها الأم العزيزة.

– اكتبي له؛ ولكي لا نتطرق إلى هذا مرتين، كوني لا أحب هذه المسائل، وهي تضجرني حتى الموت، اكتبي له حالاً..».

أعطَيْنني ريشةً وحبراً وورقاً، وعلى الفور رجوتُ السيد مانوري أن يتفضل بالحضور إلى أرباجون، حالما تسمح له الظروف. أخبرْتُه بأنني لا زلت بحاجة لمساعدته ونصيحته في مسألة على جانب من الأهمية، إلخ. قرأ المجلس الديني المنعقد هذه الرسالة، فأيّدها، وأُرسِلَتْ.

حضر السيد مانوري بعد بضعة أيام. عرضتْ له رئيسةُ الدير الأمر. وافَقَها دون لحظة واحدة من التردد. أُخِذت مخاوفي على أنها غير مبررة؛ وتم التوصل إلى أنه سيجري استدعاء راهبات لونشان للمثول منذ اليوم التالي. واستُدعين. وها هو اسمي، رغم كل تحفظاتي، يظهر من جديد في مذكرات جلب، ومذكرات دفاع، وجلسات محكمة، وذلك مع تفاصيل وافتراضات وأكاذيب، وجميع الفظاعات التي يمكن أن تكون في غير صالحك إزاء قُضاتك وتجعلك مَقيتاً في أعين الجمهور. ولكن، يا سيدي المركيز، هل مسموح للمحامين الافتراء على هواهم؟ ألا توجد عدالة تقتصّ منهم؟ لو كان بوسعي التنبؤ بكل المرارات التي ستجرّها هذه القضية، أؤكد لك بأنني ما كنت وافقت على المضي فيها. أُرسِلت المستندات التي نُشرت ضدي إلى العديد من راهبات ديرنا اللواتي كن يأتين إلي في كل لحظة، ويسألنني عن تفاصيل أحداثٍ فظيعة لا تمتُّ للحقيقة بصلة. وكلما أبديتُ

جهلاً أكبر، زادَ اعتقادُهن بذنبي. ولأنني لم أكن أفسّر شيئاً، ولا أعترف بشيء، وكنتُ أُنكِر كل شيء، فقد اعتقدن بأن كل شيء صحيح. كن يتسمن، ويقلن لي كلمات شديدة الالتفاف، لكنها مُهينة جداً. كن يشكّكن ببراءتي، فأبكي وأشعر بالأسى.

لكن المتاعب لا تأتي مفردةً قط. حان وقتُ الاعتراف. سبق أن اعترفتُ بالملاطفات الأولى التي تلقيتُها من رئيستي؛ وقد منعني مرشدي على نحوٍ واضح للغاية من الانقياد للمزيد منها؛ ولكن ما السبيل لرفض أشياء تَمنح سعادةً كبيرة لشخص آخر نتبع له كلياً، إذا كنا نحن بالذات لا نرى فيها أي سوء؟

سيلعب هذا المرشد دوراً كبيراً في ما تبقّى من مذكراتي؛ أعتقد أنه من الجيد أن تعرفه.

إنه راهب فرنسيسكاني، يدعى بـ. لوموان؛ عمره لا يتجاوز الخامسة والأربعين. له هيئة من أجمل ما يمكن أن ترى بين الوجوه: عندما ينسى نفسه يكون لطيفاً هادئاً ذكياً بشوشاً ومريحاً؛ أما عندما يفكر بهيئته فإنه يغضّن جبينه، ويقطب حاجبيه، ويغضّ ناظريه فيبدو متقشفاً. لا أعرف رجلين مختلفين اختلاف بـ. لوموان في الكنيسة عن بـ. لوموان في ردهة الاستقبال، سواء كان بمفرده أو برفقة آخرين. عدا ذلك فإن جميع الأشخاص في الرهبنة متشابهون في ذلك، أنا أيضاً، عندما أكون على وشك الذهاب للاعتراف، أو للقاء زائر في ردهة الاستقبال، فوجئتُ بنفسي عدة مرات وأنا أتوقف ببساطة لأصلح وضعية وشاحي وعصبة رأسي، وأهَيِّئ وجهي وعينيّ وفمي ويديّ وذراعيّ ورباطةَ جأشي ومشيتي، وأصطنع لنفسي تماسُكاً وتواضعاً يدومان إلى هذا الحد أو ذاك، حسب الأشخاص الذين عليّ أن أكلمهم. بـ. لوموان شخص طويل القامة، حسن التكوين، مرح، قريب جداً للقلب عندما ينسى نفسه، بارع في الكلام، له في ديرِه سمعةُ لاهوتي عظيم، وفي الخارج سمعةُ مبشرٍ عظيم. تحدث بشكل مذهل؛ إنه رجل واسع الثقافة يعرف أشياء لا تحصى بعيداً عن الرهبنة. له صوت من أجمل الأصوات، يفهم بالموسيقى والتاريخ واللغات. إنه دكتور من السوربون. ورغم صغر سنه، فقد مرّ بالمراتب الرئيسة في رهبانيّته. أظن بأنه بعيد عن الألاعيب والمطامح، وهو محبوب من زملائه. كان قد التمس رئاسةَ دير إيتامب كمنصب هادئ يستطيع فيه الانصراف، دون أن يلهيه شيء، إلى دراساتٍ كان قد باشر

بها وتمّ له ما أراد. يُعدّ اختيارُ مرشد لدير راهبات مسألة عظيمة: يجب أن يكون مرشدُ الراهبات رجلاً مهماً له اعتبار. لقد فعلت الراهباتُ كل شيء للظفر بالأب بـ. لوموان، وظفرن به، على الأقل في سابقة قليلة الحدوث.

أُرسلت إليه عربةُ الدير عشيّة الأعياد الكبرى، وجاء. كان يجب رؤية الحركة التي ولّدها انتظارُه بين راهبات الدير بأسره. كم كُنّ فرحات، ويوارين مشاعرهن، ويدرسن لامتحانه ويستعددن لشغله أطول وقت ممكن.

تم ذلك عشية عيد العَنصرة. كنا بانتظاره وكنتُ قلقة. لاحظتْ رئيسةُ الدير ذلك وكلّمتني. لم أخفِ عنها سبب قلقي. بدت لي أشد تخوُّفاً مني رغم أنها فعلت كل شيء لكي تداري ذلك عني. وصفت بـ. لوموان بالرجل المضحك، وسخرت من مخاوفي. سألتني إذا كان بـ. لوموان أعرَفَ من ضميرها وضميري ببراءة مشاعرها ومشاعري؛ وسألتني إذا كان ضميري يَخزُني. أجبتها لا. «حسناً! قالت لي، أنا رئيستك، وتَدينين لي بالطاعة؛ وآمركِ ألاّ تحدّثيه عن هذه السخافات. وإذا لم يكن لديك ما تقولينه له سوى ترّهات فلا جدوى من ذهابك للاعتراف».

وصل بـ. لوموان ورحتُ أتأهّب لكرسي الاعتراف بينما كانت أخريات أشد استعجالاً قد احتللنه. كان دوري قد اقترب عندما جاءت رئيسة الدير إلي. انتَحتْ بي جانباً وقالت لي: «سانت سوزان، فكرتُ بما قلتيه لي. عودي إلى حجرتك لا أريدك أن تذهبي اليوم للاعتراف.

– ولماذا، أجبتُها، أيتها الأم العزيزة؟ يوم الغد يوم عظيم؛ إنه يوم مناولة[1] شامل؛ ماذا تريدين من الأخريات أن يتخيلن إذا كنتُ الوحيدة التي لا تقترب من المذبح؟

– لا يهمّ؛ فليتخيلن ما شئن. لكنك لن تذهبي للاعتراف.

– أيتها الأم العزيزة، قلتُ لها، إذا كان صحيحاً أنك تحبينني، لا تُنزلي بي هذا العقاب المذلّ، أطلب ذلك كفضلٍ منك.

– لا، لا، غير ممكن. قد تسببين لي إزعاجات لا أريدها مع هذا الرجل.

– لا، أيتها الأم العزيزة، لن أسبب لك شيئاً منها.

1– طقس مسيحي في ذكرى العشاء الأخير يتم فيه تناول ما يرمز إلى الخبز والنبيذ المقدسين، على سبيل التبرُّك.

– عدِيني إذن... لا فائدة من ذلك. ستأتين صباح الغد إلى حجرتي، وتعترفين لي. أنت لم ترتكبي أية خطيئةٍ لا أستطيع تبرِئتَكِ منها وغفرانَها لك، وستتناولين مع الأخريات. اذهبي..».

انسحبتُ ومكثتُ في حجرتي حزينةً قلقةً وحالمة، ولا أعرف على أي قرار أستقر. هل أذهب إلى بـ. لوموان رغم اعتراض رئيستي؛ هل أقتصرُ على غفرانها في اليوم التالي، وهل سأذهب للاعتراف والمناولة مع بقية راهبات الدير، أم لا أذهب وليقلن ما شئن؛ عندئذ دخلتْ. كانت قد اعترفتْ، وسألها بـ. لوموان عن سبب عدم حضوري، وعما إذا كنتُ مريضةً؛ لا أدري بماذا أجابتْه، لكنّ الخُلاصة أنه ينتظر ذهابي إلى كرسي الاعتراف. «اذهبي إذن، قالت لي، طالما لا بدّ من ذلك. ولكن أكِّدي لي بأنك ستكتُمين الأمر». ترددتُ وألحّتْ. «أيتها المخبولة، قالت لي، ما السوء في السكوت عن فعلٍ لم يكن هناك سوء في القيام به؟

– وما السوء في قوله؟ أجبتها.

– لا يوجد أي سوء، بل يوجد شيء غير لائق. مَن يعرف الأهمية التي سيوليها هذا الرجل للأمر؟ أكِّدي لي إذن». ترددتُ من جديد، لكنني في النهاية تعهدتُ ألاّ أقول شيئاً إذا لم يسألني، ومضيت.

اعترفتُ وصمتُ عن الأمر؛ لكن المرشد سألني فلم أُخْفِ شيئاً. وجّه لي آلاف الأسئلة الغريبة التي مازلت لا أفهم منها شيئاً حتى عندما أتذكّرها اليوم. عاملَني بتساهُل، لكنه تكلم عن رئيسة الدير بكلمات جعلتْني أرتعد. لقد وصفها بعديمة الجدارة، بالزنديقة، بالراهبة الرديئة، بالمرأة المؤذية، وبالفاسدة، وأمرني، تحت طائلة اقتراف الإثم المميت، بعدم التواجد بمفردي معها، وعدم قبول أي من ملاطفاتها.

«ولكن، يا أبتِ، قلت له، إنها رئيستي وتستطيع دخول حجرتي واستدعائي إلى حجرتها وقت تشاء.

– أعرف، أعرف، ويؤسفني ذلك. طفلتي العزيزة، قال لي، حمداً لله الذي حفظكِ حتى الساعة، ولا أجرؤ على الإفصاح أكثر، خوفاً من أن أصبح أنا نفسي شريكاً لرئيستك

الشائنة، وخوفاً من أن يُذبِل النفَسُ المسمومُ الذي سيخرج من شفتيّ رغماً عني، زهرةً رقيقةً لا تُحفَظ نديّةً وبلا شائبة حتى العمر الذي أنتِ فيه، إلاّ بفضلٍ خاصّ من العناية الإلهية، آمرُكِ أن تهربي من رئيستك، أن ترفضي ملاطفاتِها، ألاّ تدخلي حجرتَها بمفردك أبداً، أن تقفلي بابك دونها، خاصةً في الليل، أن تخرجي من سريرك إذا دخلَتْ حجرتَك رغماً عنك، أن تذهبي إلى الممر، أن تنادي أحداً إذا اقتضى الأمر، أن تنزلي بلا ثوب وتركعي عند المذبح، أن تملئي الدير بالصراخ، وتفعلي كل ما يمليه عليك حبُّ الله والخوفُ من الإثم وقداسةُ الحالة التي أنت فيها وأهميةُ خلاصِك، فيما إذا جاء إليك الشيطان بذاته وأخذ يلاحقك. نعم يا طفلتي، الشيطان. تلك هي الهيئة التي أجِدُني مضطراً أن أُظهِر رئيستَك بها. إنها غارقة في هاوية الإثم، وتسعى لإغراقك فيها. ولو لم تملأها براءتُك ذاتُها بالخوف وتوقفِها، فربما كنتِ معها هناك». صاح بعدها متجهاً بناظريه إلى السماء: «إلهي! أَدِمْ حمايتك لهذه الطفلة...... قولي معي: أيها الشيطان ابتعد عني، أيها الشيطان تراجعْ. إذا استجوبتكِ هذه الشقية، قولي لها كل شيء. كرري عليها كلامي. قولي لها بأنّ الأفضل لها لو لم تولد، أو لو يأخذها موتٌ عنيف إلى الجحيم، لوحدها.

– ولكن، يا أبتِ، قلتُ له، لقد كلّمَتْك هي نفسُها منذ قليل».

لم يجبني بشيء، لكنه رفع ذراعيه متنهِّداً بعمق، وأمسك بأحد حواجز كرسي الاعتراف مسنداً إليه رأسه مثل رجل تَغلغَل الألم في نفسه، ليبقى بعض الوقت على تلك الحال. لم أعرف بأي شيء أفكر، وكانت ركبتاي ترتجفان. كنتُ في حالٍ لا يمكن تخيلها من الاضطراب والتشوش، حالِ مسافرٍ يمشي في العتمة بين هُوّاتٍ لا يراها، وتقرعه من كل صوب أصواتٌ سُفليةٌ تصيح به: «انتهى أمرك!» بعد ذلك قال لي وهو ينظر إلي بوجه هادئ ولكنه مترفّق: «هل وضعك الصحي جيد؟»

– نعم، يا أبت.

– هل سيشقّ عليك جداً أن تُمضي ليلةً بلا نوم؟

– لا يا أبت.

– قال لي: حسناً! لن تنامي هذه الليلة. بعد الوجبة الخفيفة مباشرةً ستذهبين إلى

الكنيسة وتمضين الليل بالصلوات. أنتِ لا تعرفين الخطر الذي داهمك، وستشكرين الله لأنه صانَكِ منه؛ وغداً تقتربين من المذبح مع جميع الراهبات. لن أُعاقبكِ سوى بالبقاء بعيدةً عن رئيستك، ورفضِ ملاطفاتها المسمومة. هيا. من جانبي سأضم صلاتي إلى صلواتك. كم سأقلق عليك هذه الليلة! أشعر منذ الآن بعواقب نصيحتي لك، لكنني أدين بها لكِ ولنفسي. الله هو المولى، وليس لدينا سوى قانون واحد».

لا أذكر، يا سيدي، كل ما قاله لي إلا منقوصاً جداً. والآن حين أقارن خطابه كما نقلتُه لك للتو، بالانطباع الرهيب الذي تركه في نفسي، لا أجد وجهاً للمقارنة؛ والسبب أنه تَفكّك وفقدَ ترابطَه ونقصَتْهُ أشياء كثيرة لم أحفظها لأنني لم أربطها بفكرةٍ واضحة، ولأنني لم أرَ، وما زلتُ لا أرى، أهميةً لأشياء استنكرَها بعنف. مثلاً، ما الشيء الشديد الغرابة الذي رآه في مشهد الكلافسان؟ ألا يوجد أشخاص تؤثّر فيهم الموسيقى بشدة؟ لقد قيل لي بأن بعض الألحان والأنغام تُغيّر ملامح وجهي أنا نفسي كلياً، وأكون أثناء سماعها في نشوة تامة لا أكاد معها أشعر بنفسي. لا أعتقد أن هذا يجعلني أقلّ براءة. لماذا لا ينطبق الأمر على رئيستي التي كانت، رغم جنونها وتقلباتها، من أكثر النساء حساسية في العالم؟ لم تكن تستطيع سماع مقطوعة مؤثرة قليلاً دون أن تبكي بغزارة. عندما رويتُ لها قصتي، وضعتُها في حال تثير الشفقة. لماذا لم يرَ في تَعاطفها مع الآخرين جريمة أيضاً؟ والليلة التي راح ينتظر ما ينجم عنها وهو مُرْعَب رعباً مميتاً... إنه بالتأكيد رجل شديد القسوة...

أياً كان الأمر، فقد نفّذتُ حرفياً ما أمرني به وما توقّعَ حتماً نتيجتَهُ الفوريّة. عند خروجي من كرسي الاعتراف، ذهبتُ للركوع أسفل المذبح مضطربةً من الفزع. بقيتُ هناك حتى وقت العشاء. قلقت الرئيسة عليّ، فأرسلتْ في طلبي. قيل لها بأنني منغمسة في الصلاة. ظهرتْ عند باب الخورس عدة مرات، وتظاهرتُ بعدم رؤيتها. حان وقت العشاء، فاتجهتُ إلى مطعم الدير، وأكلتُ على عجل، وفور انتهاء وقت العشاء عدتُ إلى الكنيسة. لم أَظهرْ في استراحة المساء؛ ولم أصعد ساعةَ الانسحاب إلى الحجرات والنوم. لم تكن الرئيسة تجهل ما بي. نزلتْ إليّ في ساعة متأخرة جداً من الليل، فيما كان الصمت يخيم على كل شيء في الدير. ارتسمتْ في مخيلتي الصورةُ التي صوّرها لي المرشدُ بها،

فأخذتني رعشة ولم أستطع النظر إليها. اعتقدتُ بأنني سأراها بوجهٍ كريه، محاطةً تماماً بألسنة اللهب، وقلتُ في سري احفظني يا ربِّ، أبعدْ عني هذا الشيطان.

ركعتْ على ركبتيها. وبعد أن صلّتْ بعض الوقت، قالت لي: «سانت سوزان، ماذا تفعلين هنا؟

– ما ترينه يا سيدتي.

– هل تعرفين كم تبلغ الساعة؟

– نعم يا سيدتي.

– لماذا لم تعودي إلى حجرتك عندما حان الوقت؟

– لأنني أهيئ نفسي للاحتفال باليوم العظيم غداً.

– تنوين إذن أن تمضي الليل بطوله هنا؟

– نعم يا سيدتي.

– ومن سمح لك بذلك؟

– المرشد أمرني بذلك.

– ليس للمرشد أن يأمر بما يتعارض مع قانون الدير وأنا آمرك بالذهاب للنوم.

– سيدتي، إنه العقاب الذي فرضه علي.

– ستقومين بأعمال أخرى بدلاً من هذا.

– الخيار لا يعود لي.

– هيا يا طفلتي، قالت لي، تعالي. رطوبة الكنيسة في الليل ستزعجك. ستصلّين في حجرتك».

أرادت بعدها أن تأخذني من يدي، لكنني ابتعدتُ بسرعة. «تهربين مني، قالت لي.

– نعم يا سيدتي، أهرب منك..».

جعَلَني اطمئناني إلى قداسة المكان وإلى الحضور الرباني وإلى براءة قلبي، أجرؤ على النظر إليها. لكنني ما أن لمحتُها حتى أطلقتُ صرخةً عظيمة، وأخذتُ أركض في الخورس مثل الخرقاء، صارخةً: «ابتعد عني أيها الشيطان!..».

لم تلحق بي، بقيتْ في مكانها، وقالت لي وهي تمد ذراعيها بهدوء نحوي، وبأكثر النبرات عطفاً وحنوّاً: «ما بك؟ ما سبب هذا الفزع؟ توقفي... لستُ الشيطان. أنا رئيستك وصديقتك».

توقفتُ؛ أدرتُ رأسي نحوها، ورأيتُ بأن ما أثار فزعي هو ظهورٌ عجيب صوّرتْهُ لي مخيلتي؛ ذلك أنها كانت في وضع لا يضيء فيه مصباحُ الكنيسة غيرَ وجهها وأطراف يديها، وظلّ الباقي في العتمة، وهو ما أعطاها مظهراً فريداً. حين تمالكتُ نفسي قليلاً، ارتميتُ فوق مقعد. اقتربتْ واتجهتْ نحو المقعد المجاور، فنهضتُ وانتقلتُ إلى مقعد من الصف الذي يليه. ورحتُ أتنقل هكذا من مقعد إلى آخر، وهي كذلك، حتى آخر مقعد. توقفتُ، وتوسلتُ إليها أن تترك على الأقل مقعداً فارغاً بينها وبيني.

«حسناً»، قالت لي.

جلسنا يفصل بيننا مقعد. بدأت الرئيسة تتكلم فقالت لي: «سانت سوزان، هل لي أن أعرف مصدر الفزع الذي يسببِّهُ لك حضوري؟

– أيتها الأم العزيزة، قلتُ لها، سامحيني، لستُ أنا، إنه بـ. لوموان. لقد صوّر ما تُبدينه لي من حنان وملاطفات أعترف بأنني لا أجد فيها سوءاً، بأشنع صورة. لقد أمرني أن أتحاشاك، وأكف عن دخول حجرتك بمفردي، وأخرج من حجرتي إذا دخلتِ إليها. لقد صوّرك في ذهني على صورة الشيطان، ولا أدري ما الأشياء التي لم يقُلها عن ذلك.

– لقد كلّمته إذن؟

– لا، أيتها الأم العزيزة، لكنني لم أستطع إعفاء نفسي من الإجابة عن أسئلته.

– ها قد أصبحتُ إذن فظيعةً في نظرك؟

– لا، أيتها الأم العزيزة، لن أقدر على منع نفسي من حبِّك، أو من تقدير إحسانِك الذي أرجو أن تديميه عليّ؛ لكنني سأطيع مرشدي.

– لن تعودي إذن لزيارتي في حجرتي؟

– لا، أيتها الأم العزيزة.

– ولن تستقبليني في حجرتك ثانيةً؟

– لا، أيتها الأم العزيزة.

– وسترفضين ملاطفاتي؟

– يجب أن أرفضها، فهي ستكلّفني غالياً لأنني نشأتُ ملاطِفةً، وأحب الملاطَفة. لقد وعدتُ مرشدي بأن أفعل، وأقسمتُ على ذلك وأنا راكعة عند المذبح. لو أستطيع أن أصوِّر لك الطريقة التي عبّر بها: إنه رجل ورع مستنير؛ ما مصلحته في الإشارة لي إلى خطَر حيث لا يوجد خطر؟ ما مصلحته في إقصاء قلب راهبةٍ عن قلبِ رئيستها؟ ربما يلمس في أفعالٍ شديدة البراءة من جانبك وجانبي، بذرةَ فسادٍ خفيّة يرى أنها ناميةٌ عندك جداً، ويخشى أن تُنمّيها عندي. لن أخفيك بأنني... بالعودةِ إلى المشاعر التي راودتني أحياناً... فما تفسير اضطرابي وشرودي عند خروجي من حجرتك وعودتي إلى حجرتي أيتها الأم العزيزة؟ ما تفسير عدم قدرتي على الصلاة أو الانشغال بشيء؟ ما تفسير شعوري بنوعٍ من ضجر لم يسبق أن شعرتُ به؟ لماذا، كنت أشعر بتوق إلى النوم، أنا التي لم أنم في النهار من قبل أبداً؟ كنت أظن بأنه مرَضٌ مُعْدٍ بدأت آثارُهُ تظهر عليّ. بـ. لوموان يرى ذلك بطريقة مغايرة تماماً.

– وكيف يرى ذلك؟

– يرى فيه كل فظاعات الجريمة، يرى هلاكَكِ الناجِزَ، وهلاكيَ الذي يُحضّر له... ما أدراني؟

– هيا، قالت لي، بـ. لوموان هذا رجلٌ مهلْوِس؛ هذه ليست أول هجمةٍ من هذا النوع يشنها عليّ. يكفي أن تربطني صداقةٌ ناعمة براهبةٍ حتى يعمل بدأبٍ لكي يقلب لها دماغها... كاد أن يصيب سانت تيريز المسكينة تلك بالجنون... لقد بدأ الأمر يضجرني، وسوف أتخلص من هذا الرجل؛ إنه يقيم على بعد عشرة فراسخ من هنا... وإحضاره أمرٌ مُرْبِك... إنه لا يتواجد عندما نريد... لكننا سنتكلم عن ذلك في مكان مريح أكثر... أنت لا تريدين الصعود إذن؟

– لا، أيتها الأم العزيزة، أطلب منك أن تسمحي لي بقضاء الليل هنا. إذا لم أقم بهذا الواجب، لن أجرؤ غداً على الاقتراب من المذبح مع بقية الراهبات... ولكن، أنتِ أيتها

الأم العزيزة، هل ستتناولين؟

– بلا شك.

– ولكن، ألم يقل لك بـ. لوموان شيئاً إذن؟

– لا.

– ولكن كيف؟

– لم تتح له فرصة الكلام معي. لا يذهب المرء للاعتراف إلا لكي يتهم نفسه بخطايا اقترفها؛ ولا أرى خطيئة في كوني أحببتُ بحنانٍ فتاةً تتصف بهذا اللطف الذي تتصف به سانت سوزان. إذا كان هناك من خطيئة، فهي أنني آثرتُها وحدَها بعاطفةٍ كان يُفترض أن أوزِّعها بالتساوي على جميع مَنْ يشكِّلن الرهبانية... لكن الأمر ليس بيدي... لن أستطيع منع نفسي من تمييز الجدارة حيث تكون، ومن تقريبها إليّ. أسأل الله المغفرة على ذلك، ولا أفهم كيف يرى بـ. لوموان هلاكي الناجز في تَحيُّزٍ طبيعي للغاية ويصعب تفاديه. أحاول إسعاد الجميع. لكن هناك بين الراهبات من أقدّرهن وأحبهن أكثر من غيرهن، لأنهن جديرات أكثر بالحب والتقدير. تلك هي جريمتي كلها معك. سانت سوزان، هل تجدينها كبيرة حقاً؟

– لا، أيتها الأم العزيزة.

– هيا، يا طفلتي العزيزة، لتُصلِّ كلٌّ منا صلاة قصيرة ثم ننسحب».

رجوتُها مجدداً أن تسمح لي بقضاء الليل في الكنيسة. وافقتْ شرط عدم تكرار ذلك ثانيةً، وانسحبتْ.

فكرتُ بما قالته لي. سألتُ الله أن يرشدني. وبعد النظر ملياً في الأمر كله، فكرتُ وتوصلتُ إلى أنه يمكن أن يكون هناك، حتى بين أشخاصٍ من جنس واحد، شيء غير لائق على الأقل، في الطريقة التي يعبّر بها بعضهم عن صداقته للبعض الآخر. وأن بـ. لوموان، الرجل الصارم، ربما ضخّم الأمور، لكن نصيحته بتفادي تقرُّب رئيستي المفرط، نصيحة جيدة؛ وعاهدتُ نفسي أن أتبعها.

في الصباح، عندما حضرت الراهبات إلى الخورس، وجدنني في مكاني؛ اقتربن جميعاً

من المذبح وعلى رأسهن رئيسة الدير، وهو ما أنجَزَ اقتناعي ببراءتها، دون أن أتحوّل عن الموقف الذي اتخذتُه. ثم إنني كان ينقصني الكثير كي أشعر بالانجذاب الذي تشعر به نحوي. إذ لم يكن بمقدوري عدم مقارنَتِها برئيستي الأولى: يا للفارق الكبير! لا الورعُ نفسُه، ولا الرصانة نفسها، ولا الكبرياء نفسه، ولا رفعة الروح نفسها، ولا الميل نفسه للنظام.

وقع حدثان كبيران بفاصل أيام قليلة؛ أحدهما هو كسب الدعوى ضد راهبات لونشان، والحكم عليهن بدفع مخصصٍ متناسب مع جهازي إلى دير سانت أتروب حيث كنتُ. والثاني هو تغيير المرشد. لقد أبلغتني الرئيسة نفسها بهذا الحدث الأخير.

مع ذلك لم أعد أذهب إليها إلا برفقة أخريات؛ كما أنها لم تعد تأتي إليّ بمفردها. كانت تبحث عني دوماً، لكنني أتجنبها، فتُلاحظ ذلك وتلومني. لم أعرف ماذا يعتمل بداخل تلك الروح، لكن لا بُدّ أنه كان شيئاً خارقاً. كانت تنهض ليلاً وتجوب الممرات أمام الحجرات وخاصةً أمام حجرتي. كنت أسمعها تمر جيئةً وذهاباً، ثم تتوقف أمام بابي، لتئن وتتنهد. كنت أرتجف وأندسّ عميقاً في فراشي. وأثناء النهار، إذا كنت في النزهة أو في صالة الأشغال أو صالة الاستراحة، كانت تتخذ موقعاً يحجبها عني لتمضي فيه ساعاتٍ كاملة تتملاّني. كانت ترقب كل خطواتي. إذا نزلتُ وجدتُها أسفل الدرجات، وإذا صعدتُ وجدتُها في الأعلى. أوقفتْني يوماً وأخذت تنظر إليّ دون أن تنطق بكلمة. سالت من عينيها دموع غزيرة، ثم قالت لي فجأةً وهي ترتمي أرضاً وتحضن إحدى ركبتيّ: «أيتها الأخت القاسية، اطلبي مني حياتي أهَبكِ إياها، ولكن لا تتجنّبيني. ما عدتُ أستطيع العيش من دونك». أثارت حالتُها إشفاقي؛ فقد كانت عيناها مطفأتين، وذهبتْ عنها عافيتُها ولونُها. كانت رئيستي، وكانت تركع عند قدميّ مسندةً رأسها إلى ركبتي التي ظلّتْ تحضنها. مددتُ لها يديّ، تلقّفتْهُما بشغفٍ وقبّلتهما ونظرت إليّ، ثم قبلتهما مجدداً ونظرت إلي. أنهضْتُها. ترنّحتْ ووجدتْ صعوبةً في المشي. قدتُها إلى حجرتها. وعندما انفتح بابها، أمسكتني من يدي وشدتني بلطف إلى الداخل، ولكن دون أن تكلمني ودون أن تنظر إليّ.

«لا، قلت لها، أيتها الأم العزيزة، لا. لقد عاهدتُ نفسي ألاّ أفعل. هذا أفضل لك ولي. إنني أشغل أكثر مما يجب من مكان في نفسك. وهذا يُعَادل الخسارةَ بالنسبة للرب الذي يجب أن يَشْغل هو النفسَ كلّها.

– هل أنت من يلومني على ذلك!..».

كنتُ أحاول، وأنا أكلمها، تخليص يدي من يدها...

«لا تريدين الدخول إذن؟ قالت لي.

– لا، أيتها الأم العزيزة. لا.

– لا تريدين يا سانت سوزان، إنك لا تعرفين ما الذي يمكن أن ينتج عن ذلك. لا، لا تعرفين. إنك سوف تدفعينني إلى الموت..».

تركت تلك الكلماتُ الأخيرة بي شعوراً معاكساً تماماً لما رمتْ إليه. سحبتُ يدي بقوة وهربْتُ. فاستدارتْ، ونظرتْ إليّ وأنا أمضي بضع خطوات، ثم دخلتْ حجرتَها التي بقي بابها مفتوحاً، وأخذت تطلق أنيناً حاداً للغاية وصل إلى مسمعي، واخترقني. بتُّ لحظةً غير متأكدة إذا كنت سأستمر بالابتعاد، أم سأعود. غير أنني لا أدري بأيّ شعورٍ بالنفور ابتعدتُ، ولكن ليس من دون ألمٍ للحالة التي تركتُها فيها. فالتعاطف من طبيعتي. أغلقتُ عليّ باب حجرتي. لم أشعر فيها بالارتياح، ولم أعرف بماذا أشغل نفسي. درتُ بضع دورات طولاً وعرضاً، ذاهلةً ومضطربة. خرجتُ، دخلتُ. أخيراً اتجهتُ إلى حجرة سانت تيريز، جارتي، ودققتُ بابها. كانت تتبادل حديثاً خاصاً مع راهبة صغيرة أخرى من صديقاتها. قلتُ لها: «أختي العزيزة، تؤسفني مقاطعتك، ولكني أرجوك أن تسمعيني لحظة، لديّ ما أقوله لك. « لحقتْ بي إلى حجرتي؛ وقلتُ لها: «لا أدري ما الذي أصاب أمّنا الرئيسة، إنها حزينة. إذا ذهبتِ إليها، ربما تؤاسيها». لم تجبني. تركتْ صديقتَها في حجرتها، أغلقتْ بابها، وركضتْ إلى حجرة رئيستنا.

يوماً بعد يوم تفاقمَت حالةُ تلك المرأة، باتتْ كئيبةً وجديّة. الفرح الذي لم يتوقف منذ وصولي إلى الدير، اختفى فجأةً. وعاد كل شيء منضبطاً بصرامة شديدة. أُقيمت الصلوات بما يليق من الرصانة. تم تقريباً إقصاء الغرباء عن بهو الاستقبال؛ مُنعت الراهبات من أن

يتردد بعضهن إلى حجرات البعض الآخر. استؤنفت التمارين الروحية بأكبر قدر من التدقيق. أُلغيت اللقاءات عند الرئيسة؛ أُلغيت الوجبات الخفيفة. نالتْ أخفُّ الأخطاء أشدّ العقوبات. كانت الراهبات لا يزلن يقصدنني أحياناً لكي ألتمس لهنّ العفو. لكنني أرفض ذلك رفضاً قاطعاً. لم يجهل أحد سبب تلك الثورة. ولم تنزعج لها المساعِداتُ المسنّات، وابتأستْ لها الشابات؛ رحن ينظرن إلي نظرة حقد. أما أنا، المطمئنة إلى سلوكي، فكنت أتجاهل سُخطهن ولومهنّ.

رئيسة الدير هذه التي لم أستطع التخفيف عنها ولا منعَ نفسي من الإشفاق عليها، انتقلتْ على التوالي من الكآبة إلى الورع، ومن الورع إلى الهذيان، وسوف أكف عن تتبُّعها أثناء هذه التحولات، لأن ذلك سيغرقني في تفاصيل لا نهاية لها. سأقول لك فقط بأنها في حالتها الأولى، كانت أحياناً تسعى إلي وأحياناً تتفاداني. كانت أحياناً تُعاملنا، الأخريات وأنا، بلطافتها المعتادة، وأحياناً أخرى تتحول فجأةً إلى صرامة مفرطة. كانت تستدعينا ثم تَصرِفنا؛ تأذن لنا بالانصراف ثم بعد لحظة تنقض ما أَمرت به؛ تأمر بقرع جرس استدعائنا إلى الخورس، وعندما نتحرك جميعاً لإطاعة الأمر، يُعيدُنا جرسٌ ثانٍ إلى حجراتنا. يصعب تخيل اضطراب الحياة التي كنا نحياها. كان النهار ينقضي بخروجنا من حجراتنا ثم العودة إليها، بتناول كتاب صلواتنا، وترْكِه، بالنزول والصعود، بإسدال وِشاحاتنا ورفعها؛ وكان الليل متقطِّعاً تَقَطّعَ النهار تقريباً.

قصدَتْني بضعُ راهبات وحاولن إفهامي أنّ قَدْراً قليلاً آخر من إظهار الصداقة للرئيسة ومراعاتها من شأنه أن يعيد كل شيء إلى الانضباط، وأن يبعد الفوضى المألوفة: كنت أجيبهن بحزن: «إنني أتعاطف معكن، ولكن قلن لي بوضوح ما الذي يجب أن أفعله». كان بعضهن يستدرن راجعات مطأطئات الرؤوس دون أن يجبنني، وبعضهن يقترحن أشياء يستحيل أن تتوافق مع نصائح مرشدنا. أعني المرشد الذي أُقيل، لأننا لم نكن قد رأينا خلَفَهُ بعد.

لم تعد رئيسة الدير تخرج ليلاً. كانت تمضي أسابيع بطولها دون أن تظهر في الصلاة ولا في الخورس ولا في المطعم ولا في الاستراحة، وتبقى حبيسة غرفتها. كانت تهيم في

الممرات أو تنزل إلى الكنيسة. تدق على أبواب راهباتها، وتقول لهذه وتلك بصوت شاك: «أخت فلانة، صلّي لأجلي؛ أخت فلانة، صلّي لأجلي». انتشرت إشاعةٌ بأنها تحضّر نفسها لاعتراف شامل.

وفي يوم كنت فيه أول النازلات إلى الكنيسة، رأيتُ ورقةً معلقة فوق غطاء الشبك؛ اقتربت وقرأت فيها: «أيتها الأخوات العزيزات، أدعوكنّ للصلاة من أجل راهبةٍ ضلّت عن واجباتها وتريد الرجوع إلى الله». تملّكتْني رغبة بانتزاعها لكني تركتُها. وبعد بضعة أيام، كانت هناك ورقة أخرى كتب فيها: «أيتها الأخوات العزيزات، أدعوكنّ لطلب الرحمة لراهبةٍ اعترفتْ بضلالاتها. إنها ضلالات كبيرة». وفي يوم آخر، دعوةٌ أخرى تقول: «أدعوكنّ أن تبتهلن للرب أن يزيل اليأس من قلب راهبة فقدتْ كل ثقة برحمة الرب».

جعلتْني جميعُ هذه الدعوات التي ترتسم فيها تقلّبات تلك النفس المعذّبة، في غم عميق. وفي إحدى المرات وقفتُ مثل تمثال أمام واحدة من تلك القصاصات الجدارية. سألتُ نفسي عما تكون تلك الضلالات التي تلوم نفسها عليها؟ ما مصدر مخاوف تلك المرأة؟ على أية آثام تلوم نفسها؟ رحت أستعيد صيحات المرشد المتعجّبة، وأتذكّر عباراته؛ رحتُ أبحث فيها عن معنى، فلم أجد معنى؛ وبقيتُ مثل الغارقة في التفكُر. كانت بعض الراهبات اللواتي ينظرن إليّ، يتحدثن فيما بينهن؛ وإذا لم أخطئ، كن ينظرن إليّ كأنّ المخاوف المرعبة ذاتَها سوف تتهدّدني قريباً.

لم تكن رئيسة الدير المسكينة تلك تَظهر إلاّ بوشاحٍ مسدَل فوق وجهها. لم تعد تتدخل بشؤون الدير، ولا تكلم أحداً. كانت تعقد جلساتٍ عديدة مع المرشد الجديد الذي عيّن لنا. إنه بنيديكتيّ شاب. لا أدري إن كان قد فَرَض عليها العقوبات التي تُنزلها بنفسها. كانت تصوم ثلاثة أيام من الأسبوع؛ تعذب جسدها؛ تسمع الصلاة جالسةً في المقاعد الدنيا. لكي نذهب إلى الكنيسة، كان علينا المرور أمام بابها، فكنا نجدها راكعةً يلتصق وجهها بالأرض، ولا تنهض إلا عندما لا يعود هناك أحد. وكانت تنزل في الليل، بثوب داخلي وقدمين حافيتين. إذا التقت بها سانت تيريز أو أنا، مصادفةً، كانت تستدير وتلصق وجهها بالجدار. خرجتُ يوماً من حجرتي فوجدتُها راكعةً، كانت ذراعاها ممدودتين

ووجهها ملتصقاً بالأرض؛ توقفتُ فقالت لي: «تقدّمي، دوسيني بقدميك، لا أستحق معاملةً أخرى».

وَجدتْ بقيةُ راهبات الدير، طوال الشهور التي استغرقها هذا البلاء، الوقتَ للمعاناة وصبِّ حقدهن عليّ. لن أتكلم عن الألم الذي تعانيه راهبةٌ مكروهة في ديرها. لا بدّ أنك تعرفه الآن. عاد شعوري بالقرف من الرهبنة للظهور شيئاً فشيئاً من جديد. حملتُ هذا القرف وكثرة العذاب إلى قلب المرشد الجديد. إنه يدعى دوم موريل. وهو رجل ذو طبع حام، وفي عمر يناهز الأربعين. بدا أنه يسمعني بانتباه واهتمام. أراد أن يعرف وقائع حياتي. جعلني أدخل إلى أدق التفاصيل حول أسرتي وميولي وطبعي والأديرة التي أقمت فيها والدير الذي أنا فيه وحول ما جرى بين رئيستي وبيني. لم أُخفِ عنه شيئاً. لم يبدُ أنه أَعطى ما فعلَتْهُ الرئيسة معي تلك الأهميةَ التي أعطاها بـ. لوموان. بالكاد خصّ الموضوع ببضع كلمات . نظر إلى تلك المسألة كأنها منتهية. أكثر ما مَسّهُ هو مشاعري الخفيّة إزاء حياة الرهبنة. كنت كلما فتحتُ له قلبي أكثر، حققت ثقته بي القدر نفسه من التطور. عندما كنت أعترف له، كان يكشف لي أسراره؛ وما قاله لي عن مواجعه كان متماثلاً أشد التماثل مع مواجعي: لقد دخل الرهبنة مرغَماً؛ وكان يشعر إزاءها بالقرف الذي أشعر به، ولم أكن أستحق الشفقة أكثر منه بكثير.

«ولكن، أيتها الأخت العزيزة، أضاف، ما العمل؟ ما عاد هناك غيرُ سبيلٍ واحد، أن نقلّل من تعاسةِ شَرْطنا إلى أقلّ ما يمكن». ثم يعطيني النصائح التي يتبعها نفسَها؛ وكانت نصائح حكيمة. «إنها لا تُنجي، كان يضيف، من الآلام، بل تُعين على تَحمُّلها. الأشخاص الذين نذروا أنفسهم للرهبنة لا يكونون سعداء إلا بمقدارِ ما يصنعونه لأنفسهم من جدارة أمام ربِّ صُلبانهم. آنذاك يشعرون بالرضى؛ إنهم لا ينتظرون عقوبات إماتة الجسد بل يَمضون لملاقاتها؛ وكلما كانت هذه الإماتة أشد مرارةً وتَكرّرت أكثر، سُعدوا بها أكثر. إنها مبادلة قاموا بها لسعادتهم الحالية لقاء سعادةٍ قادمة؛ إنهم يَضْمَنون لأنفسهم هذه عن طريق التضحية الطوعية بتلك. وعندما يكونون قد عانوا حقاً، يدعون الله قائلين: زِدْني يا إلهي..». وهذا دعاء يستجيب له الربُّ بشكل مضمون. ولكن إذا كانوا منذورين للآلام

مثلكِ ومثلي، فإننا، أنت وأنا، لا نستطيع أن نرجو منها المكافأةَ نفسَها. لأننا ليس لدينا الشيء الوحيد الذي يعطيها القيمة: التسليم بالمصير. إنه شيء محزن. يؤلمني أنني أُوجّهكِ إلى الفضيلة التي تنقصك والتي لا أملكها! إلاّ أننا دونها نُعرّض أنفسنا للهلاك في الحياة الأُخرى، بعد أن نكون قد شَقينا في هذه. إننا، في الكفّارات، نحكم على أنفسنا بالعذاب على النحو الأكيد نفسه تقريباً الذي يحكم به أهلُ الدنيا على أنفسهم في الملذات. نحن نَحرم أنفسنا وهم يستمتعون، وتنتظرنا العقوباتُ نفسُها بَعد هذه الحياة. لَكَم هي مؤسفةٌ حالُ راهب أو راهبة بلا ميلٍ إلى الرهبنة! لكنها حالي وحالك ولا نستطيع تغييرها. لقد حُمّلنا سلاسل ثقيلة حُكم علينا بهَزّها بلا انقطاع، دون أمل بتحطيمها. لنحاول، أيتها الأخت العزيزة، أن نجرّها. هيا، سأعود لرؤيتك».

عاد بعد بضعة أيام. رأيتُه في ردهة الاستقبال. تفحصتُه عن قرب أكثر. أنهى كل منا الإسرارَ للآخر، هو عن حياته، وأنا عن حياتي، بتفاصيل لا عدّ لها، شَكّلتْ بيني وبينه قدراً كبيراً من نقاط الالتقاء والتشابه. فقد عانى من أشكال الاضطهاد الأُسَري والديني نفسها تقريباً. لم أكن أستشفّ بأن وصْفَه لنفوره غيرُ مناسبٍ جداً لتبديد نفوري. إلا أن هذا الأثر بدأ يظهر عندي؛ وأعتقد بأن وصفي لنفوري أنتج عنده الأثر نفسه. هكذا، ونتيجة تشابهِ شخصيتينا إضافةً إلى تشابهِ ظروفنا، كنا كلما التقينا أكثر زاد إعجاب أحدنا بالآخر. كانت حكايةُ ظروف حياته هي حكايةُ ظروف حياتي، وحكايةُ مشاعره هي حكاية مشاعري، وحكايةُ روحه هي حكاية روحي.

بعد أن تحدّثنا كثيراً عن أنفسنا، تحدثنا أيضاً عن الآخرين، وخاصةً عن رئيسة الدير. كان شديد التحفُّظ بسبب كَوْنه مرشِداً. لكنني لمستُ من كلامه بأن الحالة النفسية الحاليّة لهذه المرأة لن تدوم، وبأنها تُصارع ضد نفسها، ولكن بلا طائل. وأن أمراً من اثنين سوف يحدث: إما أن تعود قريباً إلى نزوعها الأول، أو تفقد صوابها. انتابني فضول شديد لمعرفة المزيد. وكان يستطيع أن يجيبني عن أسئلة طرحتُها على نفسي ولم أستطع الإجابة عنها، لكنني لم أجرؤ أن أسأله. غامرتُ فقط وسألته إذا كان يعرف بـ. لوموان.

«نعم، قال لي، أعرفه؛ إنه رجل فاضل، فاضل جداً.

– بين لحظة وأخرى، لم يعد بيننا.
– هذا صحيح.
– ألا تستطيع أن تقول لي كيف حدث ذلك؟
– سأشعر بالاستياء إذا تسرّب الأمر.
– تستطيع الاعتماد على تكتُّمي.
– أظن أنهم، في المطرانية، كتبوا ضده.
– وما الذي قالوه؟
– بأنه يقيم في مكان أبعد مما يجب عن الدير؛ وبأنه لا يحضر عندما يراد منه الحضور، وبأنه صارم أكثر مما يجب، وبأن هناك أسباباً تحمل على الشك بأنه يوجِّه مشاعرَ المستجِدّات، ويبثّ الفِرقةَ في الدير، ويبعِد الراهبات روحيّاً عن رئيسة ديرهنّ.
– ومن أين تعرف ذلك؟
– منه بالذات.
– أنت تراه إذن؟
– نعم أراه. لقد كلمني عنك أحياناً.
– ماذا قال لك؟
– بأن وضعك يثير الشفقة حقاً، وأنه لا يتصور كيف أمكنك الصمود أمام كل الآلام التي كابدتِها، وأنه لا يعتقد، رغم أنه لم يحادثك إلا مرةً أو اثنتين، بأنك ستعتادين على حياة الرهبنة. وقد خطَرَ له...
هنا، توقف فجأةً وأضفتُ أنا:
«ماذا خطر له؟»
أجابني دوم موريل: «هذا موضوع ثقة خاص جداً لست حراً في الكلام عنه.».
لم ألحّ... أضفتُ فقط: «هذا صحيح، فإنّ بـ. لوموان هو الذي ألهمني بالابتعاد عن رئيستي.
– حسناً فعَلَ.
– ولماذا؟

– أيتها الأخت، أجابني وهو يتخذ هيئةً جدية، تمسّكي بنصائحه، وحاوِلي ما حييتِ أن تتجاهلي سبب توجيهِها.

– ولكن يبدو لي أنني لو عرفتُ الخطر لحرصتُ أكثر على تجنُّبه.

– ربما يحدث العكس أيضاً.

– لا بدّ أن رأيك بي سيئ.

– أخلاقكِ وبراءتك جعلت رأيي بك هو الرأي الذي يجب أن يكون؛ ولكن ثقي بأن هناك معارف ضارةً لا يمكن اكتسابها دون التورط فيها. براءتك بالذات هي التي أثّرت في رئيستك وجعلتها تحترمك؛ ولو كنتِ أكثر درايةً لَقَلّ احترامُها لك.

– لا أفهمك.

– أحسن.

– ولكن، ما الذي يمكن أن تنطوي عليه صداقة حقيقية وملاطفاتُ امرأةٍ من خطَرٍ على امرأةٍ أخرى؟»

لا جواب من طرف دوم موريل.

«أما زلتُ الفتاةَ التي كنتُها عندما دخلتُ إلى هنا؟»

لا جواب من طرف دوم موريل.

«أما كنتُ سأبقى الشخصَ نفسَه؟ أين السوء إذن في أن تُحِب إحدانا الأخرى، في أن تقوله إحدانا للأخرى، أن تُظهره إحدانا للأخرى؟ إنه شيء في غاية العذوبة!

– هذا صحيح، قال دوم موريل وهو ينظر إليّ، بعد أن غضّ بصره طوال كلامي معه.

– وهل هذا شائع إذن إلى هذا الحد في بيوت الرهبنة؟ يا لرئيستي المسكينة! يا للحال التي هوت إليها!

– حالٌ محزنة وأخشى أن تتفاقم. إنها لم تُخلَق لما هي فيه. ووضع كهذا ستكون هذه هي نتيجته عاجلاً أم آجلاً. عندما نقسر الميلَ العام للطبيعة، فإن هذا القسر يَحْرفها نحو أهواءٍ غير سوية، وبما أن هذه الأهواء لا تقوم على أساس سليم، تكون أعنف؛ إنه نوع من الجنون.

– هي مجنونة!

– نعم، هي كذلك؛ وستزداد جنوناً.

– وتعتقد أن هذا هو المصير الذي ينتظر مَن ينخرطون في حالة لم يُخلَقوا لها؟

– لا، ليس الجميع. هناك من يموتون قبل ذلك؛ وهناك من تجعلهم مرونتُهم يتحملون على المدى الطويل؛ وهناك من تسندهم آمالٌ غامضة بعض الوقت.

– وأية آمال يمكن أن ترجوها راهبة ؟

– أية آمال؟ أولاً الأمل بنقض نذورها.

– وعندما تفقد الأمل بذلك؟

– الأمل بأن تجد الأبواب مفتوحةً ذات يوم، وبأن يتخلى البشرُ عن العبث بحبس مخلوقات فتيّةٍ تضج بالحياة في قبور. الأمل بأن تُلغى الأديرة، بأن تشتعل النيران في الدير، بأن تنهار أسوار الدير، بأن يهزّها أحد ما. كل هذه الافتراضات تخطر ببالنا، ونحدِّث أنفسَنا بها. وأثناء نزهتنا في الحديقة، ننظر دون تفكير إلى الأسوار لنرى إذا ما كانت عالية حقاً. وإذا كنا في حجرتنا، نمسك قضبان النافذة ونهزّها بهدوء على سبيل التسلية. وإذا كانت نوافذنا تطل على الشارع، ننظر إلى الشارع؛ وإذا سمعنا صوت أحد يمر، يخفق قلبنا، ونتنهّد بصمت في إثر مخلِّص؛ وإذا علا صخبٌ فوصل إلى الدير، راودَنا أمل. نعتمد على مَرَضٍ يُقرّبُنا من إنسانٍ أو يرسلنا إلى المعالجة بالمياه.

– صحيح، صحيح، صحتُ، إنك تقرأ في أعماق قلبي. راودتني هذه الأوهام، وما زالت تراودني بلا انقطاع حتى اليوم.

– وعندما نفكّر بها، نفقدها؛ لأن هذه الأوهام الصحّية والمفيدة للنفس التي يرسلها القلب باتجاه العقل، تتبدّد على دفعات؛ عندها نرى عمقَ بؤسنا، نكرَهُ أنفسنا، ونكره الآخرين؛ نبكي، نئنّ، نصرخ، ونشعر باقتراب اليأس؛ عندئذٍ يسرع بعض الراهبات للارتماء عند ركبتَيْ رئيسة ديرهنّ بحثاً عن السلوى؛ ويركع البعض الآخر في حجراتهن أو أسفل المذبح طالباتٍ نجدةَ السماء؛ ويمزق بعضهن ثيابهن، ويقطعن شعورهن؛ ويبحث بعضهن عن بئرٍ عميقة أو نوافذ عالية أو أنشوطة، وأحياناً يجدنها؛ يسقط بعضهن، بعد

تعذيب أنفسهن طويلاً، في نوع من الخَبَل، ويبقين مخبولات؛ وتُضني أخريات من ذوات الأجساد الضعيفة والحساسة أنفسَهن من الوهن والسقام؛ هناك من يختل عمل أجسادهن، وتضطرب مخيلتهن، ويصبحن ساخطات. أسعدُ هؤلاء هنّ مَن تَعُود هذه الأوهامُ المؤاسية لتولد في نفوسهن، فتهَدْهِدُهُنّ تقريباً حتى الممات؛ لتنقضي حياتهن بين وهم ويأسٍ.

– والظاهر أنّ أكثرهنّ تعاسة، أضفتُ وأنا أطلق تنهيدةً عميقة، هنّ منً يعانين من تعاقُب هذه الحالات كلها... آهٍ يا أبتِ، كم أنا حزينة لأنني سمعتك!

– ولماذا؟

– لم أكن أعرف نفسي. الآن أعرفها. ستكون أوهامي أقصر أجلاً. في اللحظات التي..».

كنتُ سأتابع كلامي عندما دخلتْ راهبة أخرى، ثم أخرى، ثم ثالثة، ثم صرن أربع، خمس، ست، لا أعرف كم. أصبح الحديث عامّاً. كان بعضهن ينظرن إلى المرشد؛ وبعضهن الآخر يستمعن إليه بصمت وهن مطرقات؛ العديد منهن كن يسألنه معاً؛ وجميعهن يطلقن صيحات الإعجاب بحكمة إجاباته. انسحبتُ إلى زاوية واستسلمتُ فيها لتأملات عميقة. في منتصف هذه المحادثات التي سعت فيها كل منهن لإظهار مزاياها، واستمالة اهتمام الرجل المقدّس لصالحها، سمعنا صوت شخص يتقدم بخطى بطيئة، ويتوقف على دفعات ويطلق التنهيدات؛ أصخنا السمع، وقلنا بصوت منخفض: «إنها هي؛ هذه رئيسة ديرنا». وصمتْنا. جلسنا على شكل دائرة. كانت دائرة بالفعل. دخلَتْ. كان وشاح رأسها يتدلى حتى وسطها، وكانت ذراعاها متصالبتين فوق صدرها ورأسها مائلاً. كنتُ أول من لمَحَتْهُ. أخرجتْ في الحال إحدى يديها من تحت وشاحها وغطت بها عينيها، وباليد الأخرى أشارت لنا، مستديرةً قليلاً إلى الجانب، أن نخرج جميعنا. خرجنا صامتات، وبقيتْ بمفردها مع دوم موريل.

أشعر مسبقاً، سيدي المركيز، بأنك ستأخذ عني رأياً سيئاً، ولكن إذا لم أخجل مما فعلتُ، فلماذا أخجل من الاعتراف به؟ ثم كيف أمحو من هذه القصة حدثاً لم يكفّ عن إثارة العواقب؟ لنقل إذن بأن لدي تركيبة ذهنٍ فريدة حقاً؛ فإذا كانت الأشياء التي أكتبها

من النوع الذي يمكن أن تقدّره، أو يمكن أن يزيد تعاطُفكَ، أجدُني أكتب بسرعة ويسر شديدين، سواء كان أسلوبي جيداً أو رديئاً، وتفرح نفسي، وتأتيني العبارات بلا مشقة، وتجري دموعي بنعومة، ويبدو لي بأنك حاضر، وأنني أراك وتسمعني. وعلى العكس من ذلك، إذا اضطررتُ أن أبدو لك بمظهر سلبي، فإنني أفكّر بصعوبة، ولا أجد العبارات الملائمة، وتتحرك الريشة برداءة، ويتأثر بذلك طابع كتابتي نفسه، ولا أستمر إلاّ لأنني آمل سراً بأنك لن تقرأ هذه الأماكن. وهذا أحدُها.

عندما انسحبتْ أخواتُنا جميعاً... –»حسناً، ماذا فعلتِ؟» –ألم تحزر؟... لا، أنتَ أكثر استقامةً من أن تتصور ما فعلتُه. لقد نزلتُ على رؤوس أصابعي فوقفتُ بهدوء عند باب ردهة الاستقبال واستمعتُ إلى ما يقال هناك. ستقول بأن هذا تصرُّف في غاية السوء... آه! نعم بالنسبة لهذا، إنه تصرف في غاية السوء. هذا ما قلتُه لنفسي؛ فاضطرابي والاحتياطات التي اتخذتُها لكي لا يراني أحد، وعدد المرات التي توقفتُ فيها، وصوتُ ضميري الذي كان يحثني في كل خطوة كي أستدير راجعةً، لم تكن تسمح بالشك بذلك. إلاّ أن الفضول كان أقوى، ومضيت. وإذا كان التنصُّت على كلام شخصين يظنان بأنهما وحدهما، تصرفاً سيئاً، أليس نَقْلُهُ لك تصرفاً أسوأ بكثير؟ إنه مكان آخر من تلك المقاطع التي أكتبها متمنّيةً بأنك لن تقرأها. وعليّ إقناع نفسي بذلك رغم عدم صحته.

أول كلمة سمعتُها بعد صمت طويل نسبياً، جعلَتْني أرتعد. كانت:

«أبتاه، إني هالكة..».

ذهب عني خوفي، ورحت أستمع؛ وراحت الغشاوةُ التي كانت، حتى ذلك الوقت، قد حَجبتْ عني الخطرَ الذي أحاق بي، تتمزّق، عندما نوديتُ، وكان يجب أن أذهب فذهبت. لكنني للأسف كنت قد سمعتُ ما هو أكثر من كافٍ. يا لها من امرأةٍ يا سيدي المركيز! يا لها من امرأة بغيضة!...

هنا حدث انقطاع في يوميات الأخت سوزان. وما يلي ليس، كما يبدو، سوى الإعلان عما تنوي عرضه في بقية حكايتها. يَظهر أن رئيستها أصيبت بالجنون. ويجب ربط المقاطع التي أنقلها تالياً بحالتها البائسة.

أمضينا بضعة أيام من الهدوء والسكينة بعد اعترافها ذاك. وعاد الفرح ليعم الدير، وتلقّيتُ على ذلك تهانيَ رفضتُها باستنكار.

لم تعد تتفاداني؛ وعادت تنظر إليّ؛ لكن الظاهر أن حضوري لم يعد يشوّشها.

منذ أن جعَلَني فضولٌ سعيد أو فضولٌ قاتلٌ، أعرفُها معرفةً أفضل، رحتُ أجتهد لكي أنزَع عنها الرعب الذي تثيره في نفسي.

سرعان ما أصبحتْ ميالة للصمت؛ لم تعد تقول إلا نعم أو لا؛ بدأت تتنزه منفردة، وترفض الأطعمة؛ ارتفعت حرارة دمها وأصابتها حمى، وبعد الحمى جاء الهذيان.

وعندما تكون في سريرها وحيدةً، تَراني وتُكلّمني وتدعوني للاقتراب وتقول لي أعذب الكلام.

وعندما تسمع صوت أحد يمر حول غرفتها، تصرخ: «إنها هي التي تمرّ، هذه مِشيتها، لقد عرفْتُها. نادينها... لا، لا. اتركْنها».

الشيء الفريد هو أنها لم تخلط بيني وبين راهبة أخرى أبداً.

كانت تنفجر بالضحك في لحظة، وفي اللحظة التالية تنفجر بالبكاء، تحيط بها بعض الراهبات بصمت، وبعضهن يشاركنها البكاء.

تقول فجأةً: «لم أذهب إلى الكنيسة، لم أصلِّ للرب. أريد الخروج من هذا السرير، أريد أن أرتدي ثيابي؛ ألبِسْنني».

إذا اعترضن على طلبها تضيف: «ناولنني على الأقل كتاب صلواتي..». يناولنها إياه؛ تفتحه؛ تقلّب صفحاته بإصبعها، وتستمر بتقليبها إلى أن لا يبقى منها شيء. لكن عينيها تكونان في أثناء ذلك زائغتين.

نزلتْ ذات ليلة بمفردها إلى الكنيسة. تبعتْها بعض أخواتنا. ركعتْ فوق درجات المذبح، وأخذت تئن وتتنهد وتصلي بأعلى صوتها؛ خرجتْ؛ عادت؛ قالت: «فلْتأتين بها، إنها روحٌ شديدة النقاء! مخلوق شديد البراءة! ليتها تضم صلاتها إلى صلواتي..». ثم تصرخ مخاطبةً الجميع وناظرةً باتجاه المقاعد الفارغة: «اخرجن، اخرجن جميعاً؛ ولتَبقَ بمفردها معي. أنتن لستنّ جديرات بالاقتراب منها؛ إذا اختلطت أصواتكن بصوتها أمام الله، فإن

بخوركن الدّنس سيُفسِد عذوبةَ بخورِها. ابتعِدن، ابتعدن». ثم تحضّني على طلب العون والعفو من السماء؛ كانت تَرى الرب؛ وكان يبدو لها أن بروقاً تحرث السماء، فتنفتح، وتزمجر فوق رأسها، وينزل منها ملائكةٌ غاضبون، وتصيبها نظراتُ الرب بالارتعاد. كانت تركض في كل اتجاه، تنْدسّ في الزوايا المظلمة من الكنيسة، وتستغفِر، تلصق وجهها بالأرض وتغفو. لقد تغلغلت رطوبةُ المكان في جسدها، فنُقلت إلى حجرتها شبه ميتة.

وفي اليوم التالي تنسى ذلك المشهد الرهيب الذي حدث ليلاً. كانت تقول: «أين أخواتنا؟ ما عدتُ أرى أحداً. بقيتُ وحدي في هذا الدير. لقد هجرنني جميعاً، وسانت تيريز أيضاً. حسناً فعلن. طالما لم تعد سانت سوزان هنا، أستطيع الخروج؛ لن ألتقي بها... آه لو ألتقي بها! ولكنها لم تعد هنا، أليس كذلك؟ أليس صحيحاً أنها لم تعد هنا؟... ما أسعد الدير الذي يملكها!... سوف تقول كل شيء لرئيسة ديرها الجديد؛ كيف سيكون رأيها بي؟... هل ماتت سانت تيريز؟ سمعتُ أجراس الموت تقرع طوال الليل... الفتاة المسكينة! لقد ضاعت للأبد؛ إنه أنا؛ أنا... ذات يوم سأقف أمامها؛ ماذا سأقول لها؟ بمَ سأجيبها؟ ويل لها! ويل لي!»

كانت تقول في لحظة أخرى: «هل عادت بقيةُ راهباتنا؟ أَخبِرْنهنّ بأني مريضة... ارفعْنَ مخدتي... افككن أربطتي... أشعر هنا بشيءٍ يضغط عليّ... أشعر بلهيبٍ في رأسي. انزعن عني أغطية رأسي... أريد غسل يدي.... اجلبن لي ماء. اسكبن. اسكبن المزيد... إنهما بيضاوان؛ لكن الدنس باقٍ في الروح... ليتني أموت. ليتني لم أولد. ما كنتُ رأيتُها».

في صباح أحد الأيام، شوهدتْ حافية القدمين، بقميص داخلي وشعر مشعث، تُوَلْوِل وتُزبد راكضةً حول حجرتها، تضغط بيديها فوق أذنيها، تغمض عينيها وتلصق جسدها إلى السور... «ابتعدن عن هذه الهاوية؛ أتسمعن هذه الصرخات؟ إنها جهنم؛ أرى نيراناً تعلو من هذه الهاوية؛ أسمع أصواتاً مبهمةً تناديني من وسط النار...رأفةً بي يا إلهي... هيا بسرعة اقرعن الأجراس؛ اجمعن راهبات الدير ليصلّين من أجلي، سأصلي أنا أيضاً. وما أن طلع النهار حتى نامت أخواتنا... لم تغمض لي عين طوال الليل. أريد النوم ولا أستطيع».

قالت لها إحدى أخواتنا: «سيدتي، هناك شيء يعذبك؛ بوحي لي به، ربما يريحك البوح.

– أخت آغاثا، اسمعي. اقتربي مني... اقتربي أكثر. لا يجب أن يسمعَنا. سأكشف عن كل شيء، كل شيء؛ ولكن احتفظي بالسر. هل رأيتِها؟

– نعم يا سيدتي.

– أليس صحيحاً أنه لا أحد بعذوبتها؟ يا لَمشيتها! يا لَحشمتها! يا لَنُبْلها! يا لَتواضعها!... اذهبي إليها؛ قولي لها... لا، لا تقولي شيئاً؛ لا تذهبي. لن تستطيعي الاقتراب منها. ملائكة السماء تحرسها، تسهر حولها؛ رأيتهم. ربما سترينهم؛ ستخافين منهم مثلي. ابقي... إذا ذهبتِ ماذا ستقولين لها؟ اخترعي شيئاً لا تحمر منه خجلاً...

– ولكن يا سيدتي، ليتك تتحادثين مع مرشدنا.

– نعم، نعم... لا لا؛ أعرف ماذا سيقول لي؛ سمعته كثيراً... عن أي شيء أتحادث معه؟ ليتني أفقد ذاكرتي! ليتني أعود إلى العدم أو أولد ثانية!... لا تطلبي المرشد؛ أفضّل لو تُقرأ عليّ آلام سيدنا المسيح. اقرأي... بدأتُ أتنفس... لا أحتاج إلاّ إلى نقطة من هذا الدم لكي أتطهر... انظري، إنه يفور مندفعاً من خاصرته... أَميلي هذا الجرح المقدّس فوق رأسي... دمه يسيل فوقي ولا يلتصق بي... إنني هالكة!... أبعِدي هذا المسيح... قَرّبيه ..». حمَلنه إليها؛ ضمّته بين ذراعيها، قبّلته من كل ناحية ثم أضافت: «إنهما عيناها، إنه فمُها؛ متى سأراها ثانيةً؟... أخت آغاثا، قولي لها بأني أحبها؛ صوِّري لها حالي جيداً؛ قولي لها بأني أموت».

فُصد دمها؛ أُرسلت للاستحمام؛ لكنّ بلاءها بدا كأنه يتفاقم بالعلاج. لا أجرؤ أن أصف لكَ كل الأفعال الفاحشة التي قامت بها، أو أكرر لك الكلام قليل التهذيب الذي أفلتَ منها خلال هذيانها. كانت تَرفع يدها بلا انقطاع إلى جبينها كأنها تُبعد عنه أفكاراً نابيةً، أو صوراً، ما أدراني أية صور! كانت تدفن رأسها في سريرها، وتغطي وجهها بملاءات السرير. «إنه الشيطان المُغوي، قالت، إنه هو. يا للهيئة العجيبة التي اتخذها! اجلبن ماءً مباركاً. ارششن عليّ ماءً مباركاً... كفى، كفى، لقد انصرف».

سرعان ما تم وضعها في الحجز. لكن سجنها لم يكن شديد الحراسة بحيث لا تستطيع الهرب منه ذات يوم. كانت قد مزّقت ثيابها، وراحت تجوب ممرات الدير عارية تماماً ويتدلى من ذراعيها طرَفا حبلٍ مقطوع؛ كانت تصرخ: «أنا رئيسة ديركنّ؛ لقد أقسمتنّ جميعاً على طاعتي؛ فلتطِعنني. لقد حبستُنّني، أيتها الشقيات، هذا هو إذن جزاء طيبتي! إنكنّ تُهنّنني لِطيبتي الشديدة. لن أكون كذلك بعد الآن... اطفئن النار!... أوقفن القاتل!... أمسكن بالسارق!... النجدة!... إليّ أخت تيريز... إليّ أخت سوزان..».

أُمسِك بها واقتيدت مجدداً إلى حبسها؛ راحت تقول: «إنكن على حق؛ إنكن على حق. للأسف لقد جننتُ. أشعر بذلك».

كانت في بعض الأحيان تبدو كأنها تَهجسُ بمشهد العقوبات الجسدية المختلفة. كانت ترى نساءً طوِّقت أعناقهن بالحبال، نساءً قيِّدت أيديهن خلف ظهورهن؛ أو نساءً في أيديهن مشاعل. انضمّت هي إلى النساء اللواتي يعترفن بذنوبهن. كانت تظن بأنها تُساق إلى الموت، فتقول للجلاد: «إنني أستحق مصيري. أستحقه. ليت هذا العذاب يكون الأخير؛ لكنه عذاب أبديّ! نار أبدية!»

لا أقول هنا شيئاً غير صحيح؛ وإذا لم أقُل كلّ الأشياء الصحيحة الباقية، فلأنني لا أتذكرها أو لأنني أخجل من تدنيس هذه الأوراق بها.

بعد أن عاشت شهوراً عدة في هذه الحالة المزرية، ماتت. يا لها من مِيتةٍ سيدي المركيز! لقد رأيتُها، رأيتُ صورة اليأس والإثم الرهيبة تلك في ساعتها الأخيرة. كانت تظن نفسها محاطة بأرواح جهنمية تنتظر الاستيلاء على روحها. وتقول بصوت مخنوق: «ها هي ذي! ها هي ذي..». وتولول وتصرخ وهي تعترضها بمسيح تمسكه بيدها، وتقول: «يا إلهي... يا إلهي..». تابعَتْها الأخت تيريز عن كثب؛ وحصلناً على رئيسة دير أخرى مسنّة ومليئة بالمزاجية والخرافات.

أُتّهَم بأنني سَحَرْتُ سابقَتَها. هذه قناعتُها. وتتجدّد أحزاني.

تعرّض المرشد الجديد أيضاً للاضطهاد من قبل رؤسائه، وأقنعَني بالفرار من الدير.

تمّ التخطيط للفرار. اتجهتُ إلى الحديقة بين الساعة الحادية والثانية عشرة ليلاً. أُلقيتْ

إليّ حبالٌ ربطْتُها حولي. انقطعتْ بي ووقعتُ. انسلختْ رجلاي وأصبت بكدمة عنيفة أسفل ظهري. بعد محاولة ثانية ثم ثالثة صعدتُ إلى أعلى السور. نزلتُ. بدلاً من عربة البريد المتوقعة، فوجئتُ بعربة نقلٍ عمومي سيئة السمعة تنتظرني. ها أنذا في الطريق إلى باريس برفقة راهبٍ بنيديكتيّ شابّ. سرعان ما تبيّن لي، من فُحش نبرته ومن التحرّشات الوقحة التي سمح لنفسه بها، أنه لم تُراعَ الشروط التي اتُّفق عليها معي. عندها أسِفتُ على حجرتي في الدير، وشعرتُ بهولِ ما أنا فيه.

هنا أقدّم المشهد الذي جرى في العربة. يا له من مشهد! ويا له من رجل!

صرختُ، وعندها جاء سائق العربة لنجدتي، وحدثت مشاجرة عنيفة بين السائق والراهب.

وصلتُ إلى باريس. توقفت العربة في شارع صغير أمام باب ضيق ينفتح على ممر مظلم ووسخ. سارت صاحبة المنزل أمامي وأنزلتني في غرفة صغيرة في الطابق الأعلى، وجدتُ فيها تقريباً الأثاث الضروري. زارتني المرأة التي تشغل الطابق الأول. «أنت شابة. لا بد أنك تشعرين بالملل. انزلي إلى غرفتي يا آنسة، ستجدين صحبةً طيبة من رجال ونساء لسن جميعاً محبّبات مثلك، لكنهن في مثل سنّك تقريباً. إننا نتحادث ونلهو ونغني ونرقص؛ نجمع كل أنواع التسالي. وإذا وقع رجالنا جميعاً في حبكِ، أقسم لك بأن نساءنا لن يشعرن بالغيرة أو الغضب. تعالي يا آنستي..». تلك التي كانت تكلمني على هذا النحو كانت سيدة متقدمة في العمر. نظرتُها حنونة وصوتها ناعم وكلامها تلميحي للغاية.

إنني في هذه الدار لنحو خمسة عشر يوماً، عرضة لكلِّ إلحاحات الراهب الغادر الذي خطفني، وكلِّ المشاهد الصاخبة لمكانٍ مشبوه، أتحيّن فرصة الهرب.

وجدتُها أخيراً في أحد الأيام؛ كانَ الليل قد هبط منذ مدة؛ ولو كنتُ قريبةً من ديري لعدتُ إليه. ركضتُ دون أن أعرف إلى أين أنا ذاهبة. أوقفَني بعض الرجال. استولى عليّ الخوف، وسقطتُ مغشيةً من التعب عند عتبة دكان متجرِ شمعدانات. أُسعفت. وحين استعدتُ وعيي، وجدت نفسي مستلقية فوق سرير بائس، يحيط بي عدة أشخاص.

سألوني من أكون؛ لا أدري بماذا أجبت. جاؤوني بخادمة البيت لاصطحابي. أمسكتُ بذراعها ومشينا. وبعد أن قطعنا مسافة طويلة من الطريق، قالت لي تلك الفتاة:

«آنستي، يظهر أنك تعرفين إلى أين نذهب؟

– لا؛ إلى المستشفى على ما أظن.

– إلى المستشفى؟ ألستِ مطرودة من بيت؟

– مع الأسف، نعم!

– ما الذي فعلتيه لكي تُطرَدي في ساعة كهذه؟ ها نحن أمام باب سانت كاترين؛ لنرَ إذا كانوا سيفتحون لنا؛ على أية حال، لا تخشَيْ شيئاً، لن تبقَيْ في الشارع؛ ستنامين معي».

رجعتُ إلى دكان تاجر الشمعدانات. فزعت الخادمةُ حين رأت ساقيّ المسلوختين بسبب السقطة التي تعرضتُ لها لدى خروجي من الدير. أمضيتُ الليلة هناك. وفي اليوم التالي، مساءً، عدتُ إلى سانت كاترين. بقيتُ هناك ثلاثة أيام وفي نهايتها أعلنوا لي بأنني يجب إما أن أذهب إلى المشفى العمومي أو أَقبل بأولّ عرض يعرض علي.

في سانت كاترين أحدق بي خطر من طرفِ رجالٍ ونساء، فقد قيل لي بأن هذا المكان هو الذي يقصده زنادقةُ المدينة وقَوّاداتُها للتزوّد بالفتيات. لكنّ تَوَقُّعي للشقاء جعلَ الإغواءاتِ المبتذلة التي تعرضتُ لها، بلا أي قوة. بعتُ أسمالي، واخترتُ ثياباً أكثر توافقاً مع وضعي.

اشتغلتُ خادمة مع امرأةٍ تعمل غسالة. وأسكن الآن عندها. آخذ البياضات وأكويها. يومي شاقّ، ونصيبي من الطّعام والمأوى والمنامة، سيء، لكنني بالمقابل أُعامَل برفق. الزوج يعمل حوذياً لعربة تقف في الساحة؛ زوجته فظة بعض الشيء لكنها عدا ذلك طيبة. لو استطعتُ أن أعيش مصيري هذا بطمأنينة، لرضيتُ به.

علمتُ بأن الشرطة قبضت على خاطفي وسلّمته لرؤسائه. المسكين! إنه أشدّ مدعاة للرثاء مني. لقد أثار اعتداؤه عليّ ضجيجاً. أنتَ لا تعرف قسوة الرهبان في معاقبة الأخطاء المثيرة للفضائح. سيكون مصيره الإقامة في زنزانة بقية حياته؛ إنه المصير الذي ينتظرني إذا قُبض علي ثانيةً؛ لكنه سيعيش فيها أكثر مني.

أصبح الألم الناجم عن سقطتي محسوساً. انتفختْ رجلاي وربما سأعجز عن السير خطوة واحدة. أعمل وأنا جالسة، لأنّ الوقوف يؤلمني. لكنني أتوجّس من لحظة شفائي، فأية ذريعة سأجدها آنذاك إذا لم أخرج؟ وأية أخطارٍ سأتعرّض لها إذا خرجْتُ؟ ولكن، لحسن الحظ أنه ما زال أمامي وقت.

لا يمكن أن يشكّ أبواي بأنني لستُ في باريس، وسيبحثان عني بكل الأشكال التي يمكن تخيُّلها. كنت قد قررتُ أن أطلب من السيد مانوري الحضور إلى غرفتي بالطابق العلوي، للاسترشاد بنصائحه؛ لكني لم أجده.

أعيش في ذعر مستمر. عند أدنى ضجيج أسمعه في الدار، أو على السلالم، أو في الشارع، يتملكني الخوف وأرتجف مثل ورقة، تخور ركبتاي، وتسقط القطعة التي أعمل عليها من بين يديّ.

أُمضي كل الليالي تقريباً دون أن تغمض لي عين؛ وإذا نمتُ فنومٌ متقطّع؛ أتكلم؛ أنادي وأصرخ؛ لا أتصور كيف لم يكتشفني المحيطون بي بعدُ.

يبدو أن خبر هروبي قد انتشر. توقعتُ ذلك. حدّثتني إحدى زميلاتي أمس بالأمر، مضيفةً إليه ظروفاً شنيعة وأفكاراً موءسفة أشد الأسف. لحسن الحظ أنها كانت تنشر الغسيل المبلول على حبالٍ، وظهرها إلى المصباح؛ فلا يمكنها روءية اضطرابي. لكن سيدتي في العمل، عندما لاحظتْ بأنني أبكي، قالت لي: «ماري، ما بك؟ – لا شيء، أجبتُها. –ماذا إذن، أضافت، أأنتِ غبية لتُشفقي على راهبةٍ عديمة الأخلاق والدين، تُغرم براهبٍ حقير وتهرب معه من ديرها؟ لا بُدّ أن لديكِ من التعاطف ما يفيض عن الحاجة. ما كان عليها سوى أن تأكل وتشرب وتصلي للرب وتنام؛ كانت على ما يرام حيث هي، فلماذا لم تبقَ؟ لو أنها ذهبتْ لجلب الماء من النهر، في مثل هذا الطقس الرديء، ثلاث أو أربع مرات فقط، لتصالحتْ مع وضعها..». أجبتُ عن هذا الكلام بأن الإنسان أدرى بمواجعه. وكان الأفضل لو صمتُّ، لأنها ما كانت لتَردّ: «كفى، إنها فتاة فاسدة سيعاقبها الرب..». عندها انحنيتُ فوق طاولتي وبقيتُ هكذا إلى أن قالت لي معلّمتي: «ولكن، بماذا تحلمين؟ لن يتقدم العمل وأنت تنامين هنا»

لم أَمِل قط إلى الرهبنة، وظهر ذلك على نحوٍ كافٍ فيما أقدمتُ عليه. لكنني في الدير اعتدتُ على ممارسات كنت أكررها آلياً. فإذا قرعٌ جرس، رسمتُ شارة الصليب أو ركعت. وإذا طُرق الباب، قلتُ Ave . وإذا طُرح علي سؤال، انتهى جوابي دوماً بـ نعم أو لا يا أمي العزيزة، أو يا أختي، وإذا حضر شخص غريب صالبتُ ذراعيّ فوق صدري، وبدلاً من التحية المدنيّة، انحنيتُ على طريقة الراهبات. فتأخذ زميلاتي بالضحك ظناً منهن بأني أقلّد الراهبات على سبيل التسلية. ولكن من المستحيل أن يدوم خطوءهنّ، لأن طيشي سوف يفضحني وينتهي أمري. سيدي، عجِّلْ في نجدتي. ستقول لي حتماً: قولي لي ما الذي يمكنني فعله من أجلك. ها هو؛ لا أطمح لشيء كثير. يَلزمني مكانٌ أعمل فيه وصيفةً أو أكلّف فيه بخدمات معينة، أو حتى خادمة بسيطة لكل الأعمال، شرط أن أعيش منسيةً في ريف من الأرياف في عمق إحدى المقاطعات عند أناس شرفاء لا يتردد إليهم زوار كثُر. لا قيمة للمخصص الذي سأتقاضاه، المهم فقط هو الأمان والاطمئنان والخبز والماء. وكن واثقاً جداً من أنني سأنال الرضى من قِبل الأشخاص الذين سأعمل عندهم. ففي بيت أبويّ تعلمتُ كيف أعمل، وفي الدير تعلمت كيف أطيع. أنا شابة وطبعي رضيّ جداً. وعندما تشفى ساقاي سيتوفر لي قدرٌ أكثرُ من كافٍ من القوة لأجل القيام بالعمل المطلوب. أعرف الخياطة والحياكة والتطريز وتنظيف البياضات. كنتُ أرفو دانتيلاتي بنفسي قبل دخولي الدير، ولن ألبث أن أستعيد هذه المهارة. لستُ خرقاء في شيء، ويمكنني التنازل أمام كل شيء. صوتي جميل، ولديّ معرفة بالموسيقا، وأجيد العزف على الكلافسان بما يكفي لتسلية أمّ إذا أحبت ذلك. ويمكنني حتى أن أعطي دروساً في العزف على هذه الآلة لأبنائها؛ ولكنني أخشى بأن تفضحني هذه العلامات التي تشير إلى ثقافة مُعتنىً بها. إذا احتاج الأمر إلى تعلم تصفيف الشعر، لا ينقصني حسنُ الذوق. أستطيع أن أتعلّم عند أحد، وسرعان ما أتزود بهذه المهارة الصغيرة. سيدي، كل ما يلزَمني هو ظرف يمكن احتماله، أو الظرف المتوفر كما هو، ولا أرجو شيئاً يتخطّى ذلك. تستطيع أن تضمن أخلاقي: فرغم المظاهر، أتحلى بالأخلاق، وحتى بالورع. آه يا سيدي! لو لم يوقِفْني الرب لانتهت آلامي كلها، و ما عاد لديّ ما أخشاه من البشر. كم من مرةٍ زرتُ تلك البئر

العميقة في طرف حديقة الدير! ولم أُلقِ بنفسي فيها لأنها تُرِكَتْ لي الحرية الكاملة للقيام بذلك. أجهل المصير المخبأ لي. ولكنني لا أضمن شيئاً إذا ما اضطررتُ يوماً للعودة إلى دير، أيّ دير. فهناك آبار في كل مكان. سيدي، أشفِقْ عليّ، ولا تعرِّض نفسك لعذابِ ضميرٍ مديد.

ملاحظة لاحقة. التعب يكبلني، والرعب يحدق بي، والاطمئنان يفر مني. هذه المذكرات التي كتبتها على عجل، قرأتُها للتو بتروٍّ، وتبيّن لي أنني، دون قصد، أظهرتُ نفسي في كل سطر شقيةً بالقدر الذي كنتُهُ في الحقيقة، ولكن ألطف مما أنا عليه. هل مردُّ ذلك هو الاعتقادُ بأن صورةَ الجمال والجاذبية أشدّ تأثيراً على الرجل من صورةِ البؤس، وأن إغواءه أسهل من تليين قلبه؟ إن معرفتي بالرجال قليلة جداً غير أن أحداً لم يقترب مني بما يكفي لمعرفة ذلك. ماذا سيكون رأي المركيز بي، وهو الذي تُنسب إليه أرهفُ الأحاسيس، إذا اقتنع بأنني أخاطب غرائزه بدلاً من مخاطبة كرَم نفسه؟ تقلقني هذه الفكرة. ولكنه سيكون مخطئاً إذا نسبَ إليّ شخصياً نزوعاً تتصف به بناتُ جنسي كلهنّ. أنا امرأة، قد أكون لعوباً قليلاً، ما أدراني؟ ولكنني كذلك بحكم الطبيعة وبلا تصنُّع.

مقدمة
المؤلّف السابق

من المراسلات الأدبية

بقلم: «غْريم»[1]

[أيقظتْ راهبةُ السيد دي لا هَرْب ضميريَ النائم منذ عشر سنين، حين ذكّرتْني بمؤامرةٍ رهيبة كنتُ مُحرِّكَها بالتوافق مع السيد ديدرو واثنين أو ثلاثة آخرين من عصبة أصدقائنا المقرّبين.

ليس من المبكر جداً، في وقت الصيام المبارك هذا، الاعترافُ بالخطأ ومحاولة التكفير عنه وعن أخطائي الأخرى، وإغراقها كلها في بئر الرحمة الإلهية الضائع.

في سجلّ متسكّعي باريزيس[2]، عُرفتْ سنةُ 1760 بالشهرة الفجائية والمدوّية لـ رامبونو[3]، وبكوميديا الفلاسفة التي قُدّمت بموجب أوامر عليا على مسرح الكوميدي فرانسيز. لم يبق اليوم من ذلك العمل كله غيرُ ذكرى مليئة بالازدراء للمدعو باليسّو[4] مؤلفِ تلك الرابسودي الجميلة، ذكرى لم يشأ أن يتقاسمها معه أحدٌ من حُماته، لأن أكثر الأشخاص أهمية بينهم ظنّوا بأنهم مضطرون للنأي بأنفسهم، في العلن، عن مغامرته كأنما عن لطخة عار، فيما راحوا يشجعونه عليها في السر. وبينما كانت تلك الفضيحة تشغل

1- يحمل المخطوط تاريخ 1760. نُشر هذا التقديم الذي كتبه غْريم، والذي يرد هنا بين قوسين، إضافةً إلى الرسائل، في عدد 15 آذار عام 1770 من مجموعة مراسلات أدبية حررها غريم مع نخبة من وجوه الأدب في ذلك العصر، ومنهم ديدرو.

2- تسمية قديمة كانت تطلق على إقطاعية مدينة باريس.

3- جان رامبونو (1724–1802) صاحب كباريه باريسي، جلب الشهرة لنفسه عام 1760 حين باع الكباريه الذي يملكه. نتج عن ذلك دعوى أثارت كثيراً من السجالات، وأوحت لـ فولتير برسالة: دفاع عن رامبونو «قرأها بنفسه أمام قضاته».

4- قدم باليسو مسرحية كوميدية. استعار فيها أسماء فلاسفة إغريق للسخرية من فلاسفة عصره، وكان ديدرو ممثّلاً بـ سقراط.

باريس كلها، كان السيد ديدرو، الذي اختاره ذلك الأريستوفان[1] الفرنسي الجريء ليكون سقراطَ(ـهُ)، هو الوحيد غير المهتم بالأمر. ولكن بماذا كنا نهتمّ! بأشياء بريئة والحمد لله! كانت تجمعنا منذ زمن طويل صداقة رقيقة جداً مع السيد المركيز دي كرواسمار، الضابط السابق في كتيبة الملك، والذي تقاعدَ وكان أحد أكثر رجال هذا البلد قرباً إلى القلب. كان تقريباً في عمر السيد فولتير، ويحتفظ، مثل هذا الرجل الخالد، بشباب الذهن مع قدرٍ من الظُرف والحيوية والجاذبية لم يفقد نكهته أبداً بالنسبة لي. يمكن القول بأنه أحد أولئك الرجال المحبّبين الذين لا توجد تركيبةُ أذهانِهم ونموذجُهم إلا في فرنسا، رغم أن الطبع المحبّب والطبع النكِد ينتميان إلى كل بلاد الأرض. ليست مزايا قلب السيد دي كرواسمار ورِفعةُ مشاعره واستقامتُه الشديدة والرهيفة، هي ما يجعل أصدقاءه يحترمونه بقدر ما يحبونه، بل ذهنه الخلاّق، مخيلته الحيوية والبشوشة، تركيبة رأسه المبتكرة، آراؤه التي لا يوقفها إلا حدٌّ معين، والتي يتبناها، أو يقصيها بالتناوب، قريحته الخلاّقة التي يحملها الظُرفُ على الاعتدال دوماً، حيويةُ روحه الخارقة التي تَخلق لديه، إذا قُرنت بحياة متبطّلة وبالإمكانات الغنية التي تُتيحها باريس، أكثرَ الاهتمامات تنوعاً وتبايناً، وتَخلق له حاجاتٍ لم يتخيلها أحدٌ قبله ووسائل لا تقلّ غرابةً لتلبيتِها، وبالنتيجة مباهج لا تنتهي ويتوالى بعضها إثر الآخر: هذا جزء من العناصر التي تشكل الكائن السيد دي كرواسمار الذي يسميه أصدقاؤه المركيز الساحر بامتياز، مثلما كان القسُّ غالياني بالنسبة لهم القسّ الساحر. كان السيد ديدرو يقول له أحياناً مقارِناً بساطتَهُ بطرافةِ المركيز دي كرواسمار الحاذقة: دعابتكَ مثل نارِ الكحول، العذبة والخفيفة التي تطوف بكل نقطةٍ فوق شعر رأسي دون أن تحرقه أبداً.]

غادرَنا هذا المركيزُ الساحر أولَ عام 1759، وذهب إلى مُلْكيةٍ له في النورماندي، قرب كَن. وعَدَنا بألاّ يمكث هناك أكثر من الوقت اللازم لوضع أموره في نصابها. لكن إقامته

1– أريستوفان شاعر يوناني هزلي عاش تقريباً بين 445–386 ق.م. له إحدى عشرة مسرحية دافع فيها عن التقاليد ضد الأفكار الجديدة.
الأحد الثامن للعيد الكبير.

طالت دون أن يشعر. ففي ذلك المكان جمع أبناءه، وأحب راعيَ كنيسته جداً، وكرس نفسَهُ لأعمال البسْتنة. وبما أن مخيلةً بحيوية مخيلته كانت بحاجة إلى أشياء تتعلق بها، حقيقيةً أو متخيلة، فقد انغمس دفعة واحدة في أشد أشكال التديُّن ورَعاً.

رغم هذا بقي متعلقاً بنا للغاية. غير أننا ربما ما كنّا لنراه ثانيةً في باريس لولا فقده لولديه واحداً إثر الآخر. وبعد غياب زاد عن ثماني سنين أعاده هذا الحادثُ إلينا منذ ما يقرب الأربع سنين. تلاشى ورعُهُ كما يتلاشى كل شيء في باريس. وهو اليوم أكثر أُنْساً من أي وقت مضى. ونظراً لأن فقداننا له شقّ علينا للغاية، فقد تداولْنا في عام 1760، بعد تحمّلناه أكثر من خمسة عشر شهراً، حول الوسائل التي تورِّطُه بالعودة إلى باريس. تذكّرَ مؤلفُ المذكرات السابقة، أن الأوساط تناقلت باهتمام كبير، قبل رحيله ببعض الوقت، حديثاً عن راهبة شابة في دير لونشان، لجأت إلى القانون من أجل سحبِ نذورها التي أرغمت عليها من قبل أبويها. أثارت تلك الراهبة المسكينة اهتمام مركيزنا إلى درجة أنه، دون أن يراها أو يعرف اسمها، ودون حتى أن يتأكد من صحة الوقائع، ذهب للتدخل في صالحها لدى جميع نواب المجلس الأعلى في برلمان باريس. ورغم هذا التدخل الكريم، لا أدري أي حظٍ عاثر جعل الأخت سوزان سيمونان تخسر قضيتها، وصدر حكم بصلاحية نذورها.

قرر السيد ديدرو إحياء هذه الحادثة لصالحنا. افترضَ أن الراهبة المقصودة قد أسعدها الحظ وهربت من ديرها، وعليه فقد كَتبَ باسمها إلى السيد دي كرواسمار طالباً نجدته وحمايته. لم نيأس من رؤيته يأتي مسرعاً لنجدةِ راهبته، وكنا متأكدين من أنه إذا استشفّ الاحتيالَ من النظرة الأولى، وفشلَ مشروعُنا، فسوف تبقى لنا منه على الأقل مادة غزيرة للدعابة. اتخذتْ هذه الحيلةُ الفائقة مساراً آخر، كما سترون من خلال المراسلات التي سأضعها أمامكم، بين السيد ديدرو أو الراهبة المزعومة وبين المركيز الساحر الوفيّ دي كرواسمار الذي لم يراوده الشك لحظةً بخديعتنا. إنها الخديعة التي جثمت طويلاً فوق ضمائرنا. كنا آنذاك نمضي عشاءاتنا، وسط انفجارات بالضحك، في قراءة رسائل يُفترض أن تُبكي مركيزَنا الطيب، وقراءة الردود النزيهة التي كان ذلك الصديق الشهم والكريم

يجيب بها، وسط الانفجارات نفسها بالضحك. وما أن لاحظْنا بأن مصير راهبتنا المنكودة بدأ يثير بشدة اهتمامَ مُنقذها الحنون، حتى ارتأى السيد ديدرو أن يُميتها، مفضّلاً التّسبب للمركيز ببعضِ الأسى على تعريضه لعذابٍ أقسى بشكلٍ جليّ إذا جعلها تعيش وقتاً أطول. اعترفْنا له بهذه المؤامرة المجحفة منذ عودته إلى باريس، وضحك منها كما يمكنكم أن تتصوروا، وكان من مأساة الراهبة المسكينة أنها وثّقتْ عرى الصداقة بين الباقين منها على قيد الحياة. إلاّ أنه لم يكلّم السيد ديدرو عنها أبداً. وثمة مصادفة ليست الأقلّ تَفَرُّداً، هي أنه في الوقت الذي كانت فيه عملية الاختلاق الجماعية هذه تُلهب حماسةَ صديقنا في نورماندي، كان السيد ديدرو يلتهب حماسةً من جانبه. شرع هذا بكتابةِ قصة راهبتنا بالتفصيل، مقتنعاً بأن المركيز لن يؤوي في بيته شابّةً لا يعرفها. زارهُ ذات يوم السيد دالانفيل أحدُ أصدقائنا المشتركين، ووجده غارقاً في الألم، والدمعُ يفيض فوق وجهه. «ما بكَ؟ قال له السيد دالانفيل، – ما بي، أجابه السيد ديدرو؛ أبكي على حكاية أؤلّفها..». من المؤكد أنه لو أنهى هذه القصة لأصبحت إحدى أكثر الروايات التي حصلنا عليها حقيقيةً وإثارة للاهتمام وتأثيراً في النفس. لم يكن ممكناً قراءة صفحة فيها دون ذرف الدموع، رغم أنه ليس فيها قصة حب؛ إنها عمل عبقري تعبّر كلُّ تفاصيله عن الأثر القوي لمخيلة المؤلف؛ عملٌ ذو فائدة مشتركة وشاملة، لأنه أقسى هجاء قُدّم على الإطلاق لحياة الأديرة؛ وتأتي شدةُ وطأة هذا الهجاء من كونِ القسم الأول ليس فيه غيرُ الإطراء. لقد اتّصفت راهبتُهُ الشابة بورع ملائكي، واحتفظتْ في قلبها البسيط والرقيق بأصدق الاحترام لكل ما علّموها أن تحترِمَه. لكن هذه الرواية لم توجد على الإطلاق إلاّ على شكل نُتَف، وبقيت كذلك؛ لقد ضاعت مثلما ضاعت أعمالٌ أخرى من نتاج رجلٍ فريدٍ كان سيصبح في عداد الخالدين بفضل عشرين من الروائع، ولو وظّف وقتَه على نحوٍ أفضل لما تركها لآلاف المتطفّلين الذين سوف أذْكرهم جميعاً يوم الحساب، حيث سيُسألون أمام الله وأمام البشر عن الجرم الذي اقترفوه.

(وسأضيف أنا الذي أعرف السيد ديدرو قليلاً، بأنه قد أتمّ هذه الرواية، وأنها هي المذكراتُ التي قرأناها للتو والتي لا بُدّ أننا لاحظنا فيها إلى أية درجة يُعتبَر تجنُّبُ مدائحِ الصداقة مهمّاً).

كل ما بقي لنا من راهبتنا المسكينة هو إذن هذه المراسلات إضافةً إلى تَوْبتِنا. تذكّروا بأن الرسائل الموقعة باسم مادان أو سوزان سيمونان، هي من تأليف رئيس عصبة الشياطين ذاك، وأن جميع رسائل الوصيّ الكريم إلى الراهبة، هي رسائل حقيقية كُتبت بِنيّةٍ صادقة، وهذا ما تكبّدْنا كلّ مشاقّ العالم لإقناع السيد ديدرو به، فقد كان يعتقد بأن المركيز وأصدقاءه يسخرون منه.

بطاقة

من الراهبة إلى السيد الكونت دي كرواسمار
مدير المدرسة الملَكية العسكرية

ثمة امرأة بائسة اهتم بها السيد المركيز دي كرواسمار منذ ثلاث سنوات عندما كان يقيم قرب الأكاديمية الموسيقية، علمتْ بأن عنوانه الآن هو المدرسة العسكرية. أَرسلَتْ لتعرف هل مايزال باستطاعتها الاعتماد على طِيبته، كونُها الآن تستحق الشفقة أكثر من أي وقت مضى.

نتمنى أن يجيب بكلمة، لأن وضعها مُلحّ، ومن المهم جداً ألاّ يشكّ الشخص الذي سيسلمُهُ هذه الرسالةَ بشيء.

تلقّينا جواباً يقول:
بأننا أخطأنا بالشخص وبأن السيد دي كرواسمار المقصود يقيم حالياً في كَن.

كُتبتْ هذه البطاقة بيد شاب استخدمناه طوال هذه المراسلات. وقام خادمٌ من المنطقة بحملها إلى المدرسة العسكرية، وأبلغَنا بالجواب الشفهي. رأى السيد ديدرو بأن هذه الخطوة الأولى ضرورية لعدة أسباب وجيهة. فقد بدا وكأن الراهبة تخلط بين القريبَيْن، وتجهل كيف تكتب كُنيتَهما بالشكل الصحيح: وبهذه الطريقة علمتْ بشكل طبيعي تماماً بأن الوصيّ عليها موجود في كَن. ومن المحتمل أن يكون مدير المدرسة العسكرية قد مازَحَ قريبَه بمناسبة هذه البطاقة فأرسلها إليه، ما أعطى مغامرتَنا الفاضلةَ مظهراً حقيقياً عظيماً. لم يكن هذا المدير شديدُ اللطف مثل كل ما يَحمِل اسمَه، أقَلّ انزعاجاً منّا لغياب قريبه، وكنا نأمل بوضعِه في عداد المتآمرين. بعد جوابه كتبت الراهبةُ إلى كَن.

رسالة

من الراهبة إلى السيد المركيز دي كرواسمار، في كَن.

سيدي، لا أعرف إلى من أكتب، ولكنني، في الشقاء الذي أنا فيه، أتوجه إليك كائناً من تكون. إذا لم يخدعوني في المدرسة العسكرية، وكنتَ المركيز الكريم الذي أبحث عنه، فحمداً لله؛ وإذا لم تكن، فلا أدري ماذا سأفعل. ولكن الاسم الذي تحمله يطمئنني؛ آمُل أنك ستغيث إنسانة منكودة دعمْتَها بمساعيك أنت يا سيدي أو سيدٌ آخر يدعى كرواسمار، في محاولة غير مجْدية، قبل سنتين، للخروج من سجنٍ مؤبّد حَكمتْ قسوةُ أهلِها بزجّها فيه. لقد دفعني اليأس للقيام بخطوة أخرى ستسمع عنها بلا ريب؛ لقد هربتُ من الدير. ما عدتُ قادرة على تحمل آلامي، ولم يكن أمامي غيرُ هذا الطريق، أو اقتراف خطيئة أكبر، لكي أنال حريةً توقعتُ الحصول عليها بعدالةِ القوانين.

سيدي، إذا كنتَ الوصيّ السابق عليّ، فليت وضعي الحالي يؤثّر بك، ويوقظ في قلبك بعض مشاعر الشفقة! ربما كنتَ تَرى لجوئي إلى شخص مجهول، في ظَرفٍ مثل ظرفي، تَطفُّلاً. لكنك يا سيدي إذا رأيتَ الإهمال الذي تُركتُ فيه، وإذا كانت لديك فكرة عن القسوة التي تُعاقَب بها، في الأديرة، الأخطاءُ المثيرة للفضائح، سوف تعذرني؛ لكنك رقيق المشاعر، وسوف تخشى أن تتذكر يوماً مخلوقةً بريئة أُلقي بها في غياهب زنزانة حتى آخر يوم من حياتها. أغِثْني يا سيدي، أغِثْني. إنه فعلٌ صالح سوف تتذكره بنفسٍ راضية ما حييتَ، وسيجزيك الله عنه في هذه الحياة الدنيا أو في الآخرة. فكِّر يا سيدي بأنني أعيش قلقاً شديداً مستمراً وأنني سأعُدّ اللحظات. لا يمكن أن يشكّ أهلي بأنني لستُ في باريس، إنهم يقومون حتماً بكل أشكال البحث من أجل اكتشاف مكاني؛ لا تترك لهم الوقت للعثور عليّ. بقيتُ حيةً حتى الآن من عملي، ومن معونات امرأةٍ فاضلة كانت صديقة لي، ويمكنكَ توجيه ردِّكَ إليها. إنها تدعى السيدة ماداْن، وتقيم في فرساي. هذه

المرأة الطيبة ستزودني بكل ما سأحتاج إليه من أجل سفري، وعندما أحصل على عمل لن أحتاج إلى شيء، ولن أعود عبئاً عليها. سيدي، سلوكي سوف يبرر حمايتك التي ستمنحني إياها: وأياً كان الرد الذي ستجيبني به، فلن أشكو إلاّ من مصيري.

هذا هو عنوان السيدة مادان: السيدة مادان، جناح بورغونيي، شارع آنجو، فرساي.

تكَرّمْ بوضعِ مغلّفيْن، عنوانُها فوق الأول، وإشارةُ ضرْب فوق الثاني.

يا إلهي، كمَ أتمنى أن أتلقّى ردّك! إنني أعيش حالات رعب متواصل.

خادمتُكَ المتواضعة والمطيعة،

التوقيع: سوزان سيمونان.

نجد هذه الرسالة موسّعةً أكثر في نهاية الرواية حيث أدرجها ديدرو. ذلك أن ديدرو قرر إعادة النظر في هذا النصّ الأولي غيرُ المكتمل، عندما وقعَ بين يديه بعد واحدٍ وعشرين عاماً من النسيان.

كنا بحاجة إلى عنوانٍ لاستلام الردود، واخترنا سيدةً تدعى السيدة مادان، زوجة ضابط سابق في المشاة، وتعيش فعليّاً في فرساي. لم تكن تعرف شيئاً عن سَفالتنا ولا عن الرسائل التي جعلْناها لاحقاً تكتبها لنفسها، والتي استَعَنّا لأجلها بخطّ شخصٍ شابٍّ آخر. أُخبِرتْ السيدة مادان فقط بأن عليها استلام جميع الرسائل التي تحمل ختم مدينة كَن وتسليمي إياها. شاءت المصادفة أنْ يلتقي السيد دي كرواسمار، في صباح أحد الأيام إثر عودته إلى باريس بعد نحو ثماني سنين من خطيئتنا، بالسيدة مادان عند امرأة شريكةٍ في المؤامرة من أصدقائنا؛ كان حدثاً مسرحياً حقيقياً؛ كان السيد دي كرواسمار يعتزم طرح مئات الاستفسارات عن شابة تعيسة الحظ أثارت اهتمامه، بينما لم تكن السيدة مادان تعرف حتى بوجودها. كانت تلك اللحظة هي أيضاً لحظة اعترافنا العامّ، ولحظة العفو عن خطيئتنا.

جواب

من السيد المركيز دي كرواسمار

آنستي، وصلت رسالتك إلى الشخص المقصود عينه. أنتِ لم تخطئي في كلامك عن مشاعره، وتستطيعين السفر إلى كَن حالاً إذا كان يناسبك عمل لدى آنسة شابة.

فلْتَكتب لي السيدةُ صديقتُكِ بما يفيد بأنها ترسل لي وصيفةً بالصفات التي أرغب بها، مع المديح الذي تريده لمزاياك، دون الدخول في أية تفاصيل أخرى عن الوضع. فلتَذكُرْ لي أيضاً الاسم الذي ستختارينه، والعربة التي ستوصلك ويوم مغادرتك إذا أمكن. إذا جئتِ بعربة الكروسة من كَن، تتجهين إلى مكان وقوفها منذ صباح الاثنين، لتَصِلي إلى هنا يوم الجمعة؛ يقع المكان في باريس، شارع سان دونيس، في غران سير. إذا وصلتِ إلى كن ولم تجدي أحداً في استقبالك، تتجهين من طَرَفي إلى السيد غاسيون، مقابل ساحة رويال. ونظراً لضرورة التكتُّم القصوى من كلا الجانبين، فلتُعد السيدةُ صديقتُك إليّ هذه الرسالة التي تستطيعين الوثوق بمضمونها كل الثقة رغم كونها غير موقّعة. احتفظي منها فقط بالختم الذي ستستعملينه للتعريف بنفسك في كَن لدى الشخص الذي ستتجهين إليه.

اتّبعي يا آنستي ما توصيكِ به هذه الرسالة، بدقة وسرعة؛ ولأجل الحذر لا تحملي وثائق أو رسائل أو أشياء أخرى يمكن أن تعرّف عن شخصك: سيكون سهلاً جلب ذلك كله في وقت آخر. اعتمدي، بثقة تامة، على حسن نوايا خادمك.

ا...، قرب كَن، الأربعاء.

6 شباط 1760.

وُجِّهت هذه الرسالة إلى السيدة مادان. وكما هو متّفق رُسمت إشارة ضرْب على المغلف الثاني. كان ختمها يمثل رسم إله الحب آمور ممسكاً بإحدى يديه شعلة وباليد الأخرى قلبين، مع شعار لم يُمكن قراءته بسبب تضرُّر الختم لدى فتح الرسالة. كان طبيعياً أن تجد راهبةٌ صغيرة السن، في هذا الختم، صورةً لملاكها الحارس، وهي التي كان الحبُّ غريباً عنها.

جواب

من الراهبة إلى السيد المركيز دي كرواسمار

سيدي، استلمتُ رسالتك. أظن أنني مريضة للغاية، وحالتي في غاية السوء. إني شديدة الضعف، وإذا أخذني الله إليه، سأصلي لأجلك بلا انقطاع، وإذا نجوت، فسأفعل كل ما تأمرني به. أيها السيد العزيز! أيها الرجل الفاضل! لن أنسى طيبتك ما حييت.

يفترض أن تأتي صديقتي الفاضلة من فرساي، وسوف تخبرك بكل شيء.

يوم الأحد المقدس من شباط.

سأحافظ على الختم بعناية. ما هو مطبوع فيه أجده ملاكاً قدسياً، إنه أنت، إنه ملاكي الحارس.

أُرسلت هذه الرسالة دون خاتم السيد ديدرو لأنه لم يتمكّن من التوجُّه إلى مجلس رجال العصابة. ولم يكن راضياً عنها كرسالة، وزعم بأنها قد تكشف خيانتَنا؛ لقد أخطأ، وأظن أنه أخطأ حين لم يجد هذه الرسالةَ مناسِبةً. ولكي نرضيه، دوّنّا في سِجلات مجلس الاحتيال المشترك، الرسالة التالية التي لم تُرسل. عدا ذلك فإن ذلك المرَض كان أمراً لا غنى لنا عنه من أجل تأجيل السفر إلى كَن.

من السجلات

تلك هي الرسالة التي أُرسلت، والرسالة التالية هي تلك التي كان يُفترض بالراهبة سوزان أن تكتبها:

سيدي، أشكرك على طيبتك. يجب ألاّ تفكر بشيء بعد الآن، فسوف ينتهي كل شيء بالنسبة لي. عما قريب سأكون أمام رب الرحمة، وهناك سوف أتذكرك. إنهم يتداولون فيما إذا كانوا سيفصدونني مرةً ثالثة؛ سيأمرون بكل ما يروق لهم. وداعاً يا سيدي العزيز. أرجو أن تكون إقامتي أكثر سعادة في المكان الذي أنا ذاهبة إليه؛ وسنلتقي هناك.

رسالة

من السيدة مادان إلى السيد المركيز دي كرواسمار.

إنني بجانب سريرها، وهي تحثّني على الكتابة إليك. لقد بلغ بها المرض أشدّه، ولم تمكّنني ظروفي التي تربطني بفرساي، من القدوم في وقت أبكر لنجدتها. كنت أعلم أنها مريضة للغاية ومهجورة من الجميع، ولم أستطع المغادرة. صدقتَ يا سيدي، لقد عانت الكثير. تعرضتْ لسقْطةٍ وأخفَتْ الأمر. داهمتْها هجمةُ حمّى شديدة لم يتمكنوا من تخفيفها إلاّ بعمليات فصْد دمِها. أظن أنها خارج نطاق الخطر. ما يقلقني الآن هو خشيتي من أن تطول نقاهتها فلا تستطيع السفر قبل شهر أو ستة أسابيع. كانت ضعيفة جداً من قبل، وستزداد ضعفاً. حاول إذن يا سيدي أن تكسب الوقت، ولنعمل معاً على إنقاذ أكثر مخلوقة في العالم تعاسةً وإثارة للاهتمام. لا يسعني أن أشرح لك مقدار أثرِ بطاقتك عليها؛ لقد بكت كثيراً، وكتبتْ عنوان السيد غاسيون خلف رسمٍ للقديسة سوزان في كتاب

صلواتها، وأرادت أن تكتب لك رداً رغم ضعفها. كانت خارجة من أزمة، ولا أدري ما الذي كانت ستقوله لك، لأنها لم تكن بكامل رشدها. عذراً يا سيدي لأنني أكتب لك هذا على عجل. إنها تثير عطفي، وأتمنى ألا أفارقها أبداً، ولكن بقائي هنا عدة أيام متتالية مستحيل. أعيد إليك الرسالة التي كتبْتَها لها وأرسل إليك رسالة أخرى بالطريقة التي طلبتَها تقريباً. لا أتكلم فيها عن مواهبها الجذابة التي لا تناسب ما ستصير إليه، والتي يبدو لي أن عليها التخلي عنها قطعاً إذا أرادت ألاّ يتعرف عليها أحد. إلى ذلك، فإن كل ما أقوله لك عنها صحيح. لا يا سيدي، لا توجد أمّ لا يغمرها السرور لكونها أمّاً لها. لقد انصبّ اهتمامي الأول، كما يمكنك الاعتقاد، على وضعها في مكان آمن، وقد تمّ الأمر، ولن أسمح لها بالذهاب إلاّ حين تستعيد صحتها تماماً؛ ولكن، كما قلت لك، لن يكون ذلك قبل شهر أو ستة أسابيع. هذا أيضاً إذا لم يقع طارئ؛ إنها تحتفظ بختمِ رسالتك في كتاب صلواتها تحت مخدة نومها. لم أجرؤ أن أقول لها بأنه ليس ختمك؛ لقد انكسر وأنا أفتح رسالتكَ واستبدلتُهُ بختمي: في حالتها غير السارّة، لم يكن يفترض بي المجازفة بتسليمها رسالتك دون قراءتها. أودّ وأطلب منك أن ترسل لها كلمة تعزّز رجاءها؛ هذا الرجاء هو الشيء الوحيد الذي تملكه. ولا أضمن حياتها إذا لم يعد لديها رجاء. إذا تكرمتَ وقدمتَ لي بعض التفاصيل عن البيت الذي ستدخله، ستساعدني على تهدئة بالها. لا تخشَ شيئاً بخصوص رسائلك: سوف تُعاد جميعها إليك بالدقة التي أُعيدت بها الرسالة الأولى. وتأكدْ من حرصي أنا نفسي على عدم فعلِ شيء غير مدروس. سنتقيّد بكل شيء، إلا إذا غيرتَ ترتيباتك. وداعاً يا سيدي. المنكودة العزيزة تصلّي من أجلك في كل لحظاتِ صفاءِ ذهنها. أنتظر جوابك، ياسيدي، على العنوانِ نفسه أيضاً: جناح بورغوني، شارع دانجو، فرساي.

16 فبراير (شباط) 1760.

رسالة

يمكن إظهارها على أنها مرسَلة من السيدة مادان

كما طلبَ السيد المركيز دي كرواسمار.

سيدي، الإنسانة التي أقترحها عليك اسمها سوزان سيمونان. أحبها كما لو أنها ابنتي: إلا أنك تستطيع أخْذَ ما سأقوله لك حرْفياً، لأن المبالغة ليست من طبعي. إنها يتيمة الأب والأم، حسنة النشأة، لم تُهمل تربيتها وتعليمها، خبيرة بكل الأعمال الصغيرة التي يتعلمها الإنسان عندما يكون ماهراً، ويحب شَغْلَ نفسه، قليلة الكلام ولكنها تُجيده، لديها ميل فطري للكتابة، وإذا أراد الشخص الذي توجِّهُها إليه أن يُقرَأ له، فإنها تقرأ على نحوٍ رائع. ليست طويلة ولا قصيرة. قدُّها جميل للغاية، وبالنسبة لوجهها لم أر وجهاً أكثر جاذبية. قد يجدونها صغيرة قليلاً في السن، لأني أظن أنها كادت تُتِمّ السابعة عشرة؛ ولكنها إذا كانت تنقصها خبرةُ السن، فقد عوّضتْها أكثر مما يجب بخبرةِ الشقاء. لديها قدر كبير من الاعتدال، ومحاكمة عقلية غير شائعة جداً. أَضْمَنُ نقاءَ خُلقها. إنها متديِّنة ولكن غير متعصبة. لديها نفسٌ صافية، وبشاشةٌ لطيفة، ولا تتبرم أبداً. لدي ابنتان، ولو لم تكن هناك ظروفٌ خاصة تَمنع الآنسةَ سيمونان من البقاء في باريس، لما بحثتُ لهما عن وصيفة أخرى. لا أتوقع العثور على واحدة بهذه الجودة. أعرفها منذ طفولتها، ولطالما عاشت أمام ناظريّ. ستسافر من هنا حسنة الهندام وسأتكفّل بنفقات سفرها القليلة، وحتى بنفقات عودتها، إذا حدث وأُعيدت لي: إنه أقلّ شيء أستطيعه من أجلها. لم يسبق لها أن خرجت من باريس، ولا تعرف أين تذهب، وستظن بأنها ضاعت. أجد كل المشقة في طمأنتها. كلمة منك يا سيدي عن الشخص الذي ستتبع له، والبيت الذي ستسكنه، والواجبات التي سيترتب عليها القيام بها، ستؤثر في نفسها أكثر من كل أحاديثي معها.

هل سيكون في طلب ذلك منك تَطلُّباً؟ مصدر خوفها كله هو ألاّ توَفّق في تحقيق ما ينتَظر منها: يا لها من طفلة مسكينة لا تعرف نفسها كثيراً.

سيدي، مع كل المشاعر التي تستحقّها، يشرفني أن أكون خادمتك المتواضعة والمطيعة.

التوقيع: مورو – مادان

باريس، 16 فبراير (شباط) 1760.

رسالة

من السيد المركيز دي كرواسمار إلى السيدة مادان

سيدتي، منذ يومين استلمتُ رسالةً من بضع كلمات، تُعلمني عن مرض الآنسة سيمونان. يؤرقني مصيرها التعيس، وتقلقني صحتها. هل لي أن أطلب منك إخباري عن حالها وعمّا ستقرره، أي باختصار أطلب الرد على الرسالة التي كتبتُها لها؟ كلّي رجاءٌ بطيبتك وبالاهتمام الذي تولينه للأمر.

خادمك المتواضع والمطيع.

كَن، 17 فبراير، 1760

رسالة أخرى

من السيد المركيز دي كرواسمار إلى السيدة مادان

كنتُ يا سيدتي على قدرٍ من القلق نفد معه صبري، ولحسن الحظ جاءت رسالتك ووضعت حداً لقلقي على الآنسة سيمونان التي تؤكدين لي بأنها خارج الخطر، وفي منأىً عمّن يبحثون عنها. إنني أكتب لها، وتستطيعين طمْأنتَها عن استمرار مشاعري إزاءها. لقد صدمتْني رسالتُها وظننتُ بأنه، في العُسر الذي رأيتُها فيه، لا يسعني تقديم شيءٍ أفضل

من إلحاقها بي، عن طريق جعْلِها تعمل في خدمة ابنتي التي للأسف فقدتْ أمّها. هذا هو يا سيدتي البيت الذي أوجّهها إليه. أنا متأكد من نفسي ومن قدرتي على تخفيف آلامها دون إفشاء سرها، الأمر الذي ربما يكون أصعب إذا أوكِلَ لآخرين. لن أستطيع منع نفسي من التحسُّر عليها وعلى التفاصيل التي لن يسمح لي قدَري بالتصرّف حيالها كما أتمنى. ولكن ما العمل إذا كنا خاضعين لقوانين الضرورة؟ أقيمُ على بعد فرسخين من المدينة، في منطقة ريفية لطيفة، حيث أعيش نائياً جداً مع ابنتي وابني البكر الذي هو فتىً مليء بالغيريّة والتقوى، والذي سأخفي عنه خصوصياتِها. بالنسبة للخدم، جميعهم أشخاص ارتبطوا بي منذ زمن طويل. كل شيء إذن في تمام الهدوء والانسجام. سأضيف أيضاً بأن هذا الحل الذي أعرضه عليها لن يكون سوى أحد البدائل: إن هي وجدَتْ خياراً أفضل، فأنا لا أنوي إكراهها على أي التزام؛ ولكن لتكن على يقين من أنها ستجد لديّ على الدوام دعماً أكيداً. فلتستعدْ عافيتَها دون خوف، سوف أنتظرها وسيسرُّني في هذه الأثناء أن أتلقى مراراً أخبارها.

يشرفني يا سيدتي، أن أكون خادمك المتواضع والمطيع.

كَن، 21 فبراير (شباط) 1760.

رسالة

من السيد المركيز دي كرواسمار إلى الأخت سوزان.

(رُسمت إشارة ضرْب على الغلاف)

لا أحد يا آنستي أشدّ مني تأثراً بالوضع الذي أنت فيه. ولا يسعُني إلاّ الاهتمام المتزايد بمَدِّكِ ببعض العزاء في المصير الشقي الذي يلاحقك. اطمئني، استعيدي قواكِ، وثقي دوماً بمشاعري كل الثقة. يجب ألاّ يشغلك بعد الآن شيء سوى استعادة عافيتك والحرص على

ألاّ يتعرف أحدٌ عليك. إذا كان بمقدوري أن أجعل مستقبلك أفضل، فسأفعل. ولكنّ وضعكِ يعوقني، ولا يسعني سوى الشكوى من قيد الضرورة. الإنسانة التي أريدك معها، هي من أعزّ الناس إليّ، وستكونين مسؤولة أمامي بشكل رئيسي؛ لذا سأحرص قدر استطاعتي على تخفيف المشاقّ الصغيرة التي لا يمكن فصلها عن االوضع الذي ستكونين فيه. إنك تَدينين لي بثقتك، وسأعتمد بثقة كلّية على دقّتك في القيام بعملك؛ هذه الثقة يجب أن تطمئنك وتكشف لك، آنستي، طريقتي في التفكير، وإخلاصي وتواضعي في خدمتك.

كَن، 21 فبراير، 1760.

أكتب إلى السيدة مادان، التي يمكنها إخبارك بالمزيد.

رسالة

من السيدة مادان إلى السيد المركيز دي كرواسمار.

سيدي، تأكد شفاء مريضتنا العزيزة، فلا حمى ولا ألم رأس، وكل شيء ينبئ بأسرع نقاهة وأفضل عافية. شفتاها مازالتا شاحبتين قليلاً، لكن عينيها تستعيدان البريق، وبدأ اللون يعود إلى الوجنتين؛ جلدها طري وسرعان ما سيستعيد تماسكه؛ كل شيء على ما يرام منذ أن هدأ بالُها. باتت الآن تشعر بقيمةِ رعايتك الطيبة يا سيدي، ولا شيء أشدّ تأثيراً من طريقتها في التعبير عن شعورها هذا. أودّ حقاً لو أستطيع أن أصور لك ما جرى بينها وبيني عندما حملتُ لها رسالتيك الأخيرتين. تناولتْهما بيدين ترتعشان، وكانت لا تكاد تتنفس وهي تقرأهما، وتتوقف عند كل سطر؛ وبعد أن انتهت قالت لي وهي ترتمي متعلّقةً برقبتي وذارفةً دموعاً حارة: «ماما مادان، لم يتخلّ الرب عني إذن، إنه يريد أن أكون

سعيدة أخيراً! أجل، الربِ هو الذي ألهمني بالتوجُّه إلى هذا السيد العزيز: مَن غيرُه كان سيرأف بحالي؟ لنشكر السماء على هذه النِّعم الأولى كي تُنعم علينا بغيرها». جلستْ بعد ذلك فوق سريرها وأخذت تصلي؛ ثم قالت حين عادت إلى مواضع معينة من رسائلك: «إنه يعهد إليّ بخدمة ابنته! آهٍ يا أمي، إنها ستكون شبيهة به، ستكون رقيقة خيّرةً ومرهفة الإحساس مثله..». وبعد أن توقفت، قالت بشيء من القلق: «فقدتْ أمّها! أأسفُ لعدم امتلاكي الخبرة اللازمة. لا أعرف شيئاً عن ذلك، ولكنني سأبذل جهدي؛ سأتذكّر صباحَ مساء ما أَدين به لوالدها؛ يجب أن يعوِّض الامتنانُ أشياءَ عديدة. هل سأبقى مريضة طويلاً أيضاً؟ متى سيُسمح لي بالأكل؟ لم أعد أتألم من سقطتي أبداً..». أذكر لك هذا التفصيل يا سيدي لأنني آمُل بأنه سيروق لك. كان في كلامها وفعلِها من البراءة والاندفاع ما ملأ نفسي بالنشوة. لا أدري ما الذي ما كنتُ لأعطيه لكي تراها وتسمعها. لا يا سيدي، إمّا أنني لا أفهم في شيء، إو أنك ستحصل على مخلوقة فريدة سوف تكون برَكةَ بيتكَ. إنّ ما تكرمتَ، وأخبرتَني به عنك وعن الآنسة ابنتك والسيد ابنك وعن وضعك، يناسب رغبتها على أكمل وجه، وهي لا تزال عند ما عرضَتْهُ أولاً: إنها لا تطلب غير الطعام والكساء، وبمقدورك أخذ كلامها حرفياً إذا كان ذلك يناسبك؛ سأتكفل أنا بالباقي مع أنني لستُ غنية؛ فأنا أحب هذه الفتاة، وقد تبنّيتُها في قلبي. والقليل الذي سأقدمه لها في حياتي، سيجري عليها بعد مماتي. لا أخفيك بأن كلامك بشأن كونك حلاً بديلاً وبشأن تركِكَ لها حرةً في قبول حل أفضل في حال توفره، أَحزَنها؛ لم يُغضبني أن أجدها بهذه الرهافة، ولن يفوتني أن أفيدك بتطوراتِ نقاهتها؛ ولكن لدي خطة عظيمة لن أيأس من نجاحها أثناء استعادتها لعافيَتها. ليتك توجِّهني إلى أحد أصدقائك، فلا بدّ أن لك الكثير منهم هنا. أحتاج إلى رجل عاقل متكتّم وحاذق، وليس من المرموقين جداً، له صلة مباشرة أو عبْر أصدقائه، بشخص مهمّ سأسمّيه له، وله مدخل إلى البلاط دون أن يكون جزءاً منه. وبالطريقة التي رُتِّب بها الأمر في ذهني، لن تتم مكاشفة هذا الشخص بالأمر أبداً،

وسيخدمنا دون أن يعرف حول ماذا: إذا لم تثمر محاولتي، فإننا سنخرج منها على الأقل بفائدة إقناع الآخرين بأنها تقيم في بلد أجنبي. إذا استطعتَ توجيهي إلى شخص ما، أرجوك أن تسميه لي وتدلني على عنوانه ثم تكتب له بأن السيدة مادان التي تعرفها منذ زمن طويل، ستأتي إليه لطلب خدمة منه، وأن تتمنى عليه الاهتمام بها إذا كانت الخدمة قابلة للتحقيق. ولا بأس عليك إن لم يكن لديك أحد. ولكنْ ابحثْ يا سيدي. عدا ذلك، أرجو أن تعتمد على الاهتمام الذي أوليه لفَتاتنا المنكودة، وعلى الحذر الذي تمدُّني به الخبرة. الفرح الذي تركتْه رسالتُك الأخيرةُ فيها، أثار بعض الحيوية في نبضها، ولكن ذلك لن يكون شيئاً يذكر.

مع أصدق مشاعر الاحترام، يشرفني يا سيدي أن أكون خادمتك المتواضعة والمطيعة.

التوقيع: مورو– مادان.

باريس، 3 مارس (آذار) 1760.

فكرةُ السيدة مادان بأن يوجِّهها الوصيُّ الكريم إلى أحد أصدقائه، كانت فكرة من وحْي الشيطان، تَوقَّعَ أنصارُهُ الإيحاءَ بمهارةٍ، من خلالها، لصديقهم النورمانديّ بالتوجّه إليّ وإطلاعي على كل خبايا هذه القضية؛ الأمر الذي نجح تماماً كما سترون من تتمة هذه المراسلات.

رسالة

من الراهبة سوزان إلى السيد المركيز دي كرواسمار

سيدي، سلّمتْني ماما مادان الرسالتين اللتين تفضّلتَ بكتابتِهما إليّ. هذا أفضل مما أستحق مئة مرة. نعم مئة مرة، بل ألف مرةٍ. أعرف القليل جداً من الناس ولديّ القليل جداً من التجربة، وعندي إحساس شديد بكل ما ينقصني لكي أكون عند حسن ظنك على

نحو لائق، ولكنني أتوقع كل شيء من تَساهلك ومن اندفاعي وامتناني. عملي سيكوّنُني، وماما مادان تقول بأن هذا أفضل مما لو كنتُ مكوّنةً من أجل عملي. يا إلهي كم أتعجّل الشفاء وأتعجّل الذهاب إلى مخلّصي والارتماء عند قدميه وخدمته لدى ابنته العزيزة بكل استطاعتي! يقولون لي بأن ذلك لن يحدث قبل شهر؛ شهر! إنه وقت طويل. سيدي العزيز، أَبْقِ عطفكَ عليّ. الفرح يغمرني، لكنهم لا يريدوني أن أكتب ويمنعوني من القراءة ويُبقوني في السرير ويغرقوني بالمشروبات الساخنة ويُميتوني من الجوع، وكل هذا لفائدتي. حمداً لله! إنني مع ذلك أطيعهم رغماً عني.

سيدي، بقلبٍ ممتنّ، خادمتك الشديدة التواضع والخضوع.

التوقيع: سوزان سيمونان

باريس، 3 مارس (آذار) 1760.

رسالة

من السيد المركيز دي كرواسمار إلى السيدة مادان

سيدتي، منعني توعُّكٌ أشعر به منذ بعض الوقت، من الرد في وقت أبكر، ومن التعبير لك عن سعادتي بنقاهةِ الآنسة سيمونان. آمُل أن تعلميني قريباً عن شفائها التام الذي أتمناه بشدة. يعذّبني ألاّ أستطيع المساهمة في تنفيذ الخطة التي تفكرين بها لصالحها. وبدون أن أعرف ماهي، لا يسعني إلاّ أن أراها جيدة للغاية بفضل قدرتك على توخّي الحذر والاهتمام الذي تتعاملين به معها. لستُ معروفاً في باريس إلا قليلاً جداً، وبين عدد قليل من الأشخاصِ غير المعروفين إلاّ قليلاً جداً مثلي، وليس من السهل العثور على معارف من النوع الذي تطلبين. استمري أرجوك بتزويدي بأخبار الآنسة سيمونان التي ستبقى مصلحتُها عزيزة عليّ.

يشرفني يا سيدتي أن أخدمك بكل تواضع.

13 مارس (آذار) 1760.

جواب

من السيدة مادان إلى السيد المركيز دي كرواسمار.

سيدي، ربما أكون قد ارتكبت خطأً بعدم الإفصاح عن الخطة التي فكرت بها، ولكنني كنتُ أتعجّل المضي إلى الأمام! إليك إذن ما خطر ببالي. يجب أن تعرف أولاً بأن الكردينال تـ××× كان وصيّاً على العائلة. وبوفاته فقدَ جميعُ أفرادها الكثير، وبخاصة سوزانتي التي قُدّمت له في يفاعتها الأولى. كان الكردينال العجوز يحب الأطفال الجميلين: وقد أذهلهُ جمالُ هذه الطفلة، فتكفّل برعاية مستقبلها؛ وعندما مات تمّ التصرّف بمصيرها على النحو الذي تعرفه، وظنّ الأوصياءُ عليها بأنهم يَفون بدَينهم إزاء الإبنة الأصغر بتزويج البنتين الكُبريَين. لذا فكرتُ بأنه لو كان لنا مَنفَذٌ ما يوصلنا إلى السيدة المركيزة تـ××× التي يُقال بأنها إن لم تكن متعاطفة فهي على الأقل نشيطة للغاية (وهل يَهُمّ من أين يأتي الخير؟)، وقد كلّفتْ نفسَها عناءً شديداً في الدعوى التي رفعتْها ابنتي. فإنْ استطعنا أن نعرض لها الوضع المحزن الذي تعيشه فتاة عرضة لكل عواقب الفقر، وهي في بلد أجنبي بعيد، لو كان لنا ذلك لأَمْكَنَنا انتزاعُ مخصص صغير من الصِّهْرين اللذين استوليا على كل ممتلكات البيت واللذين لا يفكران بنجدتنا. في الحقيقة يا سيدي، الأمر يستحق أن نعود كلانا إليه. فهذا المخصص إضافةً إلى ما أمّنْتُهُ لها للتو وما ستحصل عليه من فضلك، سيجعل وضعَها جيداً في الحاضر ومقبولاً في المستقبل، ويقلّل من أسفي على رحيلها. ولكنني لا أعرف لا السيدة المركيزة تـ××× و لا سكرتير الكاردينال المتوفى الذي يقال بأنه من رجال الأدب، كما لا أعرف أحداً قريباً منهما، والفتاة هي مَن اقترحت علي التوجه إليك بهذا الشأن. عدا ذلك لا يسعني أن أقول لك بأن نقاهتها تسير على النحو الذي أرجوه. أظن بأنني قلت لك بأنها تعرضت لجرح داخلي أسفل ظهرها. وبعد أن كان ألمُ هذه السقطة قد تبدّد، بات محسوساً من جديد. إنه ألم يعود ويمضي وترافقه قشعريرة داخلية خفيفة، ولكنّ جَسّ نبضها لا يشي بأية حرارة: يهز الطبيب رأسه، ولا يعجبني ما يرتسم

على وجهه. الأحد القادم ستذهب لحضور القداس. هذا ما تريده. لقد أرسلتُ لها حالاً معطفاً بقلنسوة تغطِّيها حتى طرف أنفها، تستطيع باعتقادي أن تُمضي، مسربلةً به نصفَ ساعة دون مخاطرة في كنيسة صغيرة قليلة الإضاءة في الحي. إنها تتوق إلى لحظة رحيلها، وأنا متأكدة من أنها لن تبتهل إلى الله بشدة لأجل شيء أكثر من ابتهالها لأجل أن يُتمّ عليها شفاءها، ويديمَ طيبةَ الوصي عليها. إذا وجدتْ نفسَها في وضع يمكّنها من السفر بين عيد الفصح والكازيمودو، فلن يفوتني إعلامك مسبقاً بالأمر. عدا ذلك يا سيدي فإن غيابها لن يمنعني من المبادرة، في حال عثوري بين معارفي على أحد يستطيع القيام بشيء لدى السيدة دي تـ××× والطبيب أ××× صاحبِ التأثير الكبير عليها.

إنني يا سيدي، باسمي وباسمها، ممتنةٌ لك امتناناً لا حدود له.

خادمتك المتواضعة والمطيعة.

التوقيع: مورو – مادان

فرساي، 25 مارس (آذار) 1760

ملاحظة: لقد منعتُها من الكتابة إليك خوفاً من مضايقتك؛ فليس هناك اعتبارٌ غير هذا يستطيع منعها.

جواب

من السيد المركيز دي كرواسمار إلى السيدة مادان.

سيدتي، أرى خطتك المتعلقة بالآنسة سيمونان جيدة للغاية، وتروق لي أكثر لأنني أتمنى بشدة أن أراها مؤمّنةً في وضع مقبول قليلاً. لن أيأس من العثور على صديقٍ يستطيع فعل شيءٍ لدى السيدة دي تـ××× أو الطبيب أ××× أو سكرتير الكردينال المتوفى، ولكن هذا يحتاج إلى وقت وإجراءات احتياطية، سواء من أجل تجنب إفشاء السر، أو من أجل التأكّد من تكتُّم الأشخاص الذين أحسب أنني أستطيع التوجه إليهم. سأُبقي هذا الهدف نصب

عيني. وبالانتظار، إذا بقيت الآنسة سيمونان عند مشاعرها، واستعادت عافيتها بشكل كاف، فيجب ألاّ يمنعها شيء من السفر، وستجد لدي دوماً الاستعداد نفسه الذي عبرت لها عنه، والرغبة الشديدة نفسها بالتخفيف من مرارة مصيرها إذا أمكن ذلك. ترغمني حالُ أعمالي ومصائبُ الزمن، على النأي مع ولديّ بعيداً في الريف، لسبب اقتصادي؛ إننا نعيش هناك حياة بسيطة للغاية؛ وهذا يعفي الآنسة سيمونان من الإنفاق على ملابس ملائمة جداً أو باهظة الثمن؛ أية ملابس عادية تكفي في هذا البلد. هذا هو الريف، وهذا هو الوضع المتناغم والبسيط الذي ستجدني فيه، والذي أتمنى أن تتذوق فيه بعضاً من هناء العيش ومباهجه رغم الاحتياطات المزعجة التي سأضطر للتقيد بها حيالها. تكَرّمي سيدتي بإبلاغي عن سفرها، وخوفاً من أن تُضيع العنوان الذي أرسلتُه إليها، فهو عند السيد غاسيون، مقابل الساحة الملكية في مدينة كَن. وإذا تم إعلامي في الوقت المناسب عن ساعة ويوم وصولها، فستجد أحداً يصحبها إلى هنا دون توقف.

يشرفني سيدتي أن أكون خادمك المتواضع والمطيع.

31 مارس (آذار) 1760.

رسالة

من السيدة مادان إلى السيد المركيز دي كرواسمار

إذا بقيتْ عند مشاعرها، يا سيدي! وهل تشكّ في ذلك؟ وهل لديها شيء أفضل من ذهابها إلى بيت رجل فاضل وعائلة شريفة لتمضي أياماً سعيدة هانئة؟ أليست في غاية السعادة لكونك تذكّرْتَها؟! وماذا كانت ستفعل بنفسها لو لم يعد المأوى الذي تكرّمتَ بتقديمه لها، موجوداً؟ هي نفسها يا سيدي من تقول ذلك، وكل ما أفعله هو تكرار كلامها. أرادت أيضاً الذهاب إلى القداس يوم عيد الفصح؛ كان ذلك مخالفاً لرأيي، وجرّ عليها نتيجة سيئة للغاية. فقد عادت من هناك مصابة بالحمى، ولم تتعافَ منذ ذلك اليوم

التعس. سيدي، لن أرسلها لك قبل أن تصبح بصحة جيدة. إنها تشعر حالياً بسخونة فوق كلْيتيها، في المكان الذي جرحت فيه عندما سقطت. لقد نظرتُ للتو إلى المكان ولكنني لم أرَ شيئاً. لكنّ طبيبها قال لي أول أمس ونحن ننزل سويةً من عندها، بأنه يخشى من بداية تسرع في نبضها، وأنه يجب انتظار ما سيسفر عنه ذلك. لكنها لا تنقصها الشهية، ونومها جيد، وتحافظ على امتلائها. وعلى فترات متباعدة، أجد فوق الخدّين مسحةً من اللون أقوى قليلاً من المعتاد، وفي العينين حيوية أكبر من حيويتهما الطبيعية. لكن ما يحبطني هو نفاد الصبر. تنهض وتحاول السير، ولكنها ما أن تميل قليلاً إلى الناحية المصابة، حتى تطلق صرخة حادة تخرق القلب. ورغم هذا عندي أمل، وقد استفدتُ من الوقت لكي أهيئ صرة لوازمها الصغيرة.

ثوب من الكالامندو الإنجليزي يمكنها ارتداؤه بمفرده حتى نهاية الفصل الحار، ولفصل الشتاء ترتدي فوقه واحداً آخر من القطن الأزرق تلبسه حالياً.

خمسة عشر قميصاً مزيناً باسم ماري، بعضها من الباتيستا والأخرى من الموسلين. وسأرسل لها، قرابة منتصف شهر جونيه (حزيران)، ما يمكّنها من صنع ستة قمصان أخرى من قطعة قماش تُنَظّف من أجلي في سانلي.

عدة جيبونات داخلية بيضاء، اثنتان منها مني، مصنوعة من البازان ومزدانة بالموسلين.

ثوبان ضيقان متشابهان كنت قد أوصيت بصنعهما من أجل ابنتي الصغرى، ولاءماها على نحو مذهل. سيشكلان لباساً صيفياً لها.

بضع مشدّات ومَآزِر ومناديل ودزينتين من محارم الجيب.

عدة قبعات للنوم.

ستة أقراط محاطة بصفٍّ من ثمانية أزواج من الزخارف، وثلاثة محاطة بصَفّين.

ستة أزواج من الجوارب من القطن الناعم.

هذا هو أفضل ما استطعتُ تقديمه. حملتُ لها هذه الأشياء في اليوم التالي للأعياد، ولا يسعني أن أصف لك التأثُر الذي تلَقّتْها به. كانت تنظر إلى أحدها وهي تجرِّب غيره، تمسك

يديّ وتقبّلهما. لكنها لم تستطع حبْس دموعها عندما رأت ثوبَي ابنتي الضيّقَين. «علامَ
تبكين؟ قلتُ لها، ألم تكوني لي ابنةً دوماً؟ – صحيح»، أجابتْني... ثم أجابت: «الآن وقد
صار عندي أمل بأن أكون سعيدة، يبدو لي بأنني سيصعب عليّ الموت. ماما، ألن تزول
هذه السخونة في خاصرتي أبداً؟ ماذا لو وضعنا فوقها شيئاً ما؟..». يسرني أنك لم تعارض ١
خطتي، وأنك ترى إمكانية في نجاحها. إنني أترك كل شيء لحكمتك؛ ولكنني أظن أنني
يجب أن أخبرك بأن السيدة المركيزة دي تـ××× ذاهبة إلى الريف، وأن السيد أ××× لا
يمكن الوصول إليه وأن له طباعاً فظة، وأن السكرتير، شديدَ الفخر بلقب «أكاديمي» الذي
حصل عليه بعد عشرين عاماً من الالتماس، عائدٌ إلى بريتاني، وأننا سوف نُنسى خلال
ثلاثة أو أربعة شهور. ففي هذا البلد سرعان ما يصبح كل شيء خارج الاهتمام! منذ الآن
لم يعد الناس يتكلمون عنّا كثيراً، وقريباً سيكفّون عن ذلك تماماً. لا تَخَفْ أن تُضيع العنوان
الذي أرسلتَه إليها. إنها لا تفتح كتاب صلواتها مرةً دون أن تنظر إليه؛ إنها بالأحرى قد
تنسى اسمَ سيمونان، ولا تنسى اسم السيد غاسيون. سألتُها إذا كانت تريد الكتابة لك،
أجابتني بأنها قد بدأت بكتابة رسالة طويلة تضم كل ما لن تستطيع إعفاء نفسها من قوله
لك إذا منّ الله عليها بالشفاء؛ غير أنّ لديها إحساساً بأنها لن تراك أبداً. «الأمر يطول أكثر
من اللازم، أضافت، ولن أستفيد من طيبتِك ولا من طيبتِه: إما أنّ السيد المركيز سيغير رأيه،
أو أنني لن أشفى. – أي جنون! قلتُ لها، هل تدركين جيداً بأنكِ إذا بقيت تفكرين بهذه
الأفكار القاتمة، فإن ما تخشين منه سيحدث لك؟» قالت: «لكن مشيئة الله..». رجوتُها
بأن تُريني ما كتبَتْه لك، فأرعَبَني: إنه مجلد، مجلد ضخم. «هذا هو، قلتُ لها غاضبة، ما
يقتلُكِ». أجابتْني: «ماذا تريدينني أن أفعل؟ إما أن أهيّج أحزاني أو أشعر بالملل. –ومتى
استطعتِ كتابة هذا كله؟ – كنت أكتب القليل من وقت إلى آخر. سواء عشت أم متُّ أريد
أن يعرف الناسُ ما عانيتُه..». منعتُها من المضي في الكتابة، وفعل طبيبُها الشيء نفسه.
أرجوك يا سيدي، أن تضم سلطتَكَ إلى رجائي. إنها تعتبرك بمثابة سيّدها العزيز، ومؤكد
أنها ستطيعك. وفي هذه الأثناء بما أنني أتصور بأن الساعات طويلة عليها وأنها يجب
أن تنشغل بشيء، فقد حمّلْتُها طارةَ تطريز واقترحتُ عليها أن تبدأ بحياكة سترة لك،

ولو لم يكن إلاّ لمنْعِها من أن تمضي في الكتابة، ومن أن تحلم وتحزن. راق لها ذلك للغاية، وبدأت العمل في الحال. أرجو من الله ألا يتسنى لها الوقت لإنهائها هنا! من فضلك، كلمة منك تمنعها من الكتابة ومن الإفراط في العمل. كنتُ قد قررت العودة إلى فرساي هذا المساء، ولكنني قلقة: بدأ تسارع نبضِها يكدّرني، وأريد أن أكون بجانبها غداً حين يعود طبيبها. إنني لسوء الحظ أثق أحياناً بعض الثقة بإحساس المرضى. إنهم يستشعرون بما سيحدث لهم. عندما فقدتُ السيد مادان، كان جميع الأطباء يطمئنونني بأنه سيشفى، أما هو فكان يقول بأنه لن يشفى، وكان ما يقوله الرجل المسكين صحيحاً جداً. سأبقى، وسيشرّفني أن أكتب لك. إذا كان عليّ أن أفقدها، فأظن أن لا شيء سيعزّيني أبداً. وأنت يا سيدي ستكون سعيداً لأنك لم ترَها. والآن فقط شعرت الراهباتُ التعيساتُ اللواتي دفعْنَها للهرب، بالخسارة التي خسرْنها، ولكن بعد فوات الأوان.

بمشاعر الاحترام والعرفان منها ومني، يشرّفني يا سيدي أن أكون خادمتك المتواضعة والمطيعة.

التوقيع: مورو– مادان.

باريس، 13 أبريل (نيسان) 1760.

جواب

من السيد المركيز دي كرواسمار إلى السيدة مادان.

بانفعال حقيقي، سيدتي، أشاركِك القلق على مرض الآنسة سيمونان. لطالما مسّني وضعُها البائس، إلى أقصى حد. لكن التفاصيل التي تفضّلتِ بها حول مزاياها وعواطفها، والتي أثّرتْ بي لصالحها إلى درجة تجعل من المستحيل ألاّ أوليها أشد الاهتمام. احتمالُ تغيير مشاعري إزاءها غيرُ وارد إذن، وأرجوك أن تؤكدي لها المشاعر التي عبّرتُ عنها من خلال رسائلي، والتي لن يطالها أي تغيير. رأيتُ أنّ من الحكمة ألاّ أكتب لها، كي لا أعطيها الفرصة لكتابة ردّ. لا شك بأن أي نوع من المشاغل ضارّ في الضعف الذي تشكو

منه، ولو كانت لي سلطة عليها، لاستخدمتُها لمنعها من ذلك. لن يسعني التوجه إلى أحد أفضل منك، سيدتي، لتعريفها برأيي في هذا الشأن. ليس الأمر أنني لا أحب الاطلاع على أخبارها منها بالذات، ولكنني لا أستطيع تأييد فعلٍ هو محضُ لياقة، ويمكن أن يسهم في تأخير شفائها. الاهتمام الذي تولينه للأمر، سيدتي، يعفيني من رجائك مرة أخرى بأن تكبحيها في هذا الشأن. كوني دوماً متيقّنة من عاطفتي الصادقة إزاءها، ومن الاحترام الخاص والتقدير الحقيقي الذي يشرّفني أن أخدمك به يا سيدتي، بكل تواضع.

25 أبريل (نيسان) 1760.

ملاحظة لاحقة: قريباً جداً سأكتب إلى أحد أصدقائي الذي سيمكنك التوجه إليه للوصول إلى السيدة دي تـXXX. إنه يدعى السيد غْريم، ويعمل سكرتيراً لدى السيد دوق أورليان، وعنوانه شارع نيف دي لوكسمبورغ، قرب شارع سان أونوريه، باريس. سأعلمه بأنك ستذهبين إليه، وسأشير له بأنّ لك أفضالاً جمةً عليّ، وبأنني لا أرغب بشيء أكثر من التعبير عن امتناني لك. إنه لا يتناول عشاءه في بيته عادةً.

رسالة

من السيدة مادان إلى السيد المركيز دي كرواسمار

سيدي، كم قاسيتُ طيلة الفترة التي لم أتشرّف فيها بالكتابة إليك! لم أستطع قط تحمُّل مسؤولية إشراكك في ألمي، وآمُل بأنك ستشكرني لأنني لم أخضع روحك الرهيفة الإحساس لامتحانٍ بهذه القسوة. أنت تعرف كم كانت عزيزة عليّ. تخيّل يا سيدي بأنني رأيتها وهي تنحدر نحو نهايتها وسط آلام حادة، زهاء خمسة عشر يوماً متتالية. أظن بأن الله أشفق عليها وعليّ أخيراً. ما تزال المسكينة الشقية حيةً، ولكن ذلك لا يمكن أن يدوم طويلاً. لقد نفدت قواها وفي الحقيقة لقد خفّت آلامُها، ولكن الطبيب يقول بأن هذا سيّان. إنها لم تعد تتكلم أبداً تقريباً، وتفتح عينيها بصعوبة. لم يبق لها غيرُ صبْرِها

الذي لم يفارقها أبداً. وماذا سيحل بنا إذا لم يبق لديها صبر؟ اختفى الأمل الذي كان لديّ بشفائها، اختفاءً فجائياً. فمنذ سقوطها تَشكّل في خاصرتها خرّاج وراح ينمو خفيةً. لم تَشأ بأن يُفتح في وقته، وعندما أرادت ذلك كان الأوان قد فات. إنها تشعر بدنوّ أجَلها وتُبعدني عنها. أعترف لك بأنني لست في حالٍ تمكّنني من تحمّل هذا المشهد. البارحة بين العاشرة والحادية عشرة مُنحَت الأسرار الأخيرة؛ هي من طلب ذلك. بعد هذا الطقس الحزين بقيتُ وحدي قرب سريرها. سمعَتْني أتنهّد وبحثتْ عن يدي فأعطيتُها إياها. أمسكتْها ورفعتْها نحو شفتيها. جذبتني نحوها قائلةً بصوت خفيضٍ سمعْتُه بصعوبة: «ماما، معروفٌ آخر»

– ما هو يا ابنتي؟

– أن تباركيني وتذهبي..».

وأضافت: «السيد المركيز... لا تنسي أن تشكريه..».

كانت هذه آخر كلماتها. أعطيت بعض الأوامر، وذهبتُ إلى إحدى الصديقات حيث أنتظر من لحظة إلى أخرى. إنها الواحدة بعد منتصف الليل. وربما تكون لنا الآن صديقةٌ في الجنة.

بكل احترام، خادمتك المتواضعة والمطيعة.

التوقيع: مورو – مادان.

تعود الرسالة السابقة إلى 7 مايو (أيار)، ولكنها لم تكن مؤرّخة.

رسالة

من السيدة مادان إلى السيد المركيز دي كرواسمار.

ماتت الابنة العزيزة. انتهت آلامها ولكن آلامنا ربما ستدوم طويلاً أيضاً. انتقلتْ من هذا العالم، يوم الأربعاء الماضي، بين الثالثة والرابعة صباحاً، إلى العالم الذي ينتظرنا جميعاً. كم كانت حياتُها بريئة، وكم اتّسمت لحظاتها الأخيرة بالطمأنينة رغم كل ما

تمّ فعله لتنغيصها. اسمح لي أن أشكرك على الاهتمام الحنون الذي أوليته لمصيرها. هذا هو الواجب الوحيد الذي بقي علي القيام به إكراماً لها. إليك جميع الرسائل التي شَرّفْتَنا بإرسالها لنا. كان بعضها لديّ ووجدتُ البقية بين الأوراق التي سلّمتْني إياها قبل أيام من وفاتها: إنها، كما قالت لي، قصة حياتها عند أهلها وفي الأديرة الثلاثة التي أقامت فيها وما حدث بعد خروجها منها. ليس هناك احتمال بأن أقرأها عمّا قريب، فلن أستطيع رؤية شيء من الأشياء التي تخصّها، وحتى من الأشياء التي أعددتُها لها، دون أن أشعر بألم عميق.

إذا كان يسعدني يا سيدي أن أكون مفيدةً لك، فإن ذكراك ستُشعرني بالإطراء الشديد.

بمشاعر الاحترام والعرفان التي نَدين بها للأشخاص الرحيمين والمحسِنين، خادمتك المتواضعة والمطيعة.

التوقيع: مورو – مادان.

مايو (أيار) 1760.

رسالة

من السيد المركيز دي كرواسمار إلى السيدة مادان.

أعرف يا سيدتي ما الذي يجرّه على قلبٍ مرهف الإحساس ومحبٍّ للخير، فقدانُ موضوعِ حبّه، وخسارةُ الفرصة السعيدة لمنحه ما استحقّه بجدارة عبْر الشقاء، أو عبر المزايا الشخصية المحبّبة، كتلك التي تحلّت بها الآنسة العزيزة التي تثير اليوم حسرات قلبك. أشاركك فيها يا سيدتي بكل حنان التعاطف. أنتِ عرفتِها وهذا ما يجعل فراقها شاقاً عليك إلى هذا الحد.

إنني، ودون أن أحظى بهذا الامتياز، مسّتْني مصائبُها في الصميم، ورحتُ أتذوّق سلفاً متعةَ القدرة على المساهمة في إدخال السّكينةِ على أيامها. وإذا كانت مشيئة الله غير ذلك، وأراد حرماني من هذا السرور الذي تمنّيتُه بشدة، فإن علي أن أحمده على مشيئته،

ولكنني لا أستطيع أن أكون بلا تأثّر. أنت لديك على الأقل عزاءُ كونِك تصرّفتِ إزاءها بأنبل المشاعر، وكان سلوكك معها ينم عن أكرم العطاء، وهذا ما أثار إعجابي، وكان طموحي أن أقلِّدك. لم يبق لي سوى الرغبة القوية بأن أحظى بشرفِ التعرف عليك لأعبّر لك شفهياً عن حجم افتتاني بسموّ روحك، ولأقول لك كم يشرّفني أن أكون، سيدتي، وبكل الاحترام والتقدير، خادمك المتواضع والمطيع.

18 مايو (أيار) 1760.

ملاحظة: لقد أصبح كل ما يتعلق بذكرى فَتاتنا الشقية عزيزاً عليّ إلى أقصى الحدود. هل هي تضحيةٌ كبرى من جانبك أن ترسلي لي المذكرات والأفكار التي دوّنتْها حول مصائبها المختلفة؟ إن ما يجعلني أكثر ثقة وأنا أطلب منك هذا المعروف، هو قولك لي إنه قد يكون لي بعض الحق بذلك. وإذا رأيتِ الأمر مناسباً سأحرص في أول فرصة على إعادتها لك، وكذلك إعادة كل رسائلك. تَكَرّمي بتوجيهها إليّ بواسطة عربة النقل التي تقوم برحلة كل اثنين إلى كَن وتقف في غران– سير، شارع سان دوني، في باريس.

***

هكذا انتهت قصة الراهبة الشقية سوزان سولييه، الملقّبة بـ سيمونان، في القصة وفي هذه المراسلات. من المحزن حقاً أنّ مذكراتها لم تُبَيّض، وإلاّ لَشكّلتْ مادةً شيّقة للقراءة. وعلى السيد المركيز دي كرواسمار، بعد كل شيء، أن يكون ممتناً لمكرِ أصدقائه على منحه الفرصةَ لإنقاذ شخص من الشقاء، بنبلٍ واهتمام وبساطة تليق به حقاً: الدور الذي يلعبه في هذه المراسلات ليس الأقلّ مسّاً بالقلوب في الرواية.

ربما نُلام على تعجيلنا على نحوٍ غير إنسانيّ بموتِ الراهبة سوزان؛ ولكن هذا الحل بات ضرورياً بسبب إشعاراتٍ تلقيناها من قصر لاسّون كانت تفيد بأن شقةً يجري تأثيثها من أجل استقبال الآنسة دي كرواسمار، التي يريد والدُها إخراجها من الدير الذي تقيم فيه منذ وفاة أمها. كانت هذه الإشعارات تضيف بأن وصيفةً يُنتظر قدومها من باريس وستقوم في الوقت نفسه بدور مربّية للفتاة، وبأن السيد دي كرواسمار منشغل أصلاً

بتجهيز الخادمة التي كانت حتى ذلك الوقت تخدم ابنتَه. هذه الإشعارات لم تترك لنا خياراً بشأن الحل المتبقّي أمامنا، فحداثةُ سن الراهبة سوزان وجمالُها وبراءتها وروحها الرقيقة والمرهفة والحنونة القادرة على التأثير في أقلّ القلوب ميلاً للتعاطف، لم تستطع إنقاذها من موتٍ محتّم. ولكن بما أننا جميعاً تبنّينا مشاعرَ السيدة مادان إزاء هذه المخلوقة الجذّابة، لم يكن الحزن الذي سبّبه لنا موتُها أخفّ من حزنِ الوصيّ الموقّر.

وجود بعض التناقضات الطفيفة بين الرواية والمذكرات، يرجع إلى كون معظم الرسائل لاحقة للرواية؛ وسوف يتم الإقرار بأنه إذا كان هناك مدخل مفيد للرواية فهو المدخل الذي قرأناه للتو، وربما الوحيد الذي يجب تأجيل قراءته إلى نهاية المؤلّف.

بعد أن أمضى السيد ديدرو صباحات في تأليف رسائل صاغها جيداً وفكّر فيها جيداً، وكانت مؤثرة وروائية حقاً، فقد انكبّ أياماً، استجابةً لنصائح زوجته وشركائه في الإثم، على إفسادها، حاذفاً كل ما تحتويه من أمور فاقعة ومبالغ بها ومُخالِفة للحد الأقصى من البساطة ومن قابلية التصديق، بحيث أن أحداً لو التقط الرسائل بنسختها الأولى من الشارع، لقال: «جميل، جميل جداً..». وإذا التقطها بنسختها الأخيرة لَقال: «هذا صحيح حقاً..». أيّهما هي النسخة الأصلح؟ هل هي تلك التي ربما ستثير الإعجاب؟ أم تلك التي توحي بأنها حقيقية؟

نبذة عن المترجمة:

- ولدت روز مخلوف بسوريا في 1955 .

- إجازة في الآداب، قسم اللغة الفرنسية 1977. دبلوم تربية ودبلوم ترجمة
- الخبرات : تدريس اللغة الفرنسية وترجمة المقالات للصحف والدوريات المحلية والعربية. عضو في لجنة القراءة الخاصة بقسم التأليف والترجمة في وزارة الثقافة السورية منذ عام 1992.
- العمل الحالي: عضو لجنة قراءة المخطوطات (المترجَمة والمؤلّفة) في الهيئة العامة السورية للكتاب.
- بعض من أعمالها المترجمة:

1 –القرن الأول بعد بياتريس، أمين معلوف، دار ورد.

2 –ليلة الغلطة، الطاهر بن جلون. دار ورد.

3 –بيريرا يدّعي. أنطونيو تابوكي. دار ورد.

4 –فيرونيكا تقرر الموت. باولو كويلهو. دار ورد.

5 –الخلود، ميلان دونديرا. دار ورد.

6 –وردة سوداء بلا عطر. جمال الدين بن شيخ. دار ورد.

7 –الجنس والفزع (بحث). باسكال كينيار. دار ورد.

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae

الراهبة

سوزان سيمونان فتاة جميلة مرهفة وخلوقة، متديِّنة ولكن دون ميلٍ لحياة الرهبنة. يقرر أبواها، لسببٍ خفيّ، إرسالها رغماً عنها إلى الدير، لتكتشف هناك السبب الحقيقيّ الذي يكمن وراء الرغبة القوية بإبعادها .
تبدأ رحلة الراهبة بين المعاناة والصبر، وتنكشف شيئاً فشيئاً صورٌ من القسر وألوان من الظلم تتنافى مع الدين الحقيقي، وتحطّ من الطبيعة البشرية.
تغيِّر الراهبة ثلاثة أديرة وتهرب من ديرها الأخير لتبدأ بكتابة رسائل تخاطب فيها المركيز دي كرواسمار، وتقص عليه تفاصيل ما جرى معها، طالبةً مساعدته لتحريرها من الرهبنة من خلال القضاء.

تعتمد هذه الرواية على قصة حقيقية لراهبة تدعى مارغريت ديلامار أُلحقت بدير لونشان دون إرادة منها. فأصبحت قصتها الأليمة حديث الصالونات الأدبية طوال عام 1758.

علي مولا

ISBN 978-9948-01-414-0
9 789948 014140
cover by phxcom.com

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة